شرح كتاب الإيمان من صحيح البخاري

لفضيلة الشيخ
عبد الله بن محمد بن عبد الله الغنيمان
المدرس في المسجد النبوي

اعتنى به وأشرف على طبعه
عبد العزيز بن حمدو البليهي

مدار القبس للنشر والتوزيع

شرح
كتاب الإيمان
من صحيح البخاري

ح عبد العزيز بن حمود بن عبد الرحمن البليهي ، ١٤٤٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الغنيمان ، عبد الله بن محمد بن عبد الله
شرح كتاب الإيمان من صحيح البخاري
عبد الله بن محمد بن عبد الله الغنيمان؛ عبد العزيز بن حمود بن
عبد الرحمن البليهي - الرياض ، ١٤٤٣ هـ
٢٧٠ ص؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك: ٥-٩٦٧٩-٠٣-٦٠٣-٩٧٨
١ - الحديث الصحيح ٢ - الإيمان (الإسلام) أ. البليهي ، عبد العزيز
ابن حمود بن عبد الرحمن (محقق) ب. العنوان
ديوي ١ , ٢٣٥ ١٤٤٣/٤٠١٠

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٤٠١٠
ردمك: ٤-٠٧٥٠-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
(١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م)

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحفُوظَةٌ

تصميم وإخراج
مدار القبس للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الرياض
٠٠٩٦٦ ١١ ٢٦٨١٠٤٥
@madarulqabas
madarulqabas@gmail.com
www.madarulqabas.com

بسم الله الرحمن الرحيم

عبـــد الله بن محمد الغنيمان
المدرس بالمسجد النبوي الشريف
المدينة المنورة
كلية الدعـــوة - الجامعة الاسلامية

Abdullah B. Mohd. Al-Ghunaiman
Profit Mohd. Mosque's Teacher
Madina Munawarah
Propaganda College
Iclamic League

التاريخ ٢٨ / ١٢ / ١٤٤١هـ Date ....

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه

وبعد فقد كنت شرحت كتاب الإيمان من صحيح البخاري في إحدى الدورات العلمية فقام الأخ عبد العزيز بن حمود البليهي بتسجيله وتفريغه وقد استأذنني بالقيام بطباعته ونشره وقد أذنت له عسى الله أن ينفع به وكتبه عبد الله بن محمد الغنيمان

عبد الله محمد الغنيمان

مُقدِّمة المُعتني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله الكريم المنَّان، له الحمد في المبدأ والمنتهى، لا رادَّ لأمره، ولا صادَّ لفضله، ولا مَعقِّبَ لحُكمه، يُعزُّ من يشاء بطاعته، ويُعلي من يشاء بمعرفته، وهو أعلم بمواضع فَضْله، ومواقع عَدْله، أحمَدُه حمد الشاكرين، وأُثني عليه ثناء العارفين، ولن يُحصيَ خَلْقُه ثناءً عليه؛ فهو المحمودُ على أمْرِه وفِعْلِه.

وأشهد أنْ لا إلهَ إلا هو، لا شريك له في إلهيَّتِه وأسمائِه وصفاتِه ومُلكِه.

وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودينِ الحق، وصلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا.

أما بعدُ؛ فإنَّ مِن أشرفِ العلوم وأنفعِها: معرفةَ حديث الرسول ﷺ، وقد بذل علماء الإسلام سابقًا ولاحقًا جهودًا عظيمة في ذلك؛ روايةً ودرايةً، وتمييزًا لصحيح الأحاديث من ضعيفها، ولمقبولها من مردودها، فقام كل فريق بما فُتِح عليه من أنواع العلوم المتعلِّقة بالحديث؛ فمختصٌّ بجمع الروايات واستقصاء الطُّرُق، ومنهم من عُنِيَ بالتهذيب والترتيب والتبويب، وفريقٌ عُنِيَ برجال الإسناد جرحًا وتعديلًا.

ومنهم من صرف هِمَّتَه إلى شرح الحديث واستخراج الأحكام وتبيين الحلال والحرام، ومنهم الجامع لذلك وغيرِه من أنواع العلوم، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء، وكلٌّ سيتولى الله ﷻ جزاءه على حسَبِ نيَّته وإخلاصه.

وإنَّ مِن أفضل من برز في هذا الميدان: الإمامَ أبا عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ وأحسن جزاءه، في كتابه العظيم «الجامع الصحيح» الذي هو أصح الكتب المصنَّفة في الحديث، كما اتفق على ذلك العلماء، وقد

اعتنى رَحِمَهُ اللَّهُ فيه بانتقاء الأحاديث الصحيحة مع استخراج الأحكام بما وضعه من التراجم والعناوين، وفوائد المتون والإسناد وغير ذلك؛ من أجل هذا لزم تقطيعُه الحديثَ الواحدَ، وإيرادُه في أكثر من موضع، وقد أُعطِيَ رَحِمَهُ اللَّهُ فهمًا وفطنة عجيبة، يدرك ذلك من اعتنى بكتابه...» اهـ[١].

وقال شيخنا عبد الله الغُنَيمان حفظه الله: «أرى من الواجب أن يتولى شرْحَ هذا الكتاب العظيم [الجامع الصحيح]، والذي ألَّفه ذلك الرجلُ السَّلفيُّ الفاهم للحق تمامَ الفهم مَنْ هو على نهج المؤلِّف في العقيدة، ويفهم مَقصَدَه، وماذا يُريد من إيراده للنصوص» اهـ[٢].

فهذا شرح لـ «**كتاب الإيمان من صحيح البخاري** رَحِمَهُ اللَّهُ»، وهو عبارة عن دروس علمية ألقاها فضيلة شيخنا عبد الله بن محمد الغُنَيمان ـ حفظه الله ـ في بعض الدورات العلمية[٣]، فأفاد فيه وأجاد ـ جزاه الله خيرًا ونفع به ـ، فُرِّغَت وجُمِعَت ورُوجعت، وعُزِيَت الآياتُ، وخُرِّجت الأحاديث، وعُزِيَت الأقوالُ، وغير ذلك، فللَّه الحمدُ والمنَّة.

والشكر أولًا وآخرًا لله ربي، كما أشكر كل من ساعدني في ذلك، وأخصُّ منهم الإخوةَ في مكتب الشيخ بالمدينة النبوية[٤]، أسأل الله أن يجزيهم عني خير الجزاء.

---

(١) ينظر: مقدمة كتاب «دليل القارئ إلى مواضع الحديث في صحيح البخاري» تأليف شيخنا عبد الله الغنيمان ـ حفظه الله ـ، طبعة مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.

(٢) ينظر: كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٢٢) تأليف شيخنا عبد الله الغنيمان ـ حفظه الله ـ، طبعة دار العاصمة، الطبعة الثالثة ١٤٢٨هـ.

(٣) هذا الكتاب الذي بين يديك أخي القارئ هو خلاصة شرح شيخنا عبد الله الغنيمان ـ حفظه الله ـ على «كتاب الإيمان من صحيح البخاري»؛ فقد شرحه في مدينة بُرَيدة بجامع الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في شهر ذي القعدة من عام ١٤٢٦هـ، وأيضًا شرحه في المدينة النبوية بجامع عبد اللطيف آل الشيخ في شهر شعبان من عام ١٤٣٧هـ، وشرحه أيضًا في محافظة جُدَّة بجامع الملك سعود رَحِمَهُ اللَّهُ في شهر شوال من عام ١٤٣٧هـ، وغير ذلك.

(٤) hhks1999@gmail.com

هذا، ونسأل الله العليَّ القدير أن يغفرَ للإمام البخاري ويُسكِنَه فسيح جناته، كما نسأله ﷻ أن يجزيَ شيخنا خير الجزاء، وأن يبارك له في عمره وعلمه وعمله، ويصلح له ذريته، وأن يجعلنا وإياهم هُداةً مهتدين؛ إنه سميعٌ قريبٌ مجيبٌ.

وإنْ تَجِدْ عَيبًا فَسُدَّ الخَلَلَا ... فَجَلَّ مَنْ لا عَيبَ فِيهِ وَعَلا

والحمد لله الذي بنعمته تَتمُّ الصالحات، وصلَّى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه
عبد العزيز بن حمود البليهي
a.h.albalhe@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله ونستعينه، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِه الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبيّنا محمد، وعلى آله وصحابته ومن سار على نهجه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وبعد:

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب الإيمان

١ ـ باب: قول النبي ﷺ: «بُنِيَ الإسلام على خمسٍ»

وهو قولٌ وفعلٌ، ويزيدُ وينقُص، قال الله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف: ١٣]، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، وَقَوْلُهُ: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، وَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وَالحُبُّ فِي اللهِ وَالبُغْضُ فِي اللهِ مِنَ الإِيمَانِ.

وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ إِلَى عَدِيِّ بْنِ عَدِيٍّ: «إِنَّ لِلْإِيمَانِ فَرَائِضَ وَشَرَائِعَ، وَحُدُودًا وَسُنَنًا، فَمَنِ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا لَمْ يَسْتَكْمِلِ الإِيمَانَ، فَإِنْ أَعِشْ فَسَأُبَيِّنُهَا لَكُمْ حَتَّى تَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنْ أَمُتْ فَمَا أَنَا عَلَى صُحْبَتِكُمْ بِحَرِيصٍ»، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وَقَالَ مُعَاذُ بنُ جبلٍ: «اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنْ سَاعَةً»، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «اليَقِينُ الإِيمَانُ كُلُّهُ»، وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: «لَا يَبْلُغُ العَبْدُ حَقِيقَةَ التَّقْوَى حَتَّى يَدَعَ مَا حَاكَ فِي الصَّدْرِ»، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ [الشورى: ١٣] أَوْصَيْنَاكَ ـ يَا مُحَمَّدُ ـ وَإِيَّاهُ دِينًا وَاحِدًا»، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]: سَبِيلًا وَسُنَّةً.

الشَّرح

الإيمان هو أول ما يجب على الإنسان، وهو أمر مهم لا بد للعبد أن يعرف حقيقته، وأن يتحلَّى به؛ حتى يكون مؤمنًا حقًّا، وقد جاءت الرسل كلها بالإيمان بالله ﷻ، وهو امتثال أمْرِ الله، وأمرِ رسوله ﷺ، واتباع ما كلَّفهم به.

وإن كان الإيمان حقيقته في القلب، ولكنه لا بد أن يظهر على الجوارح؛ لأن القلب هو الذي يبعث الجوارح على العمل.

فالإيمان يكون عقيدة في القلب، ويكون عملًا للجوارح، والجوارح هي أعضاء الإنسان بما فيها اللسان؛ فأوله النطق بقول: لا إله إلا الله؛ يعني: اعتقاد أن الله هو المألوه وحده، ثم العمل على ذلك؛ ولهذا أول ما يبدأ به الحد الذي يُعرَف به الإيمان؛ لأن الحدود هي التي تبيِّن المقصود بما يكون حدًّا له، وقد حدَّده أهل السُّنَّة بأنه عقيدة وقول وعمل.

فمجموع الثلاثة هو الإيمان، ولا يصح واحد دون الآخر، فمن جاء باثنين ولم يأت بالثالث فليس بمؤمن، وهذا أخذوه من النصوص؛ من قوله ﷺ: «**أُمِرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**»[1].

ففي الحديث حد الإيمان الذي هو تعريفه، قوله: «**حتى يقولوا: لا إله إلا الله**»؛ يعني: ينطقوا بها بألسنتهم معتقدين معناها في قلوبهم، عاملين بما تدل عليه؛ ولهذا قال: «**إلا بحقها**»، حقها كل الواجبات، كل ما أوجبه الله ﷻ فهو من حقها.

وقوله: «**وحسابهم على الله**» يدل على أن ما في القلب لا بد أن يكون مطابقًا لما يقوله اللسان وتعمله الجوارح، فإن لم يكن كذلك فليس بمؤمن إلا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٤)، كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [التوبة: ٥]، ورقمه (٢٥)، وأخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٥١)، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، ورقمه (٢٢).

في الظاهر، أما في الباطن فهو غير مؤمن، وهذا لا يطَّلع عليه إلا الله؛ ولهذا قال: «**حسابهم على الله**»؛ يعني: أنهم إذا وافقوا في الظاهر هذا الأمر فإنه يُكَفُّ عنهم، وما في باطنهم إلى الله، هو الذي يحاسبهم عليه.

فإن كان مطابقًا لما يقولونه ويفعلونه فهم المؤمنون ظاهرًا وباطنًا، وإن لم يكن مطابقًا فهم المنافقون الذين يكونون في الدرك الأسفل تحت الكافرين في النار؛ لأنهم خافوا الناس أكثر من خوفهم من الله ﷻ، فعاقبهم أشد العقاب؛ فالمقصود هذا يدل على أن ما في القلب يجب أن يكون مطابقًا لما يتكلم به ويعمل به.

فدلَّ على أن الإيمانَ أمور ثلاثة: قول، وعمل، واعتقاد، وهذا هو الذي يقوله أهل السُّنَّة، فإذَن العمل من أركان الإيمان، وليس شرطًا ولا من مقتضى الإيمان، وإن كان هذا صحيحًا، ولكن لا بد أن يكون هذا مقصودًا بالعمل، وناتجًا منه.

وهذه الأمور الثلاثة كلها أركان الإيمان؛ القول، والعمل، والاعتقاد، فلا بد أن تأتيَ جميعًا، ولا بد أن تكون موافِقة لما أمر الله ﷻ به، وما أمر به الرسول ﷺ، والبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ يقرر هذا المعنى بهذا الكلام الذي ينقله عن السلف.

والإيمان من أهم المسائل التي يجب على المسلم أن يهتم بها؛ لأنه هو الأساس، وهو الأصل، وهو الذي جاء به رسول الله ﷺ وبيَّنه غاية البيان، ومع ذلك حصل الخلاف بين الناس فيه قديمًا وحديثًا، والله ﷻ لا يقبل من عباده إلا الإيمان والأعمال التي بنيت عليه، مع أن الأعمال إيمان.

وكتاب الله، وسُنَّة رسوله ﷺ: أوضح من كلام الناس، وأجْلى وأبْيَن بكثير، ولكِنَّ كثيرًا من الناس لا يهتم بفهم كلام الله وكلام رسوله ﷺ، أو لا يُوفَّق إلى ذلك؛ لأن الله ﷻ بمشيئته يَصرِف من يشاء عن الخير والهدى، ويسِّر ذلك لمن أراد سعادته، ولا يقع في الكون لا قليل ولا كثير إلا بمشيئته ﷻ، فلا يستطيع الإنسان أن يملك لنفسه تصرفًا أو سعادة أو خيرًا إلا بإذن الله ﷻ.

والإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ فَهِمَ الأمر تمامًا على ضوء ما في كتاب الله وسنَّة

رسوله ﷺ، وطريقته طريقة السلف؛ عندما يردُّون على المخالفين في الحق يذكرون آيات الله ﷻ، أو جزءًا من الآيات وأحاديث الرسول ﷺ، ويستغنون بذلك؛ لأن هذا هو الذي يجب أن يُتحاكم إليه، وهو الذي يجب أن يُفهَم ويُعمل به.

أما كلام الناس فيجب أن يُعرَض على كلام الله، وكلام رسوله، فما وافقهما قُبِل، وما خالفهما يُرَد على صاحبه؛ ولهذا يقول ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، وهذا أمر عام، لهذا جاء بهذا العموم ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾، سواء كان من الأمور الاعتقادية، أو من الأمور العملية، لا بد من تحكيم الرسول ﷺ في ذلك، وإلا يكون الإيمان منفيًا عمن لم يرْضَ ويُسَلِّم وينقَدْ بعد الحكم؛ لأنه لا يكفي مجرد التحكيم فقط؛ بل لا بد من الرضا بهذا الحكم، والتسليم له والانقياد المقتضي للعمل؛ فالإيمان معناه أنه يهيمن على تصرفات الإنسان باطنًا وظاهرًا، فلا بد أن يكون متحليًا بذلك حتى يكون مؤمنًا حقًّا، وعلى هذا الأساس صار يزيد وينقُص، وزيادته ونقصه ظاهر جدًّا.

أما الزيادة فقد صُرِّح بها في كتاب الله ﷻ في آيات كثيرة، والعجب أن كثيرًا من المتكلمين يرُدُّ هذا ولا يقبله، ويقول: إذا كان يزيد فهو شكٌّ وكفر، وكذلك إذا كان يَنقُص! ومن الجرأة عندهم التي تدل على عدم التوفيق ـ نسأل الله العافية ـ أنهم يردُّون النصوص الواضحة؛ بل يرمون من قال بها بأنه شاكٌّ؛ ولهذا يسمون أهل السُّنَّة الشُّكَّاك! وقد يسمونهم كَفَرة أيضًا؛ لأنهم يقولون: إذا كان الإيمان يقبل الشك فهو كُفر!

فعلى كل حال نقول: إن الإيمان جاء به الرسول ﷺ وبيَّنه غاية البيان أكثر من بيان الصلاة والصوم وغيرها من الأحكام؛ ولهذا بقي صلوات الله وسلامه عليه ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الإيمان لمَّا كان في مكة، وشُرِعت الشرائع فيما بعدُ، ثم الشرائع كلها فروع عليه؛ ولهذا تُسمَّى إيمانًا، والدلائل على هذا كثيرة.

والبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ أشار إلى شيء من ذلك في الآيات والأحاديث، فذكر جملةً من الآيات التي فيها النص على زيادة الإيمان، فإذا كان الإيمان يزيد فهو يَنقُص، مع أن بعض أهل السُّنَّة كأنَّهم توقَّفوا في النقصان؛ لأنَّه لم يأتِ النص صريحًا في ذلك، كما ذُكر عن الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: أهابُ أن أقول إنه يَنقُص.

والصحيح: أنه إذا كان يزيد فإنه قَبْل الزيادة ناقص، وإن كان هذا له أحكام وله مسائل معلومة، وسيأتي استدلال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ على النقصان بقوله ﷻ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

لأنه قبل أن يَكمُل كان ناقصًا، ولا يلزم من هذا أن من مات من الصحابة قبل استكمال الشرائع واستكمال الإيمان؛ أن يكون إيمانه ناقصًا؛ بل هو كامل؛ لأنه آمن بما يجب عليه، وقَبِلَه وسلَّم لذلك وانقاد، وعنده الاستعداد لكل ما يأمر الله ﷻ به أن يقبله ويعمل به.

والإيمان ضده الكفر، وذكر البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قول وعمل، ويدخل في ذلك الاعتقاد، فهذا تعريف أهل السُّنَّة؛ أنه: قول، وعمل، وعقيدة، وبعضهم يقول: نية، ويزيد ويَنقُص؛ يزيد بالطاعات، ويَنقُص بالمعاصي.

وعند أهل السُّنَّة يجوز الاستثناء بالإيمان، كأن يقول العبد مثلًا: أنا مؤمن إن شاء الله، ولا يجوز أن يُسأل الإنسان: أنت مؤمن أو غير مؤمن؟ لأن هذه من مسائل أهل البدع.

ثم **الناس قسمان: مؤمن أو كافر**، والكفر ذكروا أنه **خمسة أقسام**:

منها: كفر تكذيب، وهذا كثيرًا ما ذكره الله ﷻ في القرآن.

ومنها: كفر إباء واستكبار؛ ككفر إبليس لعنه الله؛ فإنه استكبر وأبى، وكذلك كُفْرُ فرعون ونحوهما من كِبَار الكفرة.

ومنها: كُفر شك وريب؛ كصاحب الجنة الذي شك أن له ربًّا، وأنه له مرجع وله مَعاد.

ومنها: كفر الإعراض؛ يعني: الذي يُعرض عما خُلِق له نهائيًا، فهذا يكون كفرًا، مثال ما جاء في قصة ذهاب الرسول ﷺ إلى الطائف، أول من لقي بنو عبد ياليل وهم ثلاثة، فاختلفوا في كفرهم؛ أحدهم رد دعوة الرسول ﷺ، وهو كفر الإباء، والثاني استكبر وقال: ما وجد الله أحدًا يرسله غيرك؟! أعوذ بالله. والثالث: تردَّد.

والنفاق نوعان: نفاق اعتقادي، وهو ستة أقسام كما هو معلوم، كلها كفر.

ونفاق عملي، وهذا مذكور في الحديث: «**إذا حدَّث كَذَب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فَجَر وإذا اؤْتُمِنَ خَان**»[1]، هذه هي خصال الكفر، ومن اجتمعت فيه خصال النفاق كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منها كان فيه خصلة من النفاق.

وهذا لا يستطيع الإنسان أن يجزم به؛ لأن الإيمان الكامل ما يتوصل إليه إلا الكُمَّل من المؤمنين، مثل الأنبياء والصِّديقين، أو أنه لا يدري ماذا تنتهي حياته عليه؛ لأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمٰن يقلِّبها كما يشاء، وقد رأينا علماء كان لهم مقامات في المجتمع وفي العلم انتكسوا في الأخير، وصاروا ملاحدة! بعدما كانوا مؤمنين علماء صاروا ملاحدة يدعون إلى الإلحاد وإلى الكفر بالله ﷻ! والأمر بيد الله ﷻ يقلِّب القلوب كيف يشاء.

فلهذا لا يجزم الإنسان بأنه على الحق، وبأنه مؤمنٌ الإيمانَ الكامل؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يجزم بأنه أتى بالواجب على الوجه المطلوب، فلا أحد يستطيع أنه يقول: أنا ـ مثلًا ـ صليت الصلاة اليوم على ما أمر الله به؛ لأن الإنسان يعتريه فتور، ويعتريه نسيان، ويعتريه كسل، ويعتريه غفلة، وغير ذلك.

وضد الإيمان الكفر، وهل يُستثنى الكافر من الكفر، كأن يقال: هذا كافر إن شاء الله، أو لا يقال؟

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب «إذا خاصم فجر»، ورقمه (٢٤٥٩)، (٢٧٤٩)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب «بيان خصال النفاق»، ورقمه (١٠٦).

الصحيح أنه لا يقال؛ بل يقول: هذا كافر، بإطلاق ولا يُستثنى، وإن كانت الخواتيم ما يُدرى ما هي، ولكن الحكم على الظاهر، أما الإسلام فلا يُستثنى منه؛ بل يقول: أنا مسلم؛ بلا استثناء.

• **قوله: (كتابُ الإيمانِ)**؛ يعني: هذا كتاب يُذكَر فيه مسائل الإيمان، والإيمان يشمل الدين كله، كل ما جاء به الرسول ﷺ فهو داخل في مسمى الإيمان، وعلى هذا لا يخرج من مسائل الإيمان شيءٌ من الواجبات والمستحبات، كل واجب وكل مستحب يدخل في مسمى الإيمان، فهذا مقصوده في هذه الأقوال التي ذكرها معلَّقة.

• **قوله: باب: الإيمان، وقول النبي ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»** إذا كان مبنيًّا على خمس فهذه الخمس هي إيمان من الإيمان، فلا يمكن أن يُبنى على شيء من غيره، وعند البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لا فرق بين الإيمان والإسلام، عنده الإسلام هو الإيمان، والإيمان هو الإسلام، وسيأتي الكلام إن شاء الله في هذه المسألة، وبيان الفَرْق في هذا.

وهذا يدلنا على أن البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ يرى أن الإيمان والإسلام شيء واحد، وقد صرح بهذا؛ أن الإيمان والإسلام لا يختلفان، فهما عبارة عن شيء واحد؛ ولهذا قال: بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: **«بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»**.

ثم هذه الخمسُ أعمالٌ يعملها الإنسان بجوارحه؛ يعني: من العمل القيام والقراءة والقول، ولا بد أن يكون هذا صادرًا عن عقيدة في القلب، فمبنى هذه الأمور على هذه الخمس: إيمان؛ ولذا قال: **بُنِي الإسلام على خمس**، وسيأتي تفصيله، والخلاف بين السلف في هذا قد يكون لفظيًّا، وقد يكون معنويًّا.

ومن أدلة البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ على هذا قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

فجعل الإسلام هو الدين كله، وقوله ﷻ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى

ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فهذه استدلالاته رَحِمَهُ اللَّهُ، بناها على هذا الأمر.

والصحيح من أقوال السلف أن الإيمان والإسلام إذا اجتمعا فيفسَّر كل واحد بمعنًى؛ يفسَّر الإسلام بالأمور الظاهرة، والإيمان بالأمور الباطنة، كما صرح بذلك حديث جبريل الذي رواه مسلم عن عمر، ورواه البخاري عن أبي هريرة.

وقوله: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»**. قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ؛ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ! قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ: **«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ؛ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»**، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ: **«أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»**. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: **«مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»** قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا. قَالَ: **«أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»**. قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: **«يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟»**

قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»»[١].

فقسَّم الدين إلى ثلاث مراتب: الإسلام، والإيمان، والإحسان، ومجموعها كلها الإيمان، ولكن عند الاقتران تفترق؛ يعني: إذا جاء الإسلام والإيمان والإحسان فُسِّر كل واحد بما فسَّره به الرسول ﷺ، ودل على أن كل واحد يغاير الآخر.

أما إذا جاء أحدها فقط؛ الإيمان أو الإسلام أو الإحسان، دخل فيه البقية، وبهذا تجتمع الأدلة كلها، بخلاف الذي يقول: إن الإسلام هو الإيمان؛ فإنه يَرُدُّ عليه مثل قول الله ﷻ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤].

وقوله ﷻ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾ [التحريم: ٥].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّآئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

والعطف يقتضي المغايرة، وقوله ﷻ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦].

قال: ﴿بَيْتٍ﴾؛ لأنه دخل فيه الزوجة، والزوجة أسلمت ظاهرًا فقط، أما الإخراج فهو للمؤمنين، وهو لوط وبناته فقط، وليست معهم زوجته، فإذَن الإسلام يكون في الأمور الظاهرة، والإيمان يدخل فيه الظاهر والباطن ولا بد، فبهذا تجتمع الأدلة كلها، ولا يكون بينها منافرة ومخالفة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٩)، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبيَّ ﷺ الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعِلْم الساعة، ورقمه (٥٠)، وأخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٣٧)، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقَدَر، وعلامة الساعة، ورقمه (٨).

والخلاف في المسألة قديم، ولكن الواجب الرجوع إلى قول الله، وقول رسوله ﷺ، والتعرف على المراد من ذلك.

• **قوله**: «**وَهُوَ قَوْلٌ وَفِعْلٌ**»؛ يعني: الإيمان قول وفعل، اختار الفعل على العمل؛ لأن الفعل أظهرُ في هذا؛ في كونه يكون باللسان وبالجوارح، أما العمل قد يطلق على ما في القلب فقط؛ فلهذا اختار الفعل، قال: «**قول وفعل**»، ودخل فيه كل ما يفعله الإنسان قاصدًا بذلك مرضاة الله ﷻ، وأن يحظى بفضله وثوابه؛ لأن هذا كله من عمل القلب، وعمل الجوارح؛ الرضا، والقصد، والرجاء، والخوف. كله دخل في هذا.

• **قوله**: «**وَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ**»؛ يعني: أنه في الحقيقة في أصله يزيد، وكذلك في ملزوماته ومقتضياته فإنه يزيد وينقص في هذه كلها، واشتهر عند كثير من الناس أن الإيمان هو: التصديق، واستدلوا على هذا بقول الله ﷻ في قصة يوسف، لما قال إخوته لأبيهم: إنه أكله الذئب، قالوا له: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف: ١٧].

يعني: ما أنت بمصدِّق، هذه الآية هي عمدتهم في هذا القول، وقالوا: إن الرسول ﷺ جاء بالخطاب في اللغة؛ لغة العرب، ولم يغيرها، وقد نوزعوا في هذا؛ لأن موارد الإيمان لا تتفق مع موارد التصديق في كل ما جاءت به اللغة؛ ولهذا كثير من العلماء اختار غير هذا، وقال: الإيمان هو: الإقرار والقبول، ليس مجرد التصديق فقط؛ لأن كثيرًا من المشركين صدَّقوا رسول الله ﷺ، ولكنهم لم ينقادوا ولم يُقِروا له، فهم كَفَرة.

وقصة أبي طالب معروفة في هذا؛ أنه يقول: إنا نصدِّق ابننا، وإنه لا يُعنى بالأكاذيب، وما جُرِّب عليه من الكذب شيء. الله ﷻ يقول: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣] هذا نص أنهم لا يكذبون الرسول ﷺ، فهم يصدقونه، فإذن لا يكون التصديق إيمانًا، فالإيمان لا بد أن يكون فيه الانقياد، وفيه القبول، وفيه الاغتباط والرضا، وكونه لا يريد بهذا بديلًا غيره.

لهذا أخبر ﷻ أن المؤمنين يفرحون بذلك، وأن هذا عندهم خير مما

يجمعون، فإذا كان يزيد فلا بد أنه يَنقُص، فما كان قابلًا للزيادة كان قابلًا للنقص؛ ولهذا سيأتي قول الرسول ﷺ: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهِبُ نُهْبةً يرفع الناس إليه فيها أبصارهم، وهو مؤمن»**[(١)].

وقوله: **«وهو مؤمن»** جملة حالية؛ يعني: في حالة كونه يباشر هذه الأعمال لا يكون مؤمنًا، وليس معنى هذا أنه يكون كافرًا، ولكنه يكون إيمانه ناقصًا، ليس عنده الإيمان الذي يمنعه من اقتراف هذه الأمور، لكنْ أصل الإيمان عنده، وقد أَشكل على كثير من الناس قوله ﷺ في الذين يخرجون من النار: إنهم ليس عندهم خير قط، أو لم يعملوا خيرًا قط، كيف لا يعمل خيرًا قط، وهو يخرج من النار[(٢)]؟ لأن الرسول ﷺ كان يأمر المنادي أن ينادي في المجامع أنه لا يدخل الجنة إلا نفسٌ مؤمنة، كما في حديث أبي هريرة، لما بعث عليًّا رضي الله عنه ينادي في السنة التاسعة في الحج: «أن لا يطوف بالبيت عُريان، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فهو إلى مُدَّته، ومن لم يكن له عهد فأجَلُه أربعة أشهر، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا»[(٣)]. كان كذلك في غير هذا يقول ذلك؛ فقد قال ذلك أيضًا في حجة الوداع صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٥٧)، كتاب الحدود، باب لا يشرب الخمر، ورقمه (٦٧٧٢)، وأخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٧٦)، كتاب الإيمان، باب بيان نقص الإيمان بالمعاصي، ورقمه (٥٧).

(٢) يشير إلى حديث الشفاعة الذي أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١٧٠)، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، ورقمه (١٨٣)، وفيه: **«يقول الله ﷻ: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيُخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط قد عادوا حُممًا، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له: نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحِبَّة في حَمِيل السَّيل»**.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٢)، والترمذي في سننه (٥/ ١٢٧)، باب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، وباب ومن سورة التوبة، ورقمه (٣٠٩٢)، والنسائي في سننه (٥/ ٢٥٩)، كتاب مناسك الحج، قوله ﷻ: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، ورقمه (٢٩٥٨)، قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

هذا في الواقع يفسره ما في «صحيح مسلم»، أنه جاء قوله ﷺ في المُفلِس لما قال: **«أتدرون من المُفلِس؟»** ثم فسرها قال: **«إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطَى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنِيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أُخِذَ من خطاياهم فطُرِحَت عليه، ثم طُرح في النار»**[(١)].

فهذا فنيت أعماله؛ بل زِيدَ على سيئاته سيئات، فهو يعمل أعمالًا كثيرة ولكن ليست له، وإنما للناس، فهذا المفلس ـ نسأل الله العافية ـ، يقول العلماء: الأعمال هي التي توزَّع على الخصوم يتوازعونها، فإذا فنيت أُخذ من سيئاتهم وطُرحت عليه، فما بقي له أي عمل؛ فيدخل النار.

ولكن الإيمان الذي في القلب لا سبيل لأحد عليه؛ فإن الله ﷻ جعله له، وبه يخرج من النار، ولا يكون هذا حُجَّة للمرجئة الذين يقولون: يكفي ما في القلب وما يقوله اللسان فقط؛ فإن هذا ضلال بيِّن وظاهر.

ولهذا ذكر البخاري رحمه الله بعض الآيات التي تنص على أن الإيمان يزيد فعلًا، وإذا كان يزيد فهو يقبل النقص ولا شك.

وقد جاء في حديث الرسول ﷺ في النساء أنه قال: **«ما رأيت من ناقصاتِ عقلٍ ودين أغلبَ لذي لُبٍّ منكن»**. قالت: يا رسول الله، وما نقصانُ العقل والدينِ؟ قال: **«أمَّا نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل؛ فهذا نقصان العقل. وتمكث الليالِيَ ما تصلي، وتُفطر في رمضان؛ فهذا نقصان الدين»**[(٢)]، وليس معنى هذا: أنها تكون ملومة؛ فإنه لا لوم عليها ولا إثم، ولكن هذه حالتها التي تقع فيها، فلا تكون التي تترك الصلاة مثل الذي

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/١٩٩٧)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ورقمه (٢٥٨١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/٦٨)، كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، ورقمه (٣٠٤)، وأخرجه مسلم في صحيحه (١/٨٦)، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، ورقمه (٧٩).

يصلي؛ فالذي يصلي يكون أكمل من الذي لا يصلي، وإن كان الذي لا يصلي ليس عليه إثم في مثل هذه الحالة.

ولكن العامل ليس كالذي لا يعمل؛ فهذا وجه كونه يَنقُص دينها عن الرجل؛ لأن الرجل ما يترك الصلاة مطلقًا، بخلاف المرأة؛ فالمقصود أن زيادة العمل زيادة إيمان، وهذا ظاهر.

• **قوله: «وَيزِيدُ ويَنقُصُ»**. أما الزيادة فجاءت النصوص فيها كثيرة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢].

فعند تلاوة الآيات ـ يعني: سماع قول الله وقول الرسول ـ يزدادون إيمانًا مع إيمانهم، ومع هذا لا يكون الإيمان شيئًا واحدًا يتساوى فيه الناس، كما يقوله من يقول! بل هم يتفاوتون فيه، وهل التفاوت في العمل، أو في أصل الإيمان الذي هو تصديق القلب وإيقانه؟

وقد اختلفوا في قولهم: إن الإيمان هو التصديق في اللغة، يقولون، والرسول ﷺ جاء بأشياء لم يخالف فيها اللغة، ومنها الإيمان، والدليل قول الله ﷻ في قصة يوسف لما جاؤوا يخبرون أباهم، قالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾ [يوسف: ١٧].

هذه الآية هي عمدتهم في هذا الباب، قالوا: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾. وهم كاذبون ليسوا صادقين، كَذَبوا في هذا على أبيهم كذبًا صريحًا، وجاؤوا على قميصه بدم كذب؛ أي: لطخوه بدم ليس هو دم يوسف؛ بل هو كَذِب، فإذَن الفعل يكون كذبًا، فإن كان الفعل كذبًا يكون القول كذبًا.

وهذا لا خلاف فيه؛ أن القول يكون كذبًا، ويكون صدقًا، والصحيح أن الإيمان يغاير التصديق في أشياء كثيرة؛ ولهذا عدل كثير من العلماء عن هذا التعريف اللغوي ـ الذي يكون هو أيضًا تعريفًا شرعيًّا ـ إلى قولهم: الإيمان هو الإقرار بما جاء به الرسول، والعمل به، أما مجرد الإقرار فقط فلا يكفي،

بدليل أن من الكفار من يقر بأن الرسول يقول الحق وجاء به، ولكنه لم يتبعه؛ فصار كافرًا!

ومن ذلك قصة أبي طالب؛ أنه كان يحوط النبي ﷺ ويدافع عنه ويقول: إنه لا يقول الأكاذيب، ولا يقول إلا حقًّا، ويصرح بها، صرح بهذا في قصائده وفي كلامه وفي غيره، ولما حضرته الوفاة جاء إليه النبي ﷺ وقال: «**يا عم، قل: لا إله إلا الله؛ كلمةً أشهد لك بها عند الله**»، فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟[1]، وملة عبد المطلب هي الشرك بالله ﷻ.

وهذا يدل على أن مجرد القول الظاهر يُخرج الإنسان من ملة الشرك ويُدخله في الإسلام، ولكن لا يكون القول وحده هو الذي يُخرج الإنسان من الكفر إلى الإيمان؛ بل لا بد من اعتقاد صحة ذلك، ولا بد من العمل، أما العقيدة فكما سبق أن الرسول ﷺ لما قال: «**أُمِرت أن أقاتل الناس**»، قال: «**وحسابهم على الله**»[2]؛ يعني: ما في القلوب يجب أن يكون مطابقًا لما يتكلم به ويعمل به، فإن لم يكن كذلك فليس إيمانه صحيحًا، والله يحاسبه على ذلك، فهذا هو الذي عليه علماء السلف قديمًا وحديثًا، والبخاري منهم رحمه الله، وإن كان خلافه في هذا مع جمهور العلماء، وقد زعم محمد بن نصر في كتابه «تعظيم قدر الصلاة» أن جمهور السلف يقولون كقول البخاري!

ولكن رُدَّ عليه هذا الزعم، وقيل بالعكس؛ بل جمهور السلف على أن الإيمان غير الإسلام، وفسروا بما سبق؛ أن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا؛ يعني: إذا جيء بأحدهما دخل فيه الآخر، أما إذا جيء بهما جميعًا فإن لكل واحد معنًى، كما سبق بيانه في حديث جبريل عليه السلام.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٩٥)، كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، ورقمه (١٣٦٠)، وأخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٥٤)، كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول: لا إله إلا الله، ورقمه (٢٤).

(٢) تقدم تخريجه.

• **قَالَ اللهُ تَعَالَى:** ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]؛ يعني: هذا نص ظاهر في أنهم مؤمنون وأنهم بالأعمال يزيدون إيمانًا، ثم الزيادة في العمل وفي الأصل؛ يعني: التصديق نفسه يزيد، مع أن التصديق وحده لا يكون إيمانًا؛ ولهذا قالوا: إن أبا بكر رضي الله عنه وعن إخوانه من الصحابة أنه لم يسبقهم بكثرة عمل، وإنما في شيء وَقَر في قلبه؛ يعني: معرفة الله ﷻ بأسمائه وصفاته، وكذلك تعظيمه ﷻ وتعظيم أمره، والقيام بهذا حسب الاستطاعة: هي التي يتميز بها المؤمنون بعضهم من بعض، كل من كان بهذه الصفة أتم إيمانًا من الآخر، فيكون إيمانه أكثر.

• **قال ﷻ:** ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ بالعمل الذي عملوه.

• **قوله: وقوله تَعَالَى:** ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ هذا نص في الزيادة.

• **قوله ﷻ:** ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف: ١٣] والهدى هو الإيمان؛ لأن الهدى فُسر بالعمل ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣]. الهدى: العلم والإيمان. ودين الحق: هو العمل الذي يكون أساسه الإيمان، والله لا يقبل عملًا إلا من مؤمن، كما قال ﷻ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ يعني: في حالة كونه مؤمنًا، وإلا لا يُقبل.

• **وقوله ﷻ:** ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾، والهدى هو الإيمان.

• **قوله ﷻ:** ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]؛ يعني: باهتدائهم زادهم هدى، بعملهم زادهم محبة ورغبة في الحق؛ فصاروا يعملون؛ رغبة، ويعملون أيضًا؛ رجاءً وخوفًا من الله ﷻ، وهذا هو زيادة الهدى.

كل هذه الآيات نصوص واضحة في زيادة الإيمان، وأن الزيادة هذه تكون بالأعمال، فإذن العمل ـ كما سيأتي ـ هو إيمان.

• **وَقَوْلُهُ:** ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]؛ لأن الإيمان ما دام يزيد وينقص، وكذلك الشر والكفر؛ يكون بعضه أعظم من بعض؛ ولهذا جعل الله ﷻ النار دركاتٍ؛ واحدةً تحت الأخرى، والدركات هي التي تنزل إلى الأسفل، والدرجات التي تصعد إلى العلو؛ فالجنة درجات، فأما النار فهي دركات.

فالدَّرْك الأسفل فيه المنافقون الذين يخافون الناس ولا يخافون الله، ويكون عملهم لأجل مصالحهم فقط التي يتعايشون بها مع المؤمنين والكافرين.

• **وَقَوْلُهُ** ﷻ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣]، فهذا قوله؛ لما قالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ ليتوكلوا عليه ـ فالحَسْبُ هو الكافي الذي يكفي عبده ـ زادهم الله ﷻ رغبة وعملًا، وكذلك انقيادًا، وكذلك خوفًا من الله ﷻ. فهذا هو الإيمان الذي زاد.

• **قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢] لما رأوا ما وعد الله ﷻ ورسوله. بخلاف المنافقين؛ فإن ذلك زادهم شكًّا وارتيابًا، ورغبة عن الإيمان والهدى!

• **قوله**: «**وَالحُبُّ فِي اللهِ وَالبُغْضُ فِي اللهِ؛ مِنَ الإِيمَانِ**». الحب والبغض من أعمال القلوب، هذه الزيادة واضحة في هذه النصوص، بقي النقص، أين الدليل؟

الدليل في ضمن هذه النصوص، يقول: إذا كان يزيد فهو قَبْل الزيادة ناقص، وهذا مفهوم من النصوص كلها، وسيأتي استدلاله رَحِمَهُ اللَّهُ على النقص، بقوله ﷻ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ووجه الاستدلال: أنه قَبْل الكمال فيه نقص، فكمل بعد أن لم يكن كاملًا، ولكن هذا بالنسبة لمجموع الدين كله، ولا يلزم أن يكون الذين ماتوا قبل ذلك دينهم ناقصًا؛ لأنهم آمنوا بما وجب عليهم، فكانوا على الإيمان الكامل.

فإذَن الزيادة والنقص تتعلق بالأمر والنهي، وليست للمخاطب عمومًا حتى لا يدخل فيه من مات قبل إكمال الدين، أن يكون دينه ناقصًا؛ بل هو كامل، وقد هاب الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ أن يقول بالنقص، قال: أما الزيادة فواضحة، وأما النقص فأهاب أن أقول: إنه يَنقص. ولكن ضرورة أن الذي يزيد يكون ناقصًا بلا شك، ثم النصوص تدل على هذا.

منها: حديث أبي سعيد الخُدْري، قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى، فمر على النساء، فقال: **«يا معشر النساء تصدَّقْنَ؛ فإني أُريتكن أكثر أهل النار»**، فقلن: وبمَ يا رسول الله؟ قال: **«تُكثِرن اللعن، وتَكْفُرن العشير، ما رأيتُ من ناقصات عقل ودين أذهب للُبِّ الرجل الحازم من إحداكن»**، قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟! قال: **«أليس شهادة المرأة مثلَ نصف شهادة الرجل؟»**. قلن: بلى. قال: **«فذلك من نقصان عقلها. أليس إذا حاضت لم تصَلِّ ولم تصُم؟»**. قلن: بلى، قال: **«فذلك من نقصان دينها»**[1]؛ يعني: إذا جاءت العادة لا تصلي، وليس معنى ذلك أنها تؤاخذ على هذا، ولكن لا تكون مثل الذي يصلي، وإلا هي معذورة وليس عليها إثم في هذا، غير أن الله ﷻ حَكَمٌ عدل.

فالإنسان الذي لا يعمل لا يكون مثل الذي يعمل، هذا وجه النقص في هذا العمل، وهذا ليس بين النساء والرجال فقط؛ بل هذا حتى في الرجال؛ فالذي يعمل الأعمال ويجتهد فيها ويكون قلبه موقنًا ليس عنده شك ولا ريب ولا تردد، لا يكون مثل الشاكِّ، ولا يكون مثل المُحجِم عن العمل، وبهذا تفاوت الجزاء في الجنة.

وقد ثبت في «الصحيحين» وغيرهما عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ لما ذكر الهجرة، وكانت الهجرة واجبة قال: **«من آمن بالله وبرسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان؛ كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس**

---

(١) أخرجه البخاري حديث رقم (٣٠٤)، ومسلم حديث رقم (١٣٢).

في أرضه التي وُلد فيها»، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نبشِّر الناس؟ قال: **«إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة ـ أُراه ـ فوقه عرش الرحمٰن، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة»**[1].

فقوله: **«إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»** هذا للمجاهدين فقط، مائة درجة، ما بين واحدة والأخرى مثل ما بين السماء والأرض، مع أن العمل عندهم واحد!

ومثل ذلك يقع في الصلاة؛ تجد الرجلين يقومان في الصف الواحد، أحدهما بجوار الآخر، وبينهما مثل ما بين السماء والأرض! أحدهما كأنه يشاهد ربه؛ فقلبه خاشع لله، وعينه تدمع، وجوارحه ساكنة؛ فهو ليس مثل الذي يكون غافلًا، وإن كان العمل واحدًا، والموقف واحدًا.

فمن هنا يكون تفاوَتَت الدرجات لتفاوت ما يقوم في القلوب والجوارح، فهذا ظاهر الزيادة والنقص، ولا يلزم أن يكون ناقِصُ الإيمان معذَّبًا؛ بل يكون أقل درجة من الذي زاد إيمانه، وفي الحديث الصحيح يقول ﷺ: **«إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الدُّرِّي الغابر في الأفق، من المشرق أو المغرب؛ لتفاضل ما بينهم»**، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟! قال: **«بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين»**[2]، ولا شك أن الأنبياء أرفع درجة وأعلى؛ ولهذا اتفق السلف كلهم على التفاضل بين الصحابة وبين المؤمنين، وأفضل الصحابة أبو بكر، ثم يليه عمر، ثم يليه عثمان، ثم يليه علي؛ على ترتيب الخلافة، ثم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ١١٧)، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، ورقمه (٢٧٩٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١١٩)، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، وأنها مخلوقة، ورقمه (٣٢٥٦)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٧٧)، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب ترائي أهلِ الجنة أهلَ الغُرَف، ورقمه (٢٨٣١).

بقية العشرة الذين شهد لهم الرسول ﷺ بالجنة، ثم أهل بدر، ثم أهل بيعة الرضوان، ثم البقية.

وقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحديد: ١٠]؛ يعني: مع الذين أنفقوا وقاتلوا بَعْدُ، والفتح هو صلح الحديبية، قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ [الفتح: ١] نزلت بعد الصلح مباشرة، وإن كان فتح مكة فتحًا أيضًا، ولكن هذا الذي فيه النصوص، وهذا الأمر واضح.

ولكن يبقى عند بعض الناس إشكالات؛ منها: العمل، هل هو داخل في مسمى الإيمان، يعني يكون إيمانًا؟ أو أنه من مقتضى الإيمان كما يقوله بعض العلماء، أو أنه من شرائط الإيمان؟ أما شرائط الإيمان فهذا لا وجه له؛ لأن الشرط يكون قبل المشروط، لا يكون بعده، مثل ما هو معلوم؛ شروط الصلاة قَبْلَها كلها.

والشرط معناه علامة الشيء في اللغة؛ يعني: أشراط الساعة: علاماتها، ولكن الأركان تختلف؛ فالركن يكون مجامعًا للماهيَّة والحقيقة، لا بد، والأدلة على أن العمل إيمان؛ كثيرة جدًّا، منها قول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ يعني: صلاتَكم إلى بيت المقدس؛ لأن هذا سبب نزول الآية، وقال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٤ ـ ٨٥]؛ يعني: بعضكم يقتل بعضًا.

فجعل المفاداة إيمانًا، والمفاداة عمل سماها إيمانًا، وإخراجهم من ديارهم ـ يعني: من بيوتهم وأماكنهم ـ عمل سماه كفرًا، فسمى العمل كفرًا، وسمى العمل إيمانًا، والأدلة على هذا كثيرة في كتاب الله ﷻ، وهو أمر متَّفق عليه بين السلف، لا خلاف بينهم في هذا.

ولهذا الذين أخرجوا العمل من الإيمان سموهم مرجئة، والإرجاء هو التأخير؛ يعني: أخَّروا العمل عن الإيمان، وإن كانت الأمور تتفاوت كثيرًا؛ يعني: الإرجاء قد يكون كفرًا، وقد يكون دون الكفر؛ ولهذا قالوا: المرجئة المحضة ليسوا من الإيمان في شيء، فهم كَفَرة مثل الجهمية الذين جعلوا الإيمان هو التصديق، أو جعلوه المعرفة، فقالوا لهم: إبليس يعرف ربه، هل يكون مؤمنًا؟! وهؤلاء ما عرفوا الله؛ لأن الذي يعرف الله حق المعرفة لا بد أن يؤمن به، لا بد أن يعمل، لا بد أن يقوم بأمره ويجتنب نهيه، وهم لم يفعلوا هذا، فتعريفهم نفسه يعود عليهم بالحكم على أنهم ليسوا مؤمنين!

• **قوله: «وَالحُبُّ فِي اللهِ وَالبُغْضُ فِي اللهِ مِنَ الإِيمَانِ»**؛ لأن الحب والبغض عمل قلبي، فإذَن الإيمان يكون في القلب، ويكون في الجوارح؛ من اللسان وغيره.

• **وقوله: «وَالحُبُّ فِي اللهِ وَالبُغْضُ فِي اللهِ..»**. الحب من أجل طاعة الله والبغض من أجل معصية الله: يكون مِنَ الإيمانِ، قال: من الإيمان؛ يعني: يحب من يحب الله ويعمل بدينه، ويُبغض من يعصي الله ورسوله، ويكون حبه وبغضه من أجل هذا فقط.

• **قوله: «وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ إِلَى عَدِيِّ بْنِ عَدِيٍّ»**: «عَدِي» هو عامله، وهو من أفضل التابعين؛ يعني: عديًا، وقد ذُكِر عنه أمور يُحمَد عليها.

• **قوله: «إِنَّ لِلْإِيمَانِ فَرَائِضَ وَشَرَائِعَ، وَحُدُودًا وسُنَنًا، فَمَنِ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا لَمْ يَسْتَكْمِلِ الإِيمَانَ..»** هذا أمر مجمع عليه عند السلف؛ لأن الإيمان له فرائض وله واجبات، وله أمور مستحبة.

فإذَن الإيمان يدخل فيه الواجب والمستحب، وترك المحرَّم وترك المكروه، كلها داخلة في الإيمان، وكلها إيمان، وهذا هو العمل، وهو مقصد عمر رضي الله عنه؛ ولهذا جعل منها واجبات وسننًا، والسنن في مصطلح الفقهاء: أن الإنسان يثاب على فعلها ولا يعاقب على تركها، ولكن إذا فعلها أثيب، فيكون بذلك زيادة إيمان، أما الواجب فلا بد أن يفعله، وكذلك الشروط، العمل

داخل في هذا كله، لا يخرج منه شيء؛ فالإيمان يدخل فيه الواجب والمستحب، وترك المحرم والمكروه خوفًا من الله تعالى.

• **قوله: «إِنَّ لِلْإِيمَانِ فَرَائِضَ وَشَرَائِعَ، وَحُدُودًا وَسُنَنًا، فَمَنِ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ»** هذا واضح في أن الإيمان يتفاوت، وأنه يكون كاملًا ويكون غير كامل، **«وَمَنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا لَمْ يَسْتَكْمِلِ الإِيمَانَ»**.

• **قوله: «فَإِنْ أَعِشْ فَسَأُبَيِّنُهَا لَكُمْ..»**؛ يعني: بيانًا يفهمه كل أحد، وإلا فهي بيِّنة واضحة قد بيَّنها رسول الله ﷺ، فلا شك أن مجيئه ﷺ بالإيمان أمر واضح؛ لأن هذه دعوته ودعوة الرسل قبله، وقوله ﷺ للعرب: **«قولوا لا إله إلا الله تُفلحوا»**[1]، وفي حديث ابن عباس، قال: مرض أبو طالب فجاءته قريش، وجاءه النبي ﷺ، وفيه أنه قال: **«يا عم أريدهم على كلمة واحدة تدين لهم بها العرب، وتؤدي العجم إليهم الجزية»**، قال: ما هي؟ قال: **«لا إله إلا الله»**، فقاموا فقالوا: أجعَلَ الآلهةَ إلهًا واحدًا؟![2]. وهم عرب يفهمون معنى لا إله إلا الله؛ أن المقصود بذلك أن التوجه والتأله، والحب والخوف والرجاء: لا يكون إلا من الله فقط، ولا يكون لأحد من الخلق؛ لأن الخلق كلهم محتاجون إلى الله فقراء إليه، ولا يملكون من ذلك شيئًا، ولهذا صار الشرك من أعظم الذنوب؛ لأنه ينافي هذا كله.

• **فقوله: «فَإِنْ أَعِشْ فَسَأُبَيِّنُهَا لَكُمْ..»**؛ لأن الواجب على الإمام أن يقوم أول ما يقوم بإلزام الناس بالواجبات التي أوجبها الله على عباده، وبيانها لهم.

• **قوله: «وَإِنْ أَمُتْ فَمَا أَنَا عَلَى صُحْبَتِكُمْ بِحَرِيصٍ»**؛ لأنه يخاف الله، ويخاف التقصير بأمره؛ لأنه مسؤول عما تحت يده، والمسلمون كلهم تحت

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧/١٤٨)، وابن حبان في صحيحه (١٤/٥١٨)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين (٢/٦٦٨)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرِّجاه». وقال الضياء في الأحاديث المختارة (٨/١٢٨): «إسناده صحيح». وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/١٩): «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح».

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤٥٨)، والترمذي في سننه (٥/٢١٩)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

يده؛ لأنه هو إمامهم؛ لهذا قال: «وَمَا أَنَا عَلَى صُحْبَتِكُمْ بِحَرِيصٍ» خوفًا من المسؤولية، مثل ما قال سلفه عمر بن الخطاب: «والله لو عثَرَت دابة في أقصى العراق لخَشيتُ أن الله يسألني عنها: لماذا ما سوَّيت الطريق لها»[١]. فأمر الولايات العامة أمر صعب.

وقد قال الرسول ﷺ: «**كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته؛ الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته**»[٢]. فإذا كان الخادم يُسأَل فما بقي أحد، كلهم يُسألون عما استرعاهم الله عليه!

وفي «الصحيح» أن النبي ﷺ قال: «**ما من عبد استرعاه الله رعيةً، فلم يَحُطْها بنصيحة، إلَّا لم يجِدْ رائحة الجنة**»[٣]، وقوله ﷺ: «**ما من والٍ يلي رعية من المسلمين، فيموت وهو غاشٌّ لهم، إلا حرم الله عليه الجنة**»[٤]، وقد ثبت أن ريحها يوجد من مسافة أربعين عامًا[٥]، وعند أحمد «سبعين عامًا»[٦]، فيكون بينه وبين الجنة هذه المسيرة.

---

(١) هذا الأثر مشهور ومتداول بين الناس، وقد جاء مرويًّا بألفاظ أخرى، كما في مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٩٩)، والسُّنَّة، لأبي بكر بن الخلال (٢/ ٣١٧). قال عمر: «لو هلك حمل من ولد الضأن ضياعًا بشاطئ الفرات، خشيت أن يسألني الله عنه». وانظر: تاريخ الطبري (٤/ ٢٠٣)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٥)، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، ورقمه (٩٨٣)، صحيح البخاري (٣/ ١٥٠)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٤٥٩)، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، ورقمه (١٨٢٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ٦٤)، كتاب الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح، ورقمه (٧١٥٠).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٩، ٦٤)، كتاب الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح، ورقمه (٧١٥١)، وأخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١٢٥)، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاشّ لرعيته النارَ، ورقمه (١٤٢).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، حديث رقم (٣١٦٦).

(٦) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (٦٨٣٤).

المقصود؛ أن قول عمر رضي الله عنه: «**إِنَّ لِلْإِيمَانِ فَرَائِضَ وَشَرَائِعَ، وَحُدُودًا وَسُنَنًا، فَمَنِ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا لَمْ يَسْتَكْمِلِ الإِيمَانَ**» يدل على تفاوت الناس في الإيمان؛ أن من قام بالفرائض والشرائع والسنن أنه يكون أكمل ممن لم يقم بذلك إيمانًا؛ فدلَّ على تفاوت الإيمان.

ومن الأدلة على نقص الإيمان: حديث أبي ذر وغيره في «الصحيح»، أن النبي ﷺ قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نُهْبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها، وهو مؤمن**»[1].

• **فقوله: «وهو مؤمن»** جملة حالية؛ يعني: حالة كونه مؤمنًا لا يفعل هذه الأفعال، فماذا يكون؟ لا بد أنه ناقص الإيمان، أما أن يكون مثل ما تقول الخوارج: إنه خرج من الإيمان ـ فليس كذلك؛ لأن الرسول ﷺ قَطَع يد السارق ولم يقتُلْه، وكذلك رجم الزاني وصلَّى عليه، والمنافق والكافر لا يصلَّى عليهم، وغير ذلك من الأدلة التي تدل على أن صاحب الكبيرة لا يخرج من دائرة الإيمان ويكون كافرًا، والأدلة كثيرة كلها تَرُدُّ الباطل الذي يقوله الخوارج الذين يكفِّرون الناس بالذنوب.

• **قوله: وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ** عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] الطمأنينة هي ـ كما سيأتي ـ الإيمان الكامل الذي لا يقبل نقصًا لكماله، وإلا في حقيقة الأمر كل شيء من الأعمال يقبل النقص.

ولهذا أهل الإيمان الكاملون يخافون أن يُسلَب إيمانهم، يقولون: القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمٰن يقلِّبها كيف يشاء؛ ولهذا تجد الإنسان نفسه يجد من نفسه أنه في حالات يكون أحسن منها في غيرها؛ في حالات يضعف، فهذا من النقص. ومن الزيادة ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، لما قال له الله ﷻ: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، لما قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:

(١) تقدم تخريجه.

٢٦٠]. فهذا معناه أن المشاهدة تزيد الإيمان أكثر من الخبر، وهذا أمر واقعي؛ إذا شاهد الإنسان الشيء ليس كما إذا أُخبِر عنه، وإن كان يؤمن به ولا يتردد في ذلك، فالأخبار التي تأتي عن الله ﷻ وعن رسوله يجب أن يؤمَن بها بلا تردد ولا شك، ولكنها بالنسبة للعبد تقبل النقص والزيادة؛ ولهذا أخبر ﷻ أن إخباراته مثل قوله ﷻ: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: ٦ ـ ٨].

فإذَن الإيمان واليقين وعين اليقين أمور تتفاوت؛ فقد يستكملها الإنسان، وقد لا يستكملها؛ فعين اليقين أن يعيش ذلك، فمثلًا الإيمان بالجنة: إيمان، ومشاهدتها: عين اليقين، ودخولها والعيش فيها: حق اليقين، وهذا لا يكون كمجرد الإيمان.

ثم كل ما جاءت به الرسل كله أخبار غيب، وهو الإيمان النافع، والإيمان بالغيب هو الإيمان الذي يكون يطالَب به العبد، وإذا لم يأتِ به فهو خاسر، من المعذَّبين في الدنيا والآخرة.

لهذا يقول ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٣] الغيب فُسر أنه الله، والصحيح أنه كل ما أخبر الله ﷻ به، سواء تعلق بالربِّ من الأوصاف وغيرها من أسماء وصفات، أو بأخباره وبجزائه ووعده ووعيده، وغير ذلك، فهو كله من الغيب؛ ولهذا صار الإيمان بالمشاهدة لا ينفع، كما قال ﷻ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

يعني: إذا جاءت الأمور التي أخبر بها وشوهدت، ما ينفع الإيمان بها؛ مثل طلوع الشمس من مغربها، ومثل الآيات التي أخبر الله ﷻ بها أنها تأتي عند ذلك، فلا يُقبل الإيمان عند رؤيتها، ومثل معاينة الملائكة ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ هذا عند الموت، إذا عاين الإنسانُ المَلَك، ما يُقبَل منه صَرْف ولا عدل، ولا ينفعه الإيمان والإذعان والانقياد.

لهذا لما قال فرعون: آمنتُ بما آمنَت به بنو إسرائيلَ، لما عاين الغرق وأيقن بالموت؛ قيل له: الآن؟ الآن ما ينفعك هذا، كل يؤمن به! فالمقصود

أن الإيمان هو أن يكون القلب مطمئنًّا منقادًا مقتنعًا تمام القناعة، وراغبًا وراهبًا فيما يخبر به عن الله وعن رسوله ﷺ.

• **قوله: وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام:** ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

اطمئنان القلب يعني زيادة في الإيمان، قال: بلى، إني قد آمنتُ، ولكن ليطمئنَّ قلبي، فالطمأنينة هي اليقين الصادق الذي لا يتزعزع ولا يختل، وإن كثرت المؤثِّرات.

وَقَالَ مُعَاذُ بن جبل: «اجْلِسْ بِنَا سَاعَةً نُؤْمِنْ»؛ يعني: نذكر الله ونسبِّحه ونتعلم، وبذلك يزيد الإيمان، هذا معنى نؤمن؛ يعني: نزداد إيمانًا، وإلا الإيمان أصله موجود وحاصل، وإنما يريد زيادة الإيمان بزيادة العمل؛ فدل على أن كمال الإيمان يكون بالاستكثار من العلم والعمل.

• **قوله: وَقَالَ مُعَاذٌ: «اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنْ سَاعَةً»** قد سئل عن هذا ففسَّره، قال: إذا ذكرنا أمر الله وامتثلناه وأطعناه، هذا الزيادة في الإيمان، وإذا غفلنا نَقَصَ إيماننا، فإذَن لا يكون الذاكر العامل كالذي لا يذكر ولا يعمل، فهو يزيد، ومع هذا لا يقف عند حد، يزداد دائمًا.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «اليَقِينُ الإِيمَانُ كُلُّهُ»؛ لأن اليقين ضد الشك، فالإيمان كله يقين، إذا تحصلتَ عليه أيقنتَ، وإذا لم تتحصل على الإيمان كله فقد يكون عندك خلل، أو تردُّد في بعض الأشياء، فإذا حصل اليقين تحصلتَ على الإيمان كله، هذا معنى قول ابن مسعود رضي الله عنه.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «اليَقِينُ الإِيمَانُ كُلُّهُ» إذا بلغ الإنسان اليقين فقد استكمل الإيمان، وليس معنى ذلك أنه ليس وراء ذلك شيء، لكنه استكمل الإيمان الذي يُجزى عليه الجنات. ورضا الله ﷻ.

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: «لَا يَبْلُغُ العَبْدُ حَقِيقَةَ التَّقْوَى حَتَّى يَدَعَ مَا حَاكَ فِي الصَّدْرِ»؛ يعني: يدعه خوفًا من الله، ومعنى «ما حاك في الصدر»؛ أي: الذي يتردد فيه: هل هذا حق أم باطل؟ هل هذا حلال أم حرام؟ فينبغي أن يجتنب

الشبهات، وإذا اجتنبها دل على أنه أكمل إيمانًا ممن يقع فيه.

وقد يكون ما يحيك في الصدر أمورًا قد لا يتكلم بها، وقد لا يعمل بها، ولكنه يخاف أن تكون إثمًا، وإن لم يكن عنده في ذلك علم، فيدعها خوفًا من أن يقع في الإثم، فيكون بذلك قد وصل إلى حقيقة الإيمان، وهذا يدل على أن العبد قد يصل إليها وقد لا يصل، والذي لم يصل إليها لا يكون كافرًا؛ بل هو مؤمن، ولكن لا يكون مثل الذي وصل إليها، كما سبق.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ **أوصيناك ـ يا محمد ـ وإياه دينًا واحدًا**» شرع لكم؛ يعني: أمركم وأوصاكم، وقوله: «**يَا مُحَمَّدُ وَإِيَّاهُ**»؛ أي: نوحًا، فشرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والنبيين الذين جاؤوا بعده، فهذا يدل على أن هذا الشرع هو الإيمان الذي جاءت به الرسل كلها، فهو دين واحد؛ فالإيمان أصله شيء واحد عند جميع الرسل وإن اختلفت الشرائع؛ يعني: الأوامر والنواهي، وهي فروع على الإيمان. والمعنى: أن الله أمر نبيّه ﷺ بإقامة الدين كله، وهو أن يأتي بشرائعه وسُنَنه كاملة؛ رجاء ثواب الله، وخوف عقابه، فمن أتى بذلك فقد استكمل الدين كله.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾: **سَبِيلًا وَسُنَّةً**»، والسبيل هو المسلوك، والسُّنَّة: المتَّبعة التي تُتَّبع، أما أن يقول: هو على السُّنَّة، وهو لا يتَّبع! فهذا لا يُجدي شيئًا، فإذَن الإيمان يدخل فيه الواجب، وكذلك المستحَب، وخرج من ذلك المباح.

أما المحرَّم والمكروه فهذا من باب التُّروك، والتروك إذا اجتُنِبت خوفًا من الله فهو من الإيمان، مثل ما قال: حتى يدع ما حاك في صدره، فدل على أن الترك خوفًا من الله أنه من الإيمان، وإن كان هذا أقل كلفة من العمل.

• **وقوله**: «**شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**»؛ يعني: سَبِيلًا وَسُنَّةً؛ يعني: السبيل الذي يُسلَك، والسُّنَّة التي تُفعَل؛ يعني: الأعمال التي يختلف الناس فيها؛ ولهذا ينسخ الله ﷻ من ذلك ما يشاء، ويُثْبِت ما يشاء، بخلاف الإيمان نفسه، فهو شيء اتفقت عليه الرسل كلها والأمم، والدين عند الله هو الإسلام.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بابٌ: دُعَاؤُكُمْ إِيمَانُكُمْ

لِقَوْلِهِ ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧]، ومَعنَى الدُّعَاءِ في اللُّغةِ الإِيمَانُ.

الشَّرح

قيل: الصواب هذا «باب»، فيكون قوله: «دعاؤكم إيمانكم» من قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ذَكَره بدون واو العطف كعادته في ذلك.

• قال: «دُعَاؤُكُمْ إِيمَانُكُمْ»؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧]، ﴿مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ﴾؛ يعني: أنه لا يبالي بكم، إذا لم تدعوه، والله مُعرِض عنكم.

﴿دُعَاؤُكُمْ﴾ يقال: إِيمَانُكُمْ، دخل فيه قول اللسان بالدعاء والطلب، سواء كان دعاء عبادة، أو دعاء مسألة. فدعاء العبادة يدخل فيه كل عمل يعمله العبد تعبدًا؛ لأن كل عبادة يعملها الإنسان يرجو بها ثواب الله ويخاف من عقابه: هي دعاء؛ لهذا قال: «دُعَاؤُكُمْ إِيمَانُكُمْ»؛ يعني: أن هذا يعم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾.

• **قوله: «وَمَعْنَى الدُّعَاءِ فِي اللُّغَةِ: الإِيمَانُ»**، الدعاء في اللغة الإيمان: دعا: إذا آمن، والإيمان يكون بالتصديق والإقرار والعمل، ولا بد من ذلك؛ ولهذا سُمِّيت الصلاة إيمانًا؛ لأن فيها الدعاء وفيها الامتثال، وقد سئل شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذه الآية، والذي سأله عامي من عوام الناس، فأجابه بلُغته؛ بلُغة العامي، بقوله: معناه: (وإيش يبِّي بكم ربي لولا دعاؤكم)، الدعاء هو الإيمان؛ يعني: يقول: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ﴾؛ يعني: ماذا يريد بكم؟ لستُم عنده بشيء إن لم تؤمنوا، فأنتم لا تساوون شيئًا عنده.

٨ ـ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: **حَدَّثَنَا** عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُوسَى، قَالَ: أَخْبَرَنَا حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، عَنْ عِكْرِمَةَ بْنِ خَالِدٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**».

الشَّرْح

وذكَرَ هذا الحديث في الترجمة معلَّقًا، ثم وصله هنا.

وهذا الحديث متفق عليه، وهو **أحد** الدعائم للإسلام عند الذين يقولون: إن الإنسان إذا اكتفى بأربعة أحاديث عن النبي ﷺ كفته عن كل خبر؛ لأنها جوامع جمعت من الأمور ما لا حصر لها، ونبيّنا ﷺ أُعطِيَ جوامع الكلم، الجوامع التي تكون حروفها قليلة ومعانيها لا حصر لها، مثل هذا الحديث.

والثاني: حديث عمر: «**إنما الأعمال بالنيات**»[(١)].

والثالث: حديث النعمان بن بشير: «**الحلال بيِّن، والحرام بيِّن**»[(٢)].

والرابع: حديث ابن مسعود: «**يُجمَع خَلقُ أحدِكم في بطن أمِّه**»[(٣)] إلى آخره.

وهذه الأربعة تكفي العبد في دينه إذا فهمها وعَلِمَها، فهي من الجوامع، كما قال الرسول ﷺ: «**فُضِّلت على الأنبياء بستٍّ: أُعطيتُ جوامعَ الكَلِم،**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٦)، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ورقمه (١)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٥١٦)، كتاب الإمارة بقوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنية**»، ورقمه (١٩٠٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٢٠)، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ورقمه (٥٢)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٢١٩)، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، ورقمه (١٥٩٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١١١)، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ورقمه (٣٢٠٨)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٣٦)، كتاب القَدَر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، ورقمه (٢٦٤٣).

ونُصِرْت بالرعب، وأحِلَّت لي الغنائم، وجُعِلَت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأُرسِلت إلى الخلق كافةً، وخُتِم بي النبيون»[(١)]، وهذا لفظ مسلم.

وفي حديث جابر: «**أُعطيتُ خمسًا لم يعطَهنَّ أحد من الأنبياء قبلي: نُصِرتُ بالرعب مسيرة شهر، وجُعِلَت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وأيُّما رجلٍ من أمتي أدركته الصلاة فلْيصَلِّ، وأحِلَّت لي الغنائم، وكان النبي يُبعَث إلى قومه خاصةً، وبُعِثْتُ إلى الناس كافةً، وأُعطيتُ الشفاعةَ**»[(٢)]، فهذه من خصائصه ﷺ.

• **قوله**: «**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ**»؛ يعني: أن الإسلام كأنه صوَّره كالبيت الذي له قواعد وأُسُس لا بد منها، فهذه هي القواعد؛ قواعد الإسلام التي يُبنى عليها، **هذه هي الخمس**:

الركن الأول: «**شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ**»، وهذا الأصل الذي بُعث به النبي ﷺ ومَن قَبْلَه من الرسل، لا بد من فهمه والعمل به، وذلك أن يشهد أن لا إلٰه إلا الله، متحليًا بها قلبًا وقالبًا؛ يعني: في باطنه وفي ظاهره، يكون مصدقًا منقادًا عاملًا بذلك.

أما أن يقولها بلسانه وهو لا يفهم معناها كما يفعله كثيرٌ ممَّن يدعي الإسلام اليوم، تجده يقول: لا إلٰه إلا الله، ويصلي، لكنه يذهب إلى القبور يستغيث بأهلها، ويستنجد بهم ويدعوهم عند الشدائد وفي الرخاء، ولكن في الشدائد ما كان أحد قبل هؤلاء يعملون هذا؛ كانوا إذا وقعوا في الشدة أخلصوا الدعاء لله ﷻ؛ لأنهم يعرفون أن المدعو مِن دونِه مخلوق فقير لا يملك مع الله شيئًا، وإنما يكون شركهم في الرخاء، ومع ذلك لا ينفعهم هذا، ولكن الله يستجيب لهم!

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ٩٢)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب قول النبي ﷺ: «**بُعِثت بجوامع الكلم**»، ورقمه (٧٢٧٣)، وأخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٣٧١)، كتاب المساجد، باب: «**جُعِلَت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**»، ورقمه (٥٢١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٩٥)، كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «**جُعِلَت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**»، ورقمه (٤٣٨)، وأخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٣٧٠)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: «**جُعِلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**»، ورقمه (٥٢١).

وهذا يدلنا على أن استجابة الدعاء لا تدل على الصلاح؛ لأن هذا من مقتضى الربوبية؛ فالله هو الرب لكل مخلوق، والرب معناه الذي يربُّ مخلوقه بالنِّعَم ويعطيه ما يحتاج إليه، سواء كان كافرًا أو غير كافر؛ ولهذا يقول ﷺ: «**لا أحد أصبر على أذًى يسمعه من الله ﷻ؛ إنه يُشرَك به، ويُجعَل له الولد، ثم هو يعافيهم ويرزقهم!**»[1]؛ لأن هذا مسبَّة لله ﷻ، وأنه له ولد ـ تعالى الله وتقدَّس ـ، ومع ذلك يعافيهم في أبدانهم، ويرزقهم بما يأكلونه، ويُصلح أبدانهم. فهو ربهم ﷻ، والمقصود: أن الذي يقول: لا إلٰه إلا الله، يجب أن يفهم معناها، والإلٰه هو المألوه الذي تألَهُه القلوب خوفًا ورجاءً وحبًّا، ويجب أن يكون تألُّهه لله وحده ﷻ، ولا يكون لأحد من الخلق، سواء كان نبيًّا أو ملكًا أو دون ذلك، لا يكون له شيء من التألُّه؛ لأن التألُّه من خصائص الله ﷻ، ويجب على العبد أن يخلص لله في **أمور أربعة**، وألا يكون عنده فيها تردد أو شك.

أولها: العبادة؛ فيجب أن تكون العبادة خالصة لله تعالى وحده لا شريك له في ذلك، ولا شريك له أيضًا في ذاته ووجوده وأحقِّيته ﷻ، ولا شريك له أيضًا في أسمائه وأوصافه، فأسماؤه وأوصافه خاصة به، والبلاء كله دخل على الناس بالنقص في هذا، وكذلك حقه الذي على العباد يجب أن يكون له خاصة، وهو معنى لا إلٰه إلا الله، هذه أمور أربعة: لا شريك له في ذاته، لا شريك له في أوصافه وأسمائه، لا شريك له في مُلكه؛ فالملك كله له، ولا شريك له في حقه الذي أوجبه على عباده، وهذا الذي يجب أن نفهمه تمامًا، وأن نقوم به كما ينبغي، فمعنى: لا إلٰه إلا الله؛ أن يكون المألوه هو الله، المألوه الذي يُقصَد ويُطلَب للنفع ولدفع الضر، وللتعبد والخضوع. والإنسان خُلق عابدًا، لكنه إن لم يعبد الإلٰه الحق عَبَد المظاهِرَ الأخرى من الحياة؛ مخلوقًا مثله، أو قد يعبد نفسه، يعبد هواه، ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ﴾ [الفرقان: ٤٣].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٥)، كتاب الأدب، باب الصبر على الأذى، ورقمه (٦٠٩٩)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٦٠)، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب: لا أحد أصبر على أذى من الله ﷻ، ورقمه (٢٨٠٤).

وهذا من عدل الله ﷻ ومن جزائه العاجل؛ أن الذي يترك عبادته يجعله عابدًا للشياطين، عابدًا للمخلوقات، هذا جزاء عاجل! يزداد في ذلك، كلما ازداد بعدًا عن الله ﷻ ازداد من عبادة غير الله، حتى الملاحدة الذين يقولون: لا حياة آخرة، ولا جنة ولا نار ولا خالق، إنما هي هذه المادة فقط! ونهاية الإنسان يكون ترابًا في هذه الأرض! هؤلاء لا ينفكُّون عن العبادة؛ يعبدون أنفسهم، أو يعبدون رؤساءهم، أو يعبدون شهواتهم ومراداتهم، ولا بد!

ولهذا يقول المصطفى ﷺ كما في البخاري: «**تَعِسَ عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أُعطي رضي، وإن لم يعْطَ سَخِط**»[1] كيف يكون العاقل عبدًا للدينار والدرهم؟! وعبدًا لملبوسه أو مفروشه الذي يدوسه بقدميه؟! ليس معنى ذلك أن يسجد لها، إنما لكونه يعمل لها فيكون عمله لذلك؛ مَن عَمِل لشيء فهو عابد له.

• **قوله: «بُنِيَ الإسلام على خمسٍ: شهادةِ أن لا إله إلا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ».**

«**أنَّ**» تدخل على المبتدأ والخبر، ويكون المبتدأ اسمًا لها، والخبر خبرها. وذِكْرُ اسمِه العلم هنا ـ «أن محمدًا» ـ مُتعَين، لماذا؟ لأنه لا بد من ذكر اسمه العلم عند الشهادة، وكان ﷺ في صلاته وفي تشهده يقول: أشهد أنَّ محمدًا رسول الله، كما ذكر ذلك الطحاوي في كتابه «شرح مشكل الآثار»[2].

وهذه الشهادة سوف يُسأَل عنها كل ميت، إذا مات في قبره يُسأل عنها في القبر، فإن صلَحت حاله واستقامت شهادته وإلَّا عُذِّب؛ أصابه العذاب العاجل، فمسائل القبر أُخِذت من هذا، ويقال: من ربُّك؟ ومعنى ربك هنا: إلٰهك ومعبودك، مَن الذي تعبد؟ هل هو مخلوق مثلك؟ أو معانٍ تجتذبها لنفسك وتريدها؟ فإن كان كذلك فهو من الهالكين.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٣٤)، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، ورقمه (٢٨٨٧).
(٢) شرح مشكل الآثار (٩/ ٤٠٩).

وكذلك عن دينِه الذي يتديَّن به ويتعبَّد به؛ عن هذه الثلاثة: عن معبوده وعبادته، ومن جاءه بالعبادة، هل هو يتعبد برأيه وهواه وما وجد عليه أهل بلده؟ أو أنه متَّبع للرسول ﷺ؟

فهذه الأمور يجب أن يتميز بها الإنسان، وهو سؤال لا بد منه لكل ميت، إلا الأطفال، الأطفال استُثنوا من هذا؛ لأنهم لم يكلَّفوا، وإنما هذا للمكلَّفين.

• **قوله: «وأن محمدًا رسول الله»**، والرسول هو رجل حرٌّ مكلَّف عاقل يكون من أهل القرى، قد كَمَل في أخلاقه وفي أعماله، والله يبعث من الناس من هو بهذه الصفة، ويتوجب في الرسول أمور أربعة: مرسِل هو رسول له، ومرسَل، ورسالة، ومرسَل إليهم، لا بد من هذه للرسول، والله أرسله إلينا برسالة، فهو المرسِل ﷻ، والرسالة اشتملت على ما ينفع في الدنيا والآخرة، ومن تركها فهو الهالك في الدنيا والآخرة.

• **فقوله: «شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ»** هذه واحدة؛ لأنها لا تصح شهادة أنْ لا إله إلا الله بدون شهادة أن محمدًا رسول الله، من أتى بواحدة ولم يأتِ بالأخرى فليس بمؤمن.

ومعنى الشهادة: العلم بالشيء واليقين، ثم النطق به والعقيدة، ومن لم يكن كذلك فهو ما شهد؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١].

لماذا؟ لأنهم نطقوا بما ليس في قلوبهم، فإذَن الشهادة لا بد أن يكون النطق بها موافقًا لما في القلب، وإلا لا تكون شهادة، تكون كذبًا؛ لهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ في شهادتهم هذه هم كاذبون؛ لأن ما في قلوبهم خلاف ما تكلموا به، وشهادة أنْ لا إله إلا الله يعني: أن الآلهة كلها باطلة، ويُستثنى من هذا اللهُ ﷻ.

ومعنى هذا: النفي والإثبات؛ نفي الباطل، وإثبات الحق، «لا إله» هذا نفي مطلق، ولا هذه تنفي الجنس، والجنس هو الشائع في نوعه الذي لا ينحصر في معيَّن؛ من رجلٍ، أو امرأة، أو شجرة، أو بقرة، وما أشبه ذلك، هذا يسمَّى جنسًا.

يعني: أنَّ «لا» تدخل في هذا النوع؛ ولهذا قيل: إنها نافية للجنس، تنفي الجنس مطلقًا، فهو نفي عام لا يخرج منه شيء في هذا الشيء المعيَّن، والإلٰه اسم جنس أيضًا، لا يطلق على شيء معين، كل مألوه يألهه القلب ويحبُّه ويرجوه فإنه إلٰه؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ﴾ [الفرقان: ٤٣].

إذَن الهوى يكون إلٰهًا، كما سبق في حديث الرسول ﷺ: «**تَعِسَ عبد الدينار، تَعِسَ عبد الدِّرهَم، وعبد الخميلة والخميصة**»[1]؛ فالإنسان قد يعبد المال، يعبد الدينار والدرهم، ويعبد اللباس، ويعبد...، كل ما استعبد القلب فهو معبود؛ لأن العبادة الحقيقية هي عبادة القلب، فالإلٰه اسم يدخل فيه كل ما يألَهُه القلب؛ لذلك قال: لا إلٰه؛ يعني: هذا نفي مطلق يُبطل كل آلهة، ثم يأتي الاستثناء «إلا الله» فهذا الذي يجب أن يكون مألوهًا فقط، وما عداه يجب أن يكون باطلًا مكفورًا به.

الركن الثاني: «**وَإِقَام الصَّلَاةِ**»، هكذا جاءت في الكتاب والسُّنَّة بلفظ «الإقامة»، ولم تأتِ بفعل الصلاة؛ افعلوا الصلاة، أو صلُّوا فقط، وإنما جاءت بالإقامة «**إقامة الصلاة**»؛ لأن الصلاة تعبُّد للقلب والبدن واللسان ولجميع الجوارح.

فيجب أن تكون الصلاة عبادة شاملة للقلب وللجوارح، وليس في جزء من الصلاة شيء لا عمل فيه، فبعض المصلين تجده يقرأ الفاتحة ثم يسكت، فهذا لا يصح إلا إذا كان يستمع؛ لأن المستمع حكمه حكم القارئ، يجب أن يتأمل ويتفهم الكلام، ويعرف أنه هو المراد بالخطاب.

فالمقصود: أن الأمر بالصلاة جاء بالأمر بإقامتها، والإقامة يجب أن تكون شاملة للعقل وللفكر وللقلب وللجوارح كلها، ولا تكون قائمة إلا إذا جاء بها على الوجه الشرعي، أما إذا نقص منها فهي غير قائمة، وإن كانت صلاة؛ ولهذا جاء في حديث عمار بن ياسر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الرجُلَ لَينصرِفُ وما كُتِب له إلا عُشرُ صلاته؛ تُسعُها؛ ثُمنُها؛**

---

(١) تقدم تخريجه.

سُبعُها؛ سُدسُها؛ خُمسُها؛ رُبعُها؛ ثُلثُها؛ نِصفُها»[١]، وإذا حضرها قلبه كُتِبت له كلها، فهذا معنى إقام الصلاة، فالإقامة ألا تكون عوجاء، ألا تكون ناقصة، أما إذا كانت ناقصة فإنك لم تُقِمْها.

ومن أعظم إقامتها حضور القلب والخشوع؛ حضور القلب أن تعرف ماذا تقول؟ وماذا تفعل؟ وأين أنت؟ هل أنت قائم بين يدي الله؟ أو أنت في شغل آخر؛ في بيع وشراء، أو في لعب، أو في أمور أخرى يجول فيها القلب؟

هذه ليست إقامة الصلاة!؛ ولهذا كان بعض السلف يقول: «لا يُكتَبُ للمرء من صلاته إلا ما عَقَل»[٢]، كما دل عليه حديث عمَّار المتقدم.

والمقصود بإقامة الصلاة: أن تأتيَ بشروطها وواجباتها وأركانها وسننها كاملة، ومن أخلَّ بشيء من ذلك فقد أخل بالصلاة ولم يأتِ بها قائمة؛ بل تكون معوجَّة ناقصة.

الركن الثالث: «**إيتاء الزكاة**» اختلفت ألفاظ البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الحديث؛ ففي بعض ألفاظه قَدَّم الحج، وفي بعضها قدَّم الصوم.

• **وقوله**: «**وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ**» إيتاؤها يعني: أن يبذلَها، سواء كان للإمام أو للمستحق. طائعًا مطمئنًا موقنًا بالإثابة من الله ﷻ، باذلًا إياها بإخلاص وصدق وانقياد بلا مِنَّة ولا بخل؛ لأنه حق الله الذي أوجبه على عباده، فيجب أن تبذله طائعًا راجيًا خائفًا، راجيًا الثواب خائفًا العقاب لو منعْتَها، سالمًا من تعلُّق النفس بحب المال؛ لأن الإنسان لا يبلغ الإيمان حتى ينفق مما يحب، وتكون نفقته أحب إليه من إمساكها؛ قال سبحانه: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

الركن الرابع: «**وَصَوْمِ رَمَضَانَ**»، هذا في رواية، وفي رواية قُدِّم الحج على الصوم، وتقديم الصوم؛ لأن الصوم فُرِضَ قبل الحج، والحج على القول الصحيح أنه فُرِض في السنة التاسعة من الهجرة.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١/ ١٨٩)، وأخرجه أبو داود في سننه (٢/ ٩٧)، كتاب الصلاة، باب ما جاء في نقصان الصلاة، ورقمه (٧٩٦).

(٢) هذا الأثر مروي عن سفيان الثوري، كما في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٦١).

والبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ كأنه اختار تقديم الحج على الصوم[١]، صحيح أن الحج متأخر في الفرضية، والصوم متقدِّم، الصوم فُرض في السنة الثانية من الهجرة، والحج لم يُفرَض إلا في السنة التاسعة.

ولم يحج النبي ﷺ في تلك السنة؛ لأن الزمان قد تغير، وكان الحج في غير وقته بسبب النسيء الذي كان يفعله المشركون، وإنما حج في السنة العاشرة؛ ولهذا لما وقف في عرفات وخطب خطبته العظيمة سألهم وقال: «**أي بلد هذا؟ وأي يوم هذا؟**» إلى آخره.

ثم قال: «**إن الزمان استدار كهيئته يوم خلق السمٰوات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حُرُم**»[٢]، فكانت الجاهلية تعمل أعمالًا من أسوأ ما كان، ولكنهم كانوا يحرمون القتال في أشهر الحُرُم، ولا يقاتلون فيها، وقد استهان بها أكثر المسلمين، فاستباحوا فيها المحرَّمات! والله ﷻ يقول: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

فكانوا يحرِّمون القتال فيها، ولما كان منها ثلاثة متوالية يصعب عليهم أن لا يقاتلوا فيها، فتحيَّلوا، فصاروا سَنةً يستبيحون القتال في المُحَرَّم، ويُحَرِّمون صَفَرًا بدلًا منه، وسَنةً يتركونه على ما هو عليه، فهم يعرفون أن هذه أشهر حُرُم؛ لهذا كان وفد عبد القيس لا يأتون إلى النبي ﷺ إلا في أشهر حُرُم، يقولون: يحول بيننا وبينك كُفَّار مُضَرَ؛ يعني: لا يتركونهم يأتون إلا في الأشهُر الحُرُم لا يتعرَّضون لهم.

فالمقصود: أن الحج فُرِض في السنة التاسعة، والسبب في كون النبي ﷺ

---

(١) قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «ظهر لي أن يقال في تعقيبه الزكاة بالحج: أن الأعمال لما كانت بدنية محضة، ومالية محضة، وبدنية مالية معًا؛ رتَّبها كذلك؛ فذكر الصلاة، ثم الزكاة، ثم الحج، ولما كان الصيام هو الركن الخامس المذكور في حديث ابن عمر: «**بُنِي الإسلامُ على خمس**» عقَّب بذكره، وإنما أخَّره؛ لأنه من التُّروك، والترك وإن كان عملًا أيضًا لكنه عملٌ النفس لا عمل الجسد؛ فلهذا أخَّره». فتح الباري، لابن حجر (١/ ٤٧٠).

(٢) أخرجه البخاري حديث رقم (٤٤٠٦)، وسيأتي تخريجه.

لم يحجَّ في تلك السنة هو ما كان عليه المشركون من النسيء الذي هو زيادة في الكفر، كما قال الله ﷻ.

والصوم معناه في اللغة: الإمساك، مجرد الإمساك عن الكلام أو عن الفعل أو عن الأكل والشرب؛ ولهذا يقولون: صامَت الشمس، في لغتهم؛ يعني: إذا تخيلوا أنها وقفت فوق رؤوسهم سمَّوا هذا صومًا، فقالوا: صامت الشمس.

وكذلك إذا سكت الإنسان قالوا: صام عن الكلام؛ قال الله ﷻ في قصة مريم: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦] ﴿صَوْمًا﴾؛ يعني: عدم الكلام، فلا تكلِّمُ أحدًا.

والصوم في المعنى الشرعي: الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس تعبُّدًا لله، المفطرات في الشرع التي بيَّنها رسولنا ﷺ، وربُّنا ﷻ كذلك وضَّحها، فيُمسِك الإنسان مع النية والاحتساب؛ ولهذا جاء في الحديث: «**من لم يَدَعْ قول الزور والعمَلَ به، فلا حاجة لله في أن يَدَعَ طعامه وشرابه**»[1]؛ يعني: أن الصوم يشمل الإمساك عن الأمور المحسوسة والأمور المعنوية التي حرَّمها الله ﷻ، ولا يكون صوم أحدكم كفِطْره.

الركن الخامس: «**الحج**» **في اللغة**: هو القصد، والمقصود به: قصدُ البيت في وقت معيَّن لأداء أمور معيَّنة بيَّنها رسول الله ﷺ، فيدخل فيه عمل البدن، ويدخل فيه نفقة المال، ويدخل فيه خضوع القلب، وهو كثير في الحجِّ، مثل: رمي الجمار، ومثل: الطواف بالبيت، والوقوف في عَرَفات، والوقوف في مزدلفة، والمبيت في مزدلفة، والحَلْق أو التقصير.

وهذه أكثرُ الناس لا يعقل معناها، وقد يعترض بعض الناس، يقول: لماذا هذا الزحام؟ يقتل بعضهم بعضًا على رمي الجمار وعلى الطواف وعلى كذا، يقولون: ماذا نستفيد أننا نطوف على البيت؟!

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/٢٦)، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور، والعمل به في الصوم، ورقمه (١٩٠٣).

نقول: اللهُ كلَّفنا بهذا، أما حقيقة الأمور فهي إلى الله، هذا تعبُّد للقلوب، يجب أن يكون القلب خاضعًا مطيعًا أمر الله، عَقَله أو لم يَعقِلْه، عقل حقيقتها، أو لم يعقِلْها.

ولهذا كان أنس بن مالك ﷺ يقول في تلبيته: (لبَّيك حقًّا حقًّا، لبَّيك تعبدًا ورِقًّا)[1]، تعبُّدًا يعني: وإن كنتُ لا أعرف حقيقة الأمر، فأنا خاضع لك ومنيب، ومقيم على طاعتك مرةً بعد أخرى، لا أخالف أمرك ولا أعصيك؛ خوفًا من عقابك، ورجاء لثوابك، فلا بد من هذا.

فالحج في اللغة: هو القصد؛ يعني: يقال: إذا ذهب إلى شيء معيَّن يقول: حَجَّ فلان، حَجَّ إليَّ، وهو مقصودُه، وهو شيء مخصوص، قصد البيت لأداء أمر الله الذي أمر؛ حيث أمر بقصده والطواف عليه؛ شكرًا لله ﷻ، وعبادةً له.

وهذا الطواف خاص بالبيت، لا يجوز أن يكون على شيء في الدنيا غيره، والطواف عبادة لا يجوز أن يكون إلا على البيت، أما أن يطوف على القبر أو على بِنْية أو على حجر أو على غير ذلك، فإنه لا يجوز؛ بل يكون شركًا من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله إلا بالخلوص منه والتوبة عنه، وكذلك المناسك الأخرى، وفيها امتحان للقلوب والفكر، وامتحان للأبدان، بأن يكون الإنسان مسلِّمًا ومنقادًا؛ لأن غالب أعمال الحج أمور لا تُعقَل، إنما هي تعبدية كما يقول الفقهاء.

يجب على العبد أن يعرف أنه عبد ممتثل لأمر ربه، ولا ينظر إلى المعنى، ويقول: ما معنى كوني أبذل المال وأُتعِب نفسي، ثم آتي أطوف على البيت، ولا أكتفي بإخراج المال في مكاني؟! وما معنى كوني أذهب إلى عرفات، أو أبيت في منى، أو أرمي الجمرات، أو أبيت في مزدلفة، وغير ذلك، كما يقوله كثير من الزنادقة؟ والله ﷻ جعل ذلك عبادة للقلوب، والصحابة فهموا هذا؛ ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم: (لبَّيك حقًّا حقًّا، لبَّيك تعبدًا ورِقًّا).

---

(١) الاستذكار (٤/ ٤٤)، والتلخيص الحبير (٢/ ٥٤٢).

المقصود: أن الحج فُرِض على المسلم في عُمُره مرة، في كل عُمُره مرة واحدة، وهذا من فضل الله ﷻ وإحسانه، كما أن الصوم في شهر واحد فقط، وكل ذلك؛ تخفيفًا من الله ﷻ، وهذه الأمور هي التي يدخل بها الإنسان الجنة، وبدونها لا يدخل، كما في الأحاديث، لما سئل النبي ﷺ عن العمل الذي يُدخل الجنة قال: «**تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت**»[1]، فرتَّب دخول الجنة على هذه الأمور، ثم الزيادات، وتحصيل الدرجات العالية، هذه يختلف الناس فيها؛ في الفرائض وفي النوافل.

ولهذا لما حج في السنة العاشرة قال: «**إن الزمان استدار كهيئته يوم خلق السمٰوات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا منها أربعة حُرُم**» إلى أن قال قبل هذا: «**أيُّ يوم هذا؟ أيُّ بلد هذا؟**» إلى آخره، فقال: «**إن الله أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية، كل عمل من أمر الجاهلية فهو تحت قدميَّ هاتين**»[2]؛ يعني: يُداس ويُرمى، فأبطل أمور الجاهلية كلها، والجاهلية: كل ما خالف الحق، كل ما خالف دين الإسلام فهو جاهلية.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦/ ٣٤٤)، والترمذي في سننه (٤/ ٣٠٨)، أبواب الإيمان عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في حرمة الصلاة، ورقمه (٢٦١٦). وابن ماجه في سننه (٥/ ١١٦)، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، ورقمه (٣٩٧٣). قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١٠٠)، كتاب الأضاحي، باب من قال الأضاحي يوم النحر، ورقمه (٥٥٥٠)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٣٠٥)، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، ورقمه (١٦٧٩).

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ:

بَابُ: أُمُورِ الإِيمَانِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

وَقَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ الآية [المؤمنون: ١].

الشَّرح

• **قوله**: «**باب أُمُورِ الإيمانِ**»؛ يعني: التي تلزم للإيمان، فهي من مسمى الإيمان.

مقصود البخاري رَحِمَهُ اللهُ في هذا الباب: أن يبين أن الأعمال داخلة في مسمَّى الإيمان، فهي إيمان في الشرع، والمقصود بها الأعمال التي أمر بها، وكذلك التُّروك داخلة في مسمى الإيمان، ولكن من المعلوم أن الترك أسهل من الفعل؛ ولهذا جاء من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، كما في «الصحيحين» قوله: «**إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأْتوا منه ما استطعتم**»(١).

فالمنهي لا يجوز أن يقترب منه، ولكن المأمور يؤتى به حسب الاستطاعة، وقد أخذ العلماء من هذا قاعدة، وهي: أن التُّروك سهلة ميسورة،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ٩٥)، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، ورقمه (٧٢٨٨)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٨٣٠)، كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله مما لا ضرورة إليه، ورقمه (١٣٣٧).

وأن كل إنسان يأتي بالشيء الذي يستطيعه، وأن جانب النهي ألزم وأعظم من جانب الأمر؛ إذا نهى الشارع عن شيء فيجب أن يُنتهى عنه.

فالمقصود: أن هذا أيضًا داخل في الإيمان؛ لكونه يتركه خوفًا من الله، ورجاء لثوابه، فهو من الإيمان من هذا الوجه.

وهذه آية جامعة: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وأسباب النزول تُعِين على الفهم، وإن كانت العبرة في عموم الألفاظ، وليست في أسباب معيَّنة؛ يعني: هذا بالنسبة للصلاة؛ أنها لا بد من الاتجاه إلى جهة، وهل الاتجاه إلى الجهة المعينة يكفي؟ لا بد أن يكون المقصود وجه الله ﷻ، وامتثال أمره، فإذا أمرنا بشيء نفعله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧] هكذا خطابات القرآن كلها ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ ثم يعطف عليه «اليوم الآخر، والملائكة، والرسل، والكتب»؛ لأن هذه كلها من أمور الغيب.

أما الرسل فقد سَبَقوا، ولا نعرف عنهم شيئًا؛ لطول السنين وانقطاع الأخبار، إلا ما ذكره الله لنا، ولو لم يذكر لنا آدم وقصته، وكونه خلقه من تراب، وأسكنه الجنة، وأمر الملائكة يسجدون له؛ ما عرفنا شيئًا من ذلك، وكذلك نوح وهود وغيرهما من الرسل، فهي إخبارات عن أمور سبقت لا نعلمها إلا بخبر الله ﷻ، وخبر رسوله ﷺ.

وكذلك الإخبارات اللاحقة التي تأتي؛ من الموت، والقبر وما يكون فيه، والبعث والوقوف بين يدي الله، والمحاسبة، وغيرها من الأمور التي تكون في ذلك اليوم كثيرة قد ذكرها، وكلها داخلة في اليوم الآخر.

• **قوله** ﷻ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، الله غيب لا يشاهَد، وليس له مثيل؛ فيقاسَ عليه ـ تعالى الله وتقدس ـ فالإيمان به يكون بالخبر الذي يخبر الله به عن نفسه، ويدخل فيه الإيمان بوجوده، والإيمان بعلمه واطلاعه؛ بل الإيمان بجميع صفاته وأسمائه، وما يلزم لذلك، كله داخل في هذا. قال الله ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ﴿مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾؛ يعني: جعل بينه وبين المخُوف

واقيًا يقيه، وهذا لا يكون إلا بالعلم وبالعمل، أن يعلم الذي يكون سببًا للخوف ومُوقعًا فيه، فيجتنبه.

هذه من الجوامع أيضًا؛ لأن التقوى يدخل فيها فعل الخير كله، واجتناب الشر كله، فهي اسم جامع للخير واجتناب الشر؛ لهذا يكتفى بها، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾، فآمن (يساوي) اتقى.

• **قوله:** ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ اليوم الآخر يعني: يوم القيامة وما اشتمل عليه، وفيه أمور كثيرة جدًّا قد بُيِّنَت ووضِّحت في النصوص القرآنية والنبوية.

ودخل في اليوم الآخر: البعث، والمجازاة، والحساب، والميزان، وغيره، وكل ما أخبر الله ﷻ به أنه يقع في ذلك اليوم، وينتهي بخلود الناس كلهم، سواء كانوا في الجنة أو في النار، فهم خالدون أبدًا ما دامت السمٰوات والأرض، هذا مُعذَّب وهذا مُنعَّم، لا بد من الإيمان بذلك.

وسُمي **اليوم الآخر** بذلك؛ لأنه بعد الدنيا، وهو يوم واحد ما فيه ليالٍ، مستمر إلى ما لا نهاية له، ولكِنَّ أهل الجنة يعرفون وقت الليل والنهار بأمور جعلها الله لهم، وليس عندهم ظلام، إنما هم في نعيم كامل.

واليوم الآخر يشمل كل ما ذكره الله ﷻ من الأمور المستقبلة.

• **قوله:** ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾؛ يعني: آمن بالملائكة. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ وأصل المَلَك: الرسول أخذوا من الأَلُوكة، والأَلُوكة هي: الرسالة؛ يعني: الرسل، هم رسل الله في كل ما كُلِّفوا به، والإيمان بهم أمر لازم لا بد من الإيمان به.

• **قوله:** ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ والملائكة عباد مُكْرَمون لا يفعلون إلا ما أمرهم الله ﷻ به، ولا يَفْتُرون عن العبادة ولا يستحسِرون، ولا يجوز أن نقول ذكورًا أو إناثًا، يجب أن نقول: عبادٌ مُكرَمون لله ﷻ، يأتمرون بأمره، وينتهون عن نهيه، وهم أكمل من بني آدم في الجملة، وإن كان فيه خلاف بين العلماء؛ أيهما أفضل: صالِحو بني آدم أو الملائكة؟ صالحو بني آدم فقط، وبنو آدم أكثرهم أشرُّ من الحيوانات، أشرُّ من الكلاب؛ ولهذا صار مأواهم جهنم. نسأل الله العافية!

قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [التين: ٤، ٥] فهو أسفل سافلين في الخلق، وفي الأفعال، وفي المصير والنهاية. والله ﷻ حكم عدل لا يظلم أحدًا شيئًا.

• **قوله:** ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ الكتاب: اسم جنس يدخل فيه كل كتاب أنزله الله ﷻ على رسله؛ أن نؤمن به.

وكثير منه غير معلوم لنا، وإنما نؤمن بأنه كلام الله، وفيه الهدى والنجاة لمن اتَّبعه، ومَن خالفه فهو في النار، وآخِرُها: القرآن الذي بين أيدينا، فهو مُهيمِن عليها، وحاكم عليها، ولكن نؤمن بأنها كلها حق، وأنها قول الله.

• **قوله:** ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ الكتاب: اسم جنس يعني: الكتب التي نزلها ﷻ على رسله، فيها الهداية.

الرسول عبد لله اصطفاه بالرسالة، وأمر بأمرٍ كلف تبليغَه إلى الكافرين.

• **قوله:** ﴿وَٱلْكِتَٰبِ. . .﴾: هذه كلها أمور غائبة عنا، فإذَن الإيمان يكون الإقرار والتصديق واليقين بالأمور المغيبة عنا التي نُخبَر بها خبرًا، أما الأمور المشاهَدة ما تسمَّى إيمانًا، فلا تقول: آمنت أن الشمس طلعت، أو أن السماء فوقي والأرض تحتي، أو أني موجود؛ هذه كلها لا تسمَّى إيمانًا؛ لأنها أمور مشاهدة، فالإيمان إنما يكون للأمور الغيبية، وهي التي يسمى التصديق بها إيمانًا.

• **قوله:** ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ إذا عُبِّرَ بالنبي دخل فيه الرسول، فهو مثل ما سبق الإيمان والإسلام، وإذا قلنا الرسول، دخل فيه النبي، وإذا اجتمعا افترقا، فإذا قلت: نبي الله ورسول الله، فالنبي يكون غير الرسول، والرسول غير النبي؛ النبي يكون الذي أنبئ بالخبر، سواء كُلِّف بالإبلاغ أو لم يُكلَّف.

وإن قلت: الرسول، لا بد أن يكون مكلَّفًا برسالة يرسِلُها إلى مرسَل إليه، والرسول يتطلب أربعة أشياء ـ كما سبق ـ: مُرسِلًا، ورسولًا، ورسالة، ومرسَلًا إليهم؛ ولهذا قالوا: الرسول لا بد أن يرسَل إلى قوم كافرين، هذا فرق بين الرسول والنبي.

وهم كثيرون، وذُكِر منهم في القرآن خمسة وعشرون رسولًا، يجب

الإيمان بأعيانهم، والبقية نؤمن بأنهم جاؤوا بالحق من عند الله، وبلغوا الرسالة إلى قومهم، فمن اتَّبَعهم فهو المهتدي، ومن أبى فهو الطريد الملعون الذي يكون في جهنم، والعياذ بالله.

والنبي إنما يكون في الأمة المسلمة، يوحَى إليه بأمور خاصة، ولا يكلَّف تكليفَ الرسول بأن يبلِّغ جميع من أُرسِل إليهم.

وهم كثيرون عددهم لا نعرفه، وإنما الذي ذُكِر منهم في القرآن خمسة وعشرون نبيًّا، هؤلاء يجب الإيمان بهم، فعلى العبد أن يمتثل أمر الله وإن كان هذا الأمر لا يوافق ما في نفسه، ولكنه يجب أن يقدِّمه على هواه، فيكون هذا من معنى حديث الرسول ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبَعًا لما جئتُ به»**[1]، يكون هذا هو المعنى المقصود.

• **قوله**: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ وآتى المال على حبه؛ يعني: وإن كان يحب المال يؤتيه خوفًا من الله، دخل في هذا الواجبُ والمستحَب.

فذكر مواضع إيتاء المال ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ القربى: الذي يُعطى من الأقارب، أو قربى الرسول ﷺ؟ يدخل في هذا الصدقة على ذوي القربى؛ صلة وصدقة، فتكون أفضل من الصدقة على البعيد.

ولما ذكر المُؤْتَى بدأ بـ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ القربى؛ يعني: قرابة الإنسان من جهة النسب، وليس المقصود قرابة النبي ﷺ، وإن كانوا داخلين في هذا، ولكن يعني: أنه يبدأ بالقريب، أول من يبدأ ابنه؛ لأن من العرب من كان يسيء إلى الابن، قد يقتله؛ خوفًا من الإملاق!

• **قوله**: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾، اليتيم هو: كل من مات عنه أبوه صغيرًا لم يبلغ،

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السُّنَّة، حديث رقم (١٥)، وابن بطة في الإبانة، حديث رقم (٢٩١)، والبغوي (١٠٤). صححه النووي رحمه الله في الأربعين النووية، وقال ابن حجر رحمه الله: رجاله ثقات. الفتح (١٣/ ٢٨٩)، وضعَّفه غيرهم، ومعناه صحيح، وهو في معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

فهو يتيم الأب فقط، وليست الأم؛ لأن الأب هو المكلَّف بالتربية والقيام عليه، وهو المسؤول عن ذلك.

• **قوله:** ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ المسكين اختلفوا في تعريفه:

فمنهم من يقول: المسكين الذي لا يجد شيئًا.

ومنهم من يقول: بل المسكين من يجد بعض الكفاية؛ لقول الله ﷻ في قصة موسى مع الخضر: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ [الكهف: ٧٩] سماهم مساكين، ولهم سفينة! ولأن الله بدأ بالفقير قبل المسكين: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، أما الفقير فهو الذي لا يجد شيئًا.

• **قوله:** ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المسافر الذي يكون محتاجًا، فيُعطى من الزكاة إذا كان محتاجًا، وإن كان غنيًّا في بلده. ابن السبيل سماه ابنًا؛ لملازمته لذلك.

• **قوله:** ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ السائل له حق إذا سأل، فيجب إما أن يعطى، وإما أن يُرَدَّ بحسن خلق وحسن كلام.

• **قوله:** ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ الرقاب يعني: عتق الرقبة تُشترى به.

• **قوله:** ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ١٧٧] هذا مِثْل ما مضى؛ أن الأوامر التي جاءت في الصلاة كلها بلفظ «الإقامة»؛ مما يدل على الاهتمام بها، ولكنَّ كثيرًا من المسلمين لا يهتمون بها، حتى وصل الأمر إلى بعض طلبة العلم الذين يكونون أئمة في المساجد وغيرهم، لا يطمئنُّون في صلاتهم! والطمأنينة لا بد منها في الصلاة.

فكيف يتمكن الإنسان من حضور القلب ومن الخشوع والذل بالسرعة التي لا يتمكن منها إلا من أداء الواجبِ المُتَعَينِ، فهذا إخلال في الصلاة؛ ولذا يجب أن يكون الإنسان يصلي كما قال لنا رسولنا ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[1] هذا أمر مُتعَين واجب، صلوا: أمر واجب، «**صلوا كما**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/١٢٨)، كتاب أبواب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة، والإقامة، وكذلك بعرفةَ وجَمعٍ، وقول المؤذن: الصلاة في الرحال، في الليلة الباردة أو المطيرة، ورقمه (٦٢٣).

رأيتموني أصلي» وكلامه للرجل؛ كلام للأمة كلها، وقد جاء في الحديث: «الإمام ضامن»[١].

• قوله: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ هذا عام، والعهد: كل ما التزمه الإنسان، والإنسان الذي التزم أن يؤمن بالله وبملائكته وباليوم الآخر، إلى غير ذلك: لا بد أن يقوم بهذا، لا بد أن يوفي به، وإن لم يوفِ به فهو مؤاخَذ.

ولكن دخل دخولًا خاصًا الأيمان التي تُعقَد بين الناس، فلا بد من الوفاء بها، وقد تكون بين الأمم.

• قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾، البأساء: الفقر. والضراء: المرض والعَوَز وغير ذلك.

• قوله: «الآية» المقصود الآيات وليست الآية فقط، عند البخاري الآيات التي في أول سورة المؤمنين ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ١، ٢] إلى آخر العشر آيات، هذه كلها تدل على أن الأعمال تسمى إيمانًا، وأن المؤمن لا يمكن أن يكون مؤمنًا إلا ويعمل، أما إذا وُجِد الإيمان في القلب ثم يترك العمل، هذا لا يمكن، فهذه تقديرات غير صحيحة.

يعني: تقديرات المرجئة هم اغتروا في مثل هذا، فهذا ممتنع أصلًا؛ لا يمكن أن يستقر الإيمان الصحيح في القلب إلا ويبعث على العمل، فالعمل ملازم له؛ بل هو جزء منه؛ لأنه ـ كما سبق ـ الإيمان يتكون من أمور ثلاثة؛ من العلم، ومن العمل، ومن القول. لا بد منها، والله ﷻ يقول: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦] والرسول يقول ﷺ: «أُمِرْت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»[٢].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (١/ ٣٨٩)، كتاب الصلاة، باب ما يجب على المؤذن من تعاهد الوقت، ورقمه (٥١٧)، وأخرجه الترمذي في سننه (١/ ٢٨٢) أبواب: الصلاة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء أن الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن، ورقمه (٢٠٧)، وأخرجه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٢٢)، كتاب إقامة الصلاة، باب ما يجب على الإمام، ورقمه (٩٨١).

(٢) تقدم تخريجه.

فلو اعتقد الإنسان صحة الإيمان وعمل أيضًا، ولكنه لم ينطق بالشهادتين؛ يكون كافرًا، وإذا مات على ذلك فهو في النار، لا بد من النطق بالشهادتين إذا كان يستطيع النطق، أما إذا كان لا يستطيع فالأمر غير هذا.

• **قوله**: «**الآية**» القاعدة عند العلماء في هذا: كانوا أولًا يكتبون الكتب بأيديهم بالأقلام، وإذا أتوا إلى ذكر الآية ذكروا جزءًا منها، ثم قالوا: «الآية»؛ يعني: يقصد بذلك أنك تقرأ الآية كاملة، أو الآيات؛ لأنهم يقدِّرون أن طالب العلم يكون حافظًا للقرآن، فلا يحتاج أن يكتب له الآيات، وإنما ينبه على أولها فقط.

• **قوله**: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٥] إلى آخر الآيات، فهذه فيها التروك وفيها المحافظة على الأمور التي أمر الله ﷻ بها، وكلها من الإيمان، وهؤلاء هم الذين يرثون الفردوس، والفردوس هو أعلى الجنان، كما جاء في الحديث: «**إذا سألتم الله الجنة، فاسألوه الفردوس**»[1].

(١) تقدم تخريجه.

٩ ـ **حَدَّثَنَا** عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الجُعْفِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ العَقَدِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بِلَالٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**».

الشَّرح

• **قوله: «الإيمان بضع وستون شعبة»**، وفي «صحيح مسلم»: **«بضع وسبعون شعبة»**[1].

والبِضْع: هو الجزء من الشيء، فإذَن هذه الأمور كلها إيمان، **وهذا دليل** على أن الإيمان يتفاوت.

البضع: من الثلاثة إلى العشرة، **«بضع وستون شعبة»**؛ يعني: كل واحدة منها شعبة من الإيمان.

• **وقال: «والحياء شعبة من الإيمان»** الحياء: هو خُلُق يمنع من فعل القبيح، ويَحمِل على فعل الحسن، فهو من أعمال القلوب، وأعمال القلوب من الإيمان.

المقصود بالشُّعَب: الأمور التي تُفعَل طاعةً لله ورجاءً لثوابه؛ يعني: الأمور التي أمر بها؛ لأنه لا بد أن يكون الفعل الذي يفعله المؤمن جاء به الشرع، جاء به الرسول ﷺ، وإلا لا يكون من الإيمان في شيء، ولا يكون صاحبه إلا آثمًا، ومن هنا أخذ العلماء قاعدة، وهي: أن الأوامر يجب أن تكون توقيفية، والأشياء على الإباحة حتى يأتي النهي؛ يعني: هذه هي قاعدة يجب أن تطبق دائمًا.

والدليل الثاني: قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] كلها لنا، أباحها لنا؛ فلا يُحرَّم إلا ما جاء النص بتحريمه: ﴿قُل

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٦٣)، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، ورقمه (٣٥).

﴿لَآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

فإذَن هذه محصورة، وما عدا ذلك فهو مباح كله، ومن ذلك المعاملات التي يتعامل بها الناس، الأصل فيها الإباحة حتى يأتي الحظر ـ وهو المنع ـ من الشارع.

لهذا **قال: «الإيمان بضع وستون شعبة»** هذا اللفظ اختاره البخاري؛ لأنه هو الذي فيه اليقين، وإلا هذا الحديث مشهور، وأكثر ألفاظه بضع وسبعون، هي روايات مسلم وغيره كثيرة.

ورجَّح العلماء هذا الأخير ـ **«بضع وسبعون شعبة»** ـ، فهذه الأمور التي أُمر بها الإنسان، فدخلت في الإيمان؛ ولهذا جاء في غير هذه الرواية: **«أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»**[1]؛ وذلك أن التوحيد هو الأساس، وهو الذي يُبنى عليه العمل كله، ولا يُلتفَت إلى شيء من الأعمال لم يتقدَّمه التوحيد بشهادة لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، يكون باطلًا مهما كان صاحبه من الإحسان وغيره.

فإذَن قوله: لا إله إلا الله: قول، وإماطة الأذى عن الطريق: عمل.

«والحياء من الإيمان»، والحياء خلق يكون في الإنسان يمنعه من فعل المكروه الذي يكون فيه خدش للكرامة، ويحمله على فعل الجميل.

فإذَن هذا الحديث شمل الأعمال كلها التي تُعمَل، وسمَّاها الرسول ﷺ إيمانًا، إذَن كيف يسوغ الخلاف في أن الأعمال ليست من الإيمان مع هذه النصوص الصريحة الواضحة من كتاب الله ومن أحاديث رسوله الكريم ﷺ؟! كل هذا سببه عدمُ تعظيمِ كلام الله وكلام رسوله ﷺ، والاستغناءِ بهما.

المتكلمون رجعوا إلى العقول والأفكار، فوقعوا في الضلال، ولا سيما في الإيمان بالله؛ لأن الإيمان بالله يدخل فيه الإيمان بصفاته وأسمائه، فصار العقل عندهم مقدمًا، والعقل معروف أنه غير منضبط؛ عقول الناس تختلف

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٦٣)، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، ورقمه (٣٥).

كثيرًا، ربما شيء عند إنسان يكون معقولًا، وعند غيره غير معقول، وهذا كثير، والسبب في هذا أنهم نظروا في أفكارهم وقالوا: إن الذي دلنا على صدق الرسول هو العقل، فإذَن يكون العقل هو الأصل، وما جاء به الرسول يكون فرعًا عليه، ومن الممتنع أن يقدَّم الفرع على الأصل!

هذا كله ضلال في الواقع؛ لأن العقل لا يمكن يستقل بالهدى والعلم أبدًا حتى يرشد، فيكون له دليلًا يدل على ذلك؛ لهذا يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

يعني: هذه الأمور التي ذكرها الله ﷻ آيات لمن عقلها، فلا بد من إرشاد العقل وهدايته، أما أن يأتي بأمور مستقلة، لا يمكن، وكيف يعرف الله ﷻ إلا كونه ينظر إلى المخلوقات، هذه طريقة المتكلمين، وهي مقصودهم في قولهم: أول ما يجب على الإنسان النظر؛ النظر في المخلوقات، حتى يرى أن المخلوق لا يمكن أن يخلقه مخلوق.

المقصود: أن هذا الحديث من أوضح الأدلة في دخول الأعمال في مسمَّى الإيمان.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ

١٠ ـ حَدَّثَنَا آدَمُ بْنُ أَبِي إِيَاسٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي السَّفَرِ، وَإِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ**».

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: وَقَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: حَدَّثَنَا دَاوُدُ، عَنْ عَامِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. وَقَالَ عَبْدُ الأَعْلَى، عَنْ دَاوُدَ، عَنْ عَامِرٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

الشَّرح

• **يقول البخاري رحمه الله تعالى: بَابٌ: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»**، الإسلام هو الاستسلام لله بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، والخلوص من ذلك، والإسلام والكفر ضدان لا يجتمعان، وهنا يقول ﷺ: «**المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**»، وهذا يعني فيما يظهر أنه خطاب للمسلم؛ لأنه لا بد من الإيمان بالأركان السابقة؛ يعني: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان والحج، كما سبق في الحديث.

يعني: من عمل ذلك فيكون من الواجب الذي إذا أخل به المسلم يكون إسلامه ناقصًا، ويكون معرَّضًا للعذاب؛ لأنه ترك بعض الواجبات، فأذية المسلمين حرام، وسلامة المسلم من لسان الإنسان ويده أمر واجب، فإذا تركه كان إسلامه ناقصًا، وكان معرَّضًا لعذاب الله.

بدأ باللسان؛ لأن اللسان ضرره أعم وأكثر، وقد لا يسلم منه أحد إلا ما شاء الله، وذلك يتناول القدح، والسب، والغيبة، والنميمة، وغير ذلك من

أمور اللسان الكثيرة، فمن حفظ لسانه عن الوقوع في المسلمين دلَّ على أنه معتنٍ بأمر الله ﷻ، وأنه أيضًا مهتم بنفسه؛ لئلا يقع في عذاب الله ﷻ.

وقد يزين الشيطان للإنسان السوء بصورة الخير، فيتكلم على الناس، ويقول له الشيطان: هذه نصيحة، وهذا تمييز بين الحق والباطل، وهو واجب عليك! فيستمر في هذا، ويكون اكتسابه للآثام أكثر ـ نسأل الله العافية ـ.

أما اليد فهي أقل من اللسان عملًا؛ ولهذا كان علامة حرص الإنسان على أن يكون متبعًا للحق التوقي في الكلام، كان الذين يهتمون بهذا يفكرون في الكلمة قبل أن تخرج، فإن رأى أن له فيها خيرًا تكلم، وإلا حبسها، واللسان يحتاج إلى عناية في هذا، ثم اليد يدخل فيها ما يتعلق بالحقوق، وما يتعلق بالذوات، فلا بد أن يكف يده عن هذه الأمور، إذا كان ذلك للمسلمين، وسيأتي ما هو أكمل من هذا إن شاء الله.

ولكن مقصود البخاري رحمه الله: أن الإسلام والإيمان عنده سواء، وأن أموره كثيرة؛ منها ما هو فرض لا بد من القيام به، ومنها ما هو من واجباته، فإذا أخل به الإنسان فإنه يكون مقصرًا في أمر الله ﷻ، ومتعرضًا لعذابه، ومنها ما هو فضل وإحسان إلى النفس وإلى الغير، وفي هذا المعنى دل قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢].

فقسَّمهم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الظالم لنفسه. والظالم لنفسه: هو الذي ترك بعض الواجبات، وارتكب بعض المحرَّمات، لكنه في دائرة الإسلام لم يخرج منها، فهذا يمكن أن يعذَّب في الدنيا، ويمكن أن يعذَّب في القبر وفي الموقف، وقد لا يكفي هذا فيعذَّب في النار، ثم يكون مآله إلى الجنة. ويظهر ـ والله أعلم ـ أن الله بدأ به؛ لكثرتهم، فهم أكثر من المقتصدين ومن السابقين.

القسم الثاني: المقتصد: هو الذي قام بحق الله وحق عباده، واقتصر على هذا، ولم يأتِ بالفضائل.

القسم الثالث: السابق بالخيرات بإذن الله ﷻ: فهو الذي أدى حق الله

وحق عباد الله، وجاء بما هو فضل وإحسان؛ يعني: تقرَّب إلى الله بالنوافل بعد أداء الفرائض.

وهؤلاء هم السابقون وهم المقرَّبون، ففرق بين هذه الأمور الثلاثة، وهذا كله في دائرة الإيمان بالله ﷻ، والله ﷻ رقيب على عباده، ولا يضيع لديه عمل، ولكنه ﷻ حكَمٌ عدل، لا بد أن يضع الأمور في مواضعها، فبهذا يتضح معنى الحديث.

المقصود: أن البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ عنده الإسلام هو الإيمان، والإيمان هو الإسلام، ما فيه فرق؛ ولهذا **قال هنا**: «**المسلم من سَلِمَ**»؛ يعني: المؤمن عنده، المؤمن الذي لا يصدر منه أذًى لا من يديه ولا من لسانه، والأذى مقيَّد بالمسلمين، لا يتأذون منه لا بالفعل ولا بالقول، وبدأ باللسان؛ لأنه أكثر ما يصدر من العبد الأذى من اللسان، وهذا لا يسلم منه إلا من تحلى بالإيمان حقيقة.

• **قوله**: «**ويده**» من أن يبطش بها، ويضرب بها.

ولهذا جاء كثيرًا في القرآن: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢]، وإن كانت الأعمال تكون بغير اليد كثيرًا، ولكن هذا هو الغالب؛ فاللسان يدخل فيه القول الصريح، ويدخل فيه ما يكون في القلب من الاحتقار والازدراء، وغير ذلك من الأمور الكثيرة، والأمور التي في القلب قد تكون أكثر مما يكون باللسان، كلها ليست من صفة المؤمن؛ بل إذا فعل شيئًا من ذلك فهذا خَدش ونقص في إيمانه، أما الفعل فظاهر؛ كونه يأخذ حق غيره أو يتحايل عليه، فهذا معناه إيمانه إما ضعيف وإما معدوم لا وجود له؛ ولهذا سُمي الإيمان إيمانًا؛ لأن المؤمنين يأمنونه على أموالهم وأعراضهم ودمائهم.

• **قوله**: «**والمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ**» الهجرة معناها: الترك في اللغة، والأصل فيها: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام؛ طاعةً لله ﷻ، وحماية لدينه، ونصرة لله ورسوله ولإخوانه المسلمين، هذا هو الأصل في الهجرة، ثم هذا يدلنا على أن الهجرة هي ترك ما نهى الله عنه، كما قال

الرسول ﷺ في هذا الحديث مطلقًا، ولم يقيد بهذا، وذلك أن الترك أسهل من الفعل.

وبهذا جاء الحديث الذي في «صحيح مسلم»، وهو قوله ﷺ: «**إذا أمرتكم بشيء فأْتُوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه**»[1]؛ فالنهي لا يجوز أن ترتكب منه شيئًا؛ لأن هذا سهل، بخلاف الأمر بالفعل الذي يُطلب منك حصوله، فهذا قد يكون فيه شيء لا تستطيعه، والله لا يكلف نفسًا إلا وُسْعَها.

لهذا قال: «**إذا أمرتُكم بشيء فأْتُوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه**»؛ يعني: مطلقًا، ومن هذا قوله: «**والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**» يهجره يعني: يتركه، ويجانبه بعيدًا عنه، فالهجرة هي فرض عيني على كل مسلم، فرض أن يهاجر إلى الله ﷻ، وإلى رسوله ﷺ، ولا ينفك الإنسان عنها في وقت من الأوقات، وهي في الواقع معنى قوله ﷻ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]؛ يعني: من معاصي الله إلى طاعته، هذا المقصود؛ من معصية الله إلى الطاعة، فالحماية في طاعة الله ﷻ، ولا طريق إلا هذا لحماية المسلم، أو حماية المرء من العذاب في الدنيا والآخرة، ليس إلا الفرار إلى طاعة الله، واتباع رسوله ﷺ، فهذه الهجرة الواجبة على كل أحد، وتفصيلها في ذكر بعض الأفراد يطول جدًّا في هذا، ولكن هذا يكفي إذا فهمنا المراد من ذلك، والتوفيق بيد الله ﷻ.

أما الهجرة بالانتقال من بلد إلى بلد، هذه لها تفاصيل ولها أمور، وقد قال ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكِنْ جهاد ونية**»[2] وهذا معنى قوله: «**المُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ**»[3] وهو قوله: «**جهاد ونية**»، فالجهاد دخل

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٥)، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير، ورقمه (٢٧٨٣)، أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٤٨٧)، كتاب الإمارة، باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام، ورقمه (١٨٦٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١٠/ ٦٤٨٤)، باب الانتهاء عن المعاصي، ورقمه (٦٤٨٤).

فيه جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد من هو قريب منك، ومن هو ناءٍ عنك، ولكن هذا مقيَّد بالاستطاعة في بعض الصور، وليس في كل الصور.

وأما نص الحديث: «**لا هجرة بعد الفتح**»؛ يعني: المقصود به مكة، انقطعت الهجرة من مكة إلى المدينة ـ مثلًا ـ التي هي مُهاجَر رسول الله ﷺ والمؤمنين معه، فهذه انتهت؛ ولهذا يقول بعض العلماء: هذا فيه بشارة من النبي ﷺ أن مكة لا يزال فيها الإسلام إلى قيام الساعة؛ لأن الهجرة انقطعت منها، فتبقى دار إسلام إلى قيام الساعة، ولا يُعتَرض بهذا على ما ذُكِر أنه في آخر الزمان سوف تُنقَضُ الكعبةُ حجرًا حجرًا ويُرمى بها في البحر! لأن هذا في نهاية الأمر ـ والله أعلم ـ بعدما يُرفَع القرآن من الأرض، فإنه إذا تُرك العمل به يرتفع إلى قائله، وإلى من هو صفة له؛ إلى الله ﷻ، يُسرَى عليه في ليلة واحدة؛ فلا يبقى منه حرف واحد، لا في الصدور ولا في المصاحف، فيصبح الناس لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا، يتهارجون تهارُجَ الحُمُر، وعليهم تقوم الساعة! والساعة هي: النفخ في الصور.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بابٌ: أَيُّ الإِسْلَامِ أَفْضَلُ

١١ ـ **حَدَّثَنَا** سَعِيدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ القُرَشِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بُرْدَةَ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ، وَيَدِهِ**».

الشَّرح

أيُّ المسلمين أفضل؟ يعني: في الأمور الواجبة المتعينة، ومعنى ذلك: أن أهل الإسلام يتفاضلون فيما هو واجب عليهم، وهذا يدل على أن الإيمان يزيد وينقص، بالفعل، وكذلك في الأصل؛ أما الفعل فلا إشكال فيه، فهو ظاهر جدًّا؛ لأن الإنسان كلما أتى بطاعة زاد إيمانه، والأصل الذي هو مبعث الأعمال الذي هو في القلب، الناس فيه ليسوا سواء، بعضهم أكمل من بعض.

وكلما نظر الإنسان في الأدلة، وفكر في نعم الله عليه متأملًا صفات الله ﷻ وأسماءه وتحلَّى بذلك، فإن إيمانه يكون أتم وأكمل ممن لم يكن كذلك، هذا في الأصل، أما في الأعمال فهو كما سبق، إذَن المقصود من هذا الباب: أن بعض المسلمين يتفاضلون في الأصول، وفي الأعمال، وهذا أمر ظاهر أيضًا، والذي ينكره في الواقع ليس له دليل ولا متعلَّق، وإنما هو مجرد: إما اتِّباع للمذهب، أو أنه جاهل في هذا.

والبخاري ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في هذه الأبواب يريد أن يرد على المرجئة الذين يُخرجون الأعمال عن مسمى الإيمان، أو الذين يقولون: إن الإيمان هو المعرفة، وهذه الطائفة كفَّرهم العلماء؛ لأن مجرد المعرفة لا يكفي، فالشيطان يعرف ربه، وكذلك المشركون يعرفون الله ﷻ، والكفر أقسام؛ منه كفر

الجحود وهذا قليل؛ لأن الله ﷻ أيد الحق بدلائل ظاهرة تضطر العقل إذا نظر إلى الإقرار بذلك.

فلهذا أخبر الله ﷻ أنهم عرفوا آيات الله، ولكنهم جحدوها؛ تكبرًا وعنادًا، حتى بعض الطغاة الكبار، مثل: فرعون، ونُمرود، وغيرهما؛ ففرعون لما أدركه الغرق ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ قال له الملك: الآن؟! لا ينفعك، ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩٠، ٩١]، أصبحت مفسدًا في الأرض؛ ولهذا قال ﷺ: **«لا يزال العبد في توبة ما لم يعايِنِ الملائكة»**[1] يعاين: يعني الملائكة الذين يقبضون روحه، أو يعاين الموتَ؛ دلائلَه القريبة التي لا يتخلص منها؛ فإنه في هذه الحالة لا يُقبَل منه لا توبة ولا عمل، فأصبح كأنه في الآخرة، انقطع الأمل كله من الخروج مما هو فيه.

ثم الناس يتفاتون في الإجرام، كما أنهم يتفاتون في الإيمان؛ ولهذا جعل الله ﷻ النار دركات؛ واحدة تحت الأخرى، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار تحت الكافرين. نسأل الله العافية.

فإذَن المقصود هنا بالإسلام: الأمور الواجبة التي لا بد من فِعْلها، فالناس يتفاضلون فيها تفاضلًا بينًا، وفي هذا معرفة درجات الناس، وأنها تتفاوت كثيرًا، وكذلك درجات الكافرين تتفاوت في الإجرام والكفر وغيرها.

• **قوله: «أَيُّ الإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟»** هذا مثل ما مضى، قلنا: إن هذه من الكلام الجامع **«مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»**؛ يعني: أنه كفَّه إيمانه أن يَصدُر منه أذى للمسلمين، ثم قيد هذا بالمسلمين؛ لئلا يدخل فيه الكفار؛ لأن الكافر أُمر المسلم بقتاله، وماله أيضًا مباح إذا كان محاربًا؛ بهذا الشرط: أن

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا عن أبي مجلز. انظر: شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (ص٩٦). وقد ورد مرفوعًا بلفظ: **«إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»**. أخرجه أحمد في مسنده (١٠، ٤٦١)، والترمذي في سننه (٥، ٤٣٨)، كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار، ورقمه (٣٥٣٧)، وابن ماجه في سننه (٥، ٣٢٣)، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، ورقمه (٤٢٥٣). قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

يكون محاربًا؛ يعني: يقاتل المسلمين، أما إذا كان مسالمًا فلا يجوز التعدي على ماله ولا أخْذُه.

كما أن أذية الذمي داخلة في هذا؛ ولهذا جاءت النصوص بذلك في قول النبي ﷺ: «**من قتل معاهَدًا لم يَرَحْ رائحةَ الجنة**»[(١)]، وهذا الخبر ونحوه من أخبار الرسول يجب أن تبقى على ظاهرها، ولا يجوز أن نتأولها تأويلات تخرجها عن المقصود؛ لأن هذا يقلل من شأنها، ويسهل الأمر أمام المتهورين الذين يُقدِمون على الجرائم الكبيرة، مثل: القتل ونحوه.

فلهذا نقول: نصوص الوعيد يجب أن تبقى على ما جاءت عليه، مع اعتقاد أن الفاعل لا يكون كافرًا، ولكن الأمر إلى الله فيها؛ فمثلًا قول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣]، هذا وعيد عظيم جدًّا في هذه الآية، فإذا جاء التأويل في هذا قلل الأمر من ذلك، وهكذا قوله ﷺ في هذا.

• **وقوله**: «**من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده**»؛ يعني: أن هذا مثل ما سبق، أنه من الأمور التي تكمل واجبات الإسلام؛ لأنه في الحديث الآخر يقول: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نُهْبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم، وهو مؤمن**»[(٢)]، وقد سبق الكلام في هذا، وقلنا: إنه يدل على أن عنده إيمانًا ناقصًا، ولم يخرج من الإيمان؛ إذ لو كان خرج من الإيمان لقُتِلَ مرتدًّا، ولكنه أُعطي حكم الإسلام من رسول الله ﷺ؛ فالزاني المحصَن لما أقر على نفسه رَجَمه فصلى عليه، ولا يصلَّى على كافر، وكذلك السارق قُطعت يده نَكالًا، وكانت هذه كفَّارة له، وقد جاء في

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/٩٩)، كتاب الجزية والموادعة، باب: من قتل معاهدًا بغير جُرم، ورقمه (٣١٦٦).

(٢) تقدم تخريجه.

قوله ﷺ: «**من أصاب من ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا، فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله، فأمرُه إلى الله؛ إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه**»[1].

وهذا لا بد معه من التوبة، وليس مجرد إقامة الحد فقط كافيًا في كفارة ذنبه؛ بل لا بد من التوبة مع ذلك، أما أن يقام عليه الحد وهو مقيم على ذنبه، فهذا لا يكون كفارة، ومثل هذا الحديث ما سبق من قوله ﷺ: «**المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده**»؛ يعني: مع ما سبق من الواجبات التي لا بد منها.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٥٩)، كتاب الحدود، باب: الحدود كفارة، ورقمه (٦٧٨٤)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٣٣٣)، باب: الحدود كفارات لأهلها، ورقمه (١٧٠٩).

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ مِنَ الإِسْلَامِ

١٢ ـ **حَدَّثَنَا** عَمْرُو بْنُ خَالِدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ يَزِيدَ، عَنْ أَبِي الخَيْرِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «**تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**».

الشَّرح

• **قوله**: «**إطعامُ الطَّعام**»؛ يعني: للغير، فهذا من فعل السابقين، الذي جعلهم يسبقون غيرهم، ومثله: العافون عن الناس، والكاظمون لغيظهم؛ ابتغاء مرضاة الله، فهذا من الفضائل التي هي من المكملات، وليس من الواجبات، سواء إطعام الطعام، أو إفشاء السلام؛ لأنها تكون من الأمور التي يتميز بها بعض المؤمنين عن بعض.

وهذا أيضًا نص ظاهر في تفاضل الناس في الأعمال، كما أنه ظاهر في أن هذه الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، وبهذا يكون الرد على المرجئة، وهذا مقصود البخاري رحمه الله تعالى وإن لم يصرح؛ فهو يذكر الآيات والآحاديث التي يجب أن تكون هي الدليل، وهي التي يعتمد عليها في هذا وفي غيره.

• **قوله**: «**إطعامُ الطَّعام**»؛ يعني: إطعامه لغيره ممن لا يجب عليه إطعامه، أما من يجب إطعامه، فهذا من باب أولى، إذا فعله خوفًا من الله ممتثلًا لأمره، ولكن هذا قد يكون من باب العادة، فيخلو من النية. ومن باب ما يكون عليه لازمًا.

وهذا مثل ما سبق أن البخاري ينوِّع الأدلة، ويعتمد على قول الرسول ﷺ في البيان والإيضاح، وليس هناك أبين وأوضح من كلام رسول الله ﷺ بعد كلام الله عَزَّ وَجَلَّ.

• **قوله: «أن رجلًا سأل النبي ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»**؛ لأن كثيرًا من الناس لا يُسلِّم إلا على من يعرفه، والذي لا يعرفه لا يُسلِّم عليه، فهذا الوصف ميَّز الذي يسلِّم عمن لا يُسلِّم إلا على من يعرف، وقد لا يسلِّم! وإذا لم يسلِّم هل يقال: إنه آثم؟

لا؛ لأن هذا فضل، إذا فعلتَه صار لك أجر وخير، وإن لم تفعله إما غفلةً أو عمدًا، لا يلزم أن يكون آثمًا.

وبهذا يتبين لنا أيضًا تفاضل الناس؛ فهذا من معنى قوله ﷺ السابق بالآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، ثم ذكر أن هؤلاء الأقسام الثلاثة كلهم في الجنة: الظالم، والمقتصد، والسابق بالخيرات، فهل تكون درجاتهم سواء؟

لا، أبدًا، تختلف اختلافًا عظيمًا، ثم دخولهم لا يكون سواء، الدخول نفسه لا يكون سواء؛ منهم من يدخل بلا عذاب يصيبه، ولا حزن يُلِمُّ به ولا خوف. ومنهم من يناله ما يناله؛ من عذاب، أو تأخُّر، أو غير ذلك، كما هو مقتضى النصوص الكثيرة، ولكن المقصود هنا: أن الأعمال تدخل في مسمَّى الإيمان، سواء كانت الأعمال فرضًا وواجبة، أو أنها فضل وإحسان وخير، هذا مقصود البخاري، وبهذا يكون ردًّا على المرجئة الذين قالوا: لا يضر ترك العمل، إذا حصل أصل الإيمان فلا يضر ترك العمل!

وهذا القول خروج عن مقتضى الإسلام كله؛ فلو أن قريشًا؛ الكفار الذين كان يدعوهم الرسول ﷺ إلى الإسلام، قالوا له: نحن نعرف أنك صادق ونؤمن بذلك، ونصدِّقك ولا نكذبك، ونتبعك على ذلك، ولكن لا نصلي، ولا نزكي، ولا نصوم، ولا نحج، ولا نكف أذانا وضررنا عن المؤمنين؛ بل نقاتلهم، هل يقول: أنتم مؤمنون؟! كلا بل يقول: أنتم كَفَرة فَجَرة، تستحقون عذاب الله في الدنيا والآخرة، هذا مذهب هؤلاء الذين يقولون: لا يضر ترك العمل...

لكن الإرجاء يتفاوت؛ إرجاءٌ هو كفر بالله ﷻ، وإرجاء هو دون هذا؛ أما الذي يُقال: إرجاء الفقهاء، فهو أقل من هذا بكثير جدًّا؛ لأن الفقهاء المقصود بهم فقهاء الكوفة؛ لأن الكوفة فشا فيهم الكذب؛ لوجود الرافضة فيهم، فكثير من العلماء ما كانوا يعرفون أسانيد الأحاديث، وثقات الرجال من غير الثقات، فلجؤوا إلى القياس، وللنظر في العقول ـ في العقل ـ؛ خوفًا أن يقعوا في الأمور التي كُذِبَت على النبي ﷺ.

فقالوا: إن الأعمال لا تسمى إيمانًا، ولكن تاركها مذموم؛ بل معاقَب في الدنيا والآخرة، فإذا كان معاقبًا، معنى ذلك أنه ترك واجبًا؛ ولهذا قال بعض العلماء: الخلاف لفظي. ولكن يكون لفظيًّا في بعض الأشياء، وبعضها ليس لفظيًّا.

قال الإمام البخاري رحمه الله:

بابٌ: من الإيمان أن يُحِبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه

١٣ ـ **حَدَّثَنَا** مُسَدَّدٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَنْ حُسَيْنٍ المُعَلِّم، قَالَ: حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**».

الشَّرح

الحديث أعم من الترجمة؛ لأنه قال في الترجمة: «**من الإيمان**»، والحديث يقول ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» والمعروف في قاعدة الخطاب الشرعي: أنه لا يُنفى شيء من الواجبات إلا لانتفاء ما هو واجب، أو ما هو فريضة.

أقول هذا؛ لأن أكثر الشراح يقولون هذا أو كلهم، إلا ما شاء الله: لا يؤمن الإيمانَ الكامِلَ. وهذا في الحقيقة يجب أن يكون مقيَّدًا، لا يؤمن الإيمان الكامل إلَّا من أحب لأخيه ما يحبه لنفسه.

فإذا أريد بالكامل الكمال الواجب، فهذا نعم يكون صحيحًا، أما إذا قيل: يريد الكمال المستحب، فلا يكون صحيحًا؛ لأنه لا يمكن أن ينفى العموم؛ لأجل انتفاء مستحبٍّ، هذا ما عُهد في خطاب الشرع، فإذَن المنفي هنا شيء واجب، فإما أن يكون انتفاء الإيمان كليًّا، وإما أن يكون انتفاءً للإيمان الذي فيه النجاةُ؛ نجاةُ الإنسان من العذاب.

فإذا لم يكن كذلك فهو معرَّض لعذاب الله ﷻ؛ يعني: إن لم يحبَّ لأخيه ما يحبه لنفسه، يكون مستوجبًا لعذاب الله، إن لم يعفُ الله عنه؛ لأنه ترك واجبًا، وبهذا يتبين أن الإيمان يختلف باختلاف موارده عند الناس؛ فمنهم من يكون إيمانه يقتضي أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ومنهم من

لا يكون كذلك، ويكون هذا إيمانه ناقصًا نقصًا يعذَّب على فعله إن لم يعفُ الله عنه.

والأخ هنا ليس هو أخَا النسب، إنما أخو الدين، ولا فرق بين كونه قريبًا أو بعيدًا؛ لأن المسلم أخو المسلم، مهما كان نوعه وجنسه وبلده، يجب أن يحب له ما يحب لنفسه، ويألم لما يؤلمه؛ لأن المسلمين كالجسد الواحد، كما قال الرسول ﷺ: **«مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مَثَلُ الجسد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»**[1].

فهذا ارتباط ديني، وهو الارتباط الصحيح الذي ينفع، أما ارتباط المنافع، مثل منافع الحياة، ومثل الاشتراك في الوطن، أو في مصالح معينة، أو غير ذلك؛ فهذه تنقطع وتنتهي، لا حقيقة لها فيما بعد، وإنما الرابطة الصحيحة التي تنفع هي رابطة الدين هذه.

ولهذا جاءت خطابات الرسول ﷺ في الدعاء وغيره بالعموم؛ لأنهم شيء واحد، وهذا أمر معروف، وكثير من السطحيين الذين ينظرون إلى المصالح الحاضرة يجعلون الارتباط في البلد، وفي اللغة، وفي المصالح! وهذه لا تفيد شيئًا، إنما هي كمعايشة البهائم، يألف بعضها بعضًا، وإذا انفرد أحدها من الآخر صار له تألُّم وصياح، وهذا يكون مثله!

ولهذا كان الأنصار رضي الله عنهم أبناء رجل واحد، صاروا فرقتين: الأوس والخزرج، فبقي القتال بينهم أكثر من مائة سنة، وبلدهم واحد، ولغتهم واحدة، ونسبهم واحد! فلما جاء الإسلام ودخلوا في الإسلام صار أحدهم يؤثِرُ أخاه على نفسه، كما هو معلوم، وهذا الدليل الواضح في كون الرابطة الصحيحة هي رابطة الدين، وهذا الحديث من هذا القبيل.

والمقصود أن **قوله: «من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**؛ أي: من الإيمان الذي إذا تركه الإنسان يكون إيمانه ناقصًا؛ لأنه جاء **«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»**، ولا يمكن يأتي في الشرع نفي

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين، حديث رقم (٢٥٨٦).

الواجب؛ لانتفاء المستحَب، وإنما يُنفى الواجب لترك بعض أركانه أو واجباته أو لوازمه، هذا هو الذي يدل عليه النص، ويدل عليه العقل، قرَّره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

هنا **قال: «لا يؤمن أحدكم»** لا يؤمن، أليس هذا نفيًا للإيمان؟ **«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»**، والله ﷻ ذكَرَ أن الجنة للذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا، والعلو هو المنفي هنا، أن الإنسان يريد أن يعلو على أخيه، ويكون فوقه، وقد يكون أيضًا من الأعمال القلبية كبائر، بوجودها يُنفى بعض واجبات الإيمان ولوازمه؛ من الحسد والغل، وما يكون أصله في القلب، ثم يظهر على الجوارح، فنُفي بهذا الحديث الإيمانُ عنه.

ثم ضده أيضًا طلب إثباته، ولا يعكِّر على هذا أو ينافيه ما جاء في الحديث: أن رجلًا لما قال الرسول ﷺ في الكبر: **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»**، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنة. قال: **«إن الله جميل يحب الجمال، الكبر: بَطَر الحق، وغَمْط الناس»**[1]، بطره: يعني عدم المبالاة به، وغمط الناس: احتقارهم وازدراؤهم، فهذا هو الذي يجب أن يُنفى عن المسلم.

وكذلك الذي يقول: أنا أحب أن أكون من أحسن الناس لباسًا وهيئة، وكذلك ما يلزم لذلك، هذا ليس معناه أنه طلب أن يعلو على الناس، ولكن أراد أن يكون مع الفضلاء مساويًا لهم، ولا يدخل في هذا إذا تفضل الله ﷻ على إنسان بخير تميَّز به وخصه به؛ أنه يذكره على سبيل التحدث بنعم الله، لا على سبيل الترفع: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١]. ومعلوم أن الإنسان يحب لنفسه كل خير، ولا يحب أن يكون من أدنى الناس ولا من أوسطهم؛ بل يحب أن يكون من خيرهم.

فإذَن محبة الخير عمومًا للمسلمين؛ لأنهم إخْوة، والأُخُوة أخوَّة الإيمان

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٩٣)، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، ورقمه (٩١).

هي اللازمة، وهي الصلة الثابتة التي لا تتغير، بخلاف الأُخُوة للمنافع والمصالح والمناصرات وغير ذلك؛ فهذه تضمحلُّ وتنتهي، ولا تُجزي شيئًا، وربما انقلبت عداوة.

وبهذا يكون دليلًا على تفاوت الناس في الإيمان؛ لأنه ليس معنى هذا أن الذي لا يصل إلى هذه الدرجة يكون الإيمان خرج منه، ولكن معناه ـ كما سبق ـ: أنه ترك بعض واجبات الإيمان التي يتعين أن تكون فيه، فهو تركها، فاستحق بذلك أن يكون أنقص من غيره، والعذاب تبع لهذا، إلا أن يعفوَ الله ﷻ.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: حُبُّ الرَّسُولِ ﷺ مِنَ الإِيمَانِ

١٤ ـ **حَدَّثَنَا** أَبُو اليَمَانِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ، عَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ»**.

١٥ ـ **حَدَّثَنَا** يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ عُلَيَّةَ، عَنْ عَبْدِ العَزِيزِ بْنِ صُهَيْبٍ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، ح، وحَدَّثَنَا آدَمُ قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»**.

الشَّرح

• **قال في هذه الترجمة: حُب الرسول ﷺ من الإيمان.** البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ لم يرتِّب هذه المسائل ترتيبًا منطقيًّا، بمعنى: أنه يأتي بالواجبات واللوازم التي لا بد منها، ثم يأتي بالمستحبَّات بعدها؛ بل جمع الجميع كله؛ لأنه يقصد الرد على أهل البدع، ويقصد أن يبيِّنَ معانيَ الإسلام والإيمان، وكل هذه جاءت عنده بلفظ الإسلام؛ لأنه رحمه الله تعالى كما سبق، يقول: «الإسلام والإيمان شيء واحد»، فإذا تغاير اللفظ فهو مرادف للآخر، والمرادفات باللغة العربية كثيرة جدًّا؛ وذلك أن هذه اللغة أوسع اللغات، فهي واسعة جدًّا، والصحيح ـ كما سبق ـ أن الإيمان والإسلام إذا اجتمعا افترقا، وكان لكل واحد معنًى، وإذا جيء بأحدهما فقط دخل فيه الآخر.

ولهذا فسَّر الرسول ﷺ الإسلام بالأمورِ الظاهرة: شهادةِ أن لا إلَهَ إلا الله

وأن محمدًا رسولُ الله، وإقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، وصومِ رمضان، والحجِّ؛ وفسر الإيمان: بالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر. هذه أمور غيبية، والتي قبلها أمور عملية يعملها الإنسان ويأتي بها، وإن كانت هذه أيضًا عملية، ولكنها بمقتضى الأخبار التي تأتي بهذا.

وكذلك الإحسان: هو أن يبلغ الإنسان الغاية في أداء هذه الأمور، وكل هذه تدلُّ على تفاوت الناس في الإيمان والإحسان، وهذا أمر لا يجوز أن يشك الإنسان فيه، أو أن يكون عنده فيه رَيبٌ؛ لوضوحه وظهوره بالأدلة الظاهرة، وقد يعجب الإنسان لمن يخالف في هذا! ولكن لا عجب في سلوك الناس وتنوُّع أفكارهم؛ لأن الإنسان من أعجب مخلوقات الله في أعماله وتصرفاته، وما يأتي به، سواء كان ذلك من أمور الآخرة وطلب الفوز عند الله، أو غير ذلك؛ ولهذا أخبر الله ﷻ أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم ردَّه إلى أسفلِ سافلين، وهذا الرد يكون في الدنيا، ويكون في الآخرة.

ففي الدنيا قد تكون الكلاب أحسن منه؛ إذا تخلى عن الأخلاق الفاضلة والأمور التي أُمر بها، ولا أقبح منه إذا انخلع من الحياء ومن السلوك الحسن، فهذا في الدنيا، أما في الآخرة فأسفل سافلين في جهنم، يكون مع الشياطين، قرينًا بالشيطان.

وحب الله ﷻ هو أصل الإيمان؛ لأنه هو التألُّه، فلا يمكن أن يكون الإنسان مؤمنًا أو مسلمًا حتى يحبَّ الله حبَّ تألُّه وعبادة، وهو معنى لا إله إلا الله، لا بد أن يكون الله هو المألوه الذي يألهه القلب، ويحبه خوفًا ورجاء وطلبًا، وكذلك تقربًا إليه بكل ما يستطيع من الدعاء وغيره، ولا يُحَبُّ شيء لذاته إلا الله، والناس يتفاوتون في هذا تفاوتًا بيِّنًا، وحب الرسول ﷺ تَبَع لمحبة الله، وهو من لوازم الإيمان التي لا بد منها.

ثم الأمور الأخرى تبع لهذا، يعني: المكمِّلات التي تكمل الإيمان؛ بل واللوازم التي تلزم له، وهناك أمور تُنمِّيه وتَزيده أيضًا، كما تأتي الإشارة إلى هذا.

والفرق بين محبة الله ومحبة رسوله ﷺ: أن محبة الله ﷻ محبة تألُّه

وتعبُّد، أما محبة الرسول ﷺ فهي محبة لله وفي الله، وليست محبة مع الله؛ لأنه لا يجوز أن تكون محبة المخلوق مع الله ﷻ.

في هذا الحديث بيَّن الرسول ﷺ أن محبته يجب أن تكون مقدَّمة على جميع المحابِّ، حتى محبة النفس؛ ذلك لأن الله يحبُّه أكثَرَ من غيره، ومحبَّة المؤمن يجب أن تكون تابعةً لمحبة الله؛ لأن هذه فرع عن محبة الله؛ يعني: محبة الرسول فرع عن محبة الله.

وكثير من الشرَّاح يقولون: إن **قوله: «فوالذي نفسي بيده»**؛ يعني: يقول: «بيده» يعني: بملكه أو بقدرته، هذا من التأويل الفاسد، التأويل الباطل؛ **فقوله: «فوالذي نفسي بيده»** هذا قسم، وكثيرًا ما يقسم رسول الله بمثل هذا، وفيه أن الإنسان يجوز له أن يقسم على الأمور التي يريد تأكيدها ولو لم يُطلب منه ذلك.

والقَسَم معناه: ذكر المُعَظَّم عند الخبر، الذي يقدر على عذاب الكاذب، وإثابة الصادق. هذا هو معنى القَسَم.

فالإقسامات التي جاءت في كتاب الله بالنسبة لربنا ﷻ كلها في المخلوقات التي تدل على قدرته وعلى إلٰهيته، وأن الملك كله له، والله له أن يُقسِم بما يشاء، أما نحن فأُمِرنا أن نقسم بالله أو بصفة من صفاته، كما قال لنا رسول الله ﷺ، وعلَّمنا به.

• **قوله: «والذي نفسي بيده»**، النَّفْس هي الحياة؛ يعني: الذي يملك حياتي، وهو الله ﷻ، وهذا قَسَم، وأصله أن يُقسم على الأمور التي لا يُشَكُّ فيها، وقد يكون سبب القسم أن المخاطب عنده تردد في هذا، أو أنه عنده جهل له، أو أنه يعتقد خلاف هذا، فيُقسِم؛ لتأكيد الخبر، حتى لا يكون عنده في ذلك أي تردد فيه، ويكون جازمًا فيه.

• **قوله: «والذي نفسي بيده»، قوله: «بيده»**؛ يعني: في تصرفه، ولكن لا يقال لأحد: التصرف بيده، إلا إذا كان له يدٌ حقيقية، فيكون هذا دليلًا على إثبات اليد لله ﷻ حقيقة.

• **قوله: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم»**؛ يعني: الإيمانَ الذي يتعيَّن عليه ويجب، ويَسلَم به من العذاب، وليس كما يقول بعضهم: كمال

الإيمان؛ لأن كمال الإيمان هذا يحتمل أن يكون الكمال المستحب، ويحتمل أن يكون الكمال الواجب، فإن أراد الكمال المستحب فهو باطل، لا يجوز؛ لأنه لا يُنفى الإيمان بانتفاءِ مُستحَبٍّ، ولم يُعهَد هذا من الشارع، وإن أراد كمال الإيمان الواجب، فقد يكون أيضًا فيه نظر؛ لأنه لا بد لكل مسلم من محبة الرسول ﷺ.

ودليل المحبة: الطاعة والاتِّباع، أما أن يدَّعي أنه يحبه وهو يخالف أمره ونهيه، ففِعْله هذا يدل على كَذِبه، وأنه غير صادق في محبته.

• **قوله:** «.. **لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ**»؛ يعني: الإيمانَ الواجب عليه، كما سبق.

• **قوله:** «**حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ**»، وفي حديث أنس ﷺ قوله: «**والنَّاسِ أجمعينَ**»؛ فالناس يدخل فيهم المخاطَب، ومعنى ذلك: حتى يكون أحبَّ إليه من نفسه، وجاء التصريح بهذا في الحديث[1].

ثم المحبة المشهورة عند الشراح والمتكلمين أنها الميل إلى الملائم، هكذا يقولون، والمحبة يقولون: كلما شرحْتَها وبيَّنْتَها زاد الغموض فيها! فهي واضحة بلفظها، **ولكن الحب في الحقيقة يقسَّم إلى قسمين:**

القسم الأول: حب خاص يجب أن يكون لله فقط، وهو الحب الذي يتضمن الذل والخضوع والتعظيم، هذا يجب أن يكون لله وحده، لا يكون لمخلوق.

وحب الشيء لذاته لا يكون إلا لله، فهو الذي يحَب لذاته، أما المخلوقات كلها تُحَبُّ لأوصافها؛ يعني: نحن نحب الرسول؛ لأنه رسول الله ﷺ، ولأن الله ﷻ أمر بحبه وأحبه، ولأنه صار إنقاذ الناس ونجاتهم على يديه بفضل الله ﷻ.

---

(١) يشير إلى حديث عمر ﷺ عندما قال مخاطبًا النبي ﷺ: «لَأَنْتَ أحبُّ إليَّ من كل شيء إلَّا من نفسي، فقال النبي ﷺ: «**لا، والذي نفسي بيده، حتى أكونَ أحبَّ إليك من نفسِك**»، فقال له عمر: فإنَّه الآن، واللهِ لأنتَ أحبُّ إليَّ من نفسي، فقال النبي ﷺ: «**الآنَ يا عمر**». أخرجه البخاري، كتاب الأيمان، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، حديث رقم (٦٦٣٢).

أما كونه بشرًا فليس هذا مقتضى المحبة، لكنه من أعظم النِّعَم؛ نِعَم الله ﷻ على الناس، حيث أرسل إليهم رسولًا من جنسهم يخاطبونه ويخاطبهم، ويعرفون صدقه، ويعرفون نصحه وأمانته، وفصاحته وتبليغه، وحرصه على إيمانهم، فإذا كان من جنس الناس وآمنت به هذه الأمة، وجب على الأمم الأخرى كلها الإيمان به، وإن لم يكن على لغتهم.

ثم يجب عليهم أن يتعلموا لغته؛ حتى يعرفوا الرسالة التي جاء بها؛ لأنه لا يمكن معرفة الرسالة إلا بهذا، أما التراجم فتكون لبعض المعاني، وقد تكون غير مطابقة، وغير مأمونة أيضًا، فالإنسان لا يأمن حتى يعرف لغة الرسول وخطابه الذي جاء به.

فنقول: إن الحب **ينقسم إلى قسمين**:

حب خاص: يتضمن الذل والخضوع والتعظيم، وهو حب التألُّه، يكون في القلب حب تأله؛ لأنه ﷻ هو الإله الذي يُحَبُّ ويُخاف ويُرجى، ويَملِك الضر والنفع، ولا يجوز أن يكون لله شريك في هذا الحب، فمن وقع له شركة فيه فقد وقع في الشرك، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ يعني: صار لهم محبة مع الله ﷻ.

ولهذا يسمِّي العلماء محبةَ الله محبةً خاصة؛ يعني تخصُّه؛ لأنها محبة تعبُّد وذل، وخضوع وإنابة، وطلب النفع ودفع الضر، وهذا لا يكون من مخلوق أصلًا، أما محبة الرسول ﷺ فهي محبة لله؛ لأن الله يحبه، ولأن الله أمر بحبه، ولأنه هو السبب في نجاتك من العذاب، وسلوكك طريق الهدى والسعادة؛ فيجب أن يكون حبه مقدمًا على حب نفسك، وولدك ووالدك، والناس أجمعين.

القسم الثاني: **حب مشترك**، وهذا أنواع، ولا ضير على الإنسان فيه؛ كحب الحنوِّ والشفقة، حب الولد، وحب الأُلفة؛ كحب الزميل لزميلِه، والصاحب لصاحبه، وحب طَبَعي من المُخالطة والمُنافعة والأشياء التي تجري بين الناس؛ فهذه تكون حتى بين البهائم؛ لهذا بعض الناس يقول: إن المحبة التي تكون بين الناس لا ضير فيها، حتى بينك وبين الكافر؛ لأن الله ﷻ أخبر

عن الزوج أنه يكون بينه وبين زوجه محبة ومودة، والزوجة قد تكون كافرة، فيتعلقون بها، هذا كلام باطل؛ لأن المحبة في مثل هذا إذا كان فيه مودة؛ مثل محبة البهائم بعضها لبعض، لا فرق بينها، فإنما يجب أن يكون المؤمن يبغض الكافر لكُفْره، ثم إن الذوات كما سبق أنها لا تُحَبُّ الأشياء لذواتها، وإنما تُحَب لأوصافها؛ لهذا قلنا: الذي يُحَبُّ لذاته هو الله فقط لا غيره.

فالمقصود: أن المحبة المشتركة أنواع حسب مصالح الناس، وهذه يجب أن تكون خاضعة لما جاء في الكتاب والسُّنَّة، إلا إذا كان الأمر أمرًا طبيعيًّا فقط، لا ثواب فيه ولا عقاب، فمحبة الرسول ﷺ محبة لله وفي الله، ولا يجوز أن يكون محبة مع الله؛ لأن المعية هذه تقتضي المشاركة، ومحبة الله خاصة به كما سبق، هذا أمر لا بد منه.

فإذَن قوله ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»؛ يعني: المحبة التي يملكها الإنسان يجب أن تكون هكذا، والمحبة التي أُمرنا بها، أما المحبة التي هي تألُّه وذل وخضوع فلا يجوز أن تكون لا للرسول ولا لغيره، يجب أن تكون لله وحده، ولكن محبة الرسول ﷺ مقدَّمة حتى على محبة النفس؛ وذلك لما جاء به من الهدى الذي لولا ذلك لكان الإنسان من حَطَب جهنم! ولأن الله ﷻ يحبُّه أكثَرَ من غيره، فهو أحب الخلق إليه، وقد اتخذه خليلًا.

ثم الله ﷻ يُحَب ويُحِب، وكلا الأمرين قد أنكره المتكلمون، وهذا من العجائب! لأن الذي ينكر محبة المخلوق لله، معناه: أنه ما عرف معنى لا إلٰه إلا الله، ولا تحلى بذلك، والسبب في هذا أنهم قالوا: إن هذا فيه اشتراك وفيه تشبيه، والتشبيه كفر، فأُتُوا من هذا القبيل؛ لأنهم لم يفهموا قول الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

فليس كمثله شيء؛ لا في صفاته ولا في أفعاله، ولا في ذاته ولا في ملكه، ولا في حقه، هذه أمور أربعة: أسماؤه، وصفاته، وذاته، وملكه وحقه، كلها خاصة به؛ فالمحبة مثل غيرها من الصفات، فالله يحِبُّ، ولكن

حبه ليس كحب المخلوق الذي هو الميل إلى الملائم، وكذلك الغضب والرضا، وغيره من الأمور الأخرى.

وفي الحديث وجوب تقديم محبة الرسول ﷺ على كل محبوب، حتى نفس المخاطب، كما سيذكر.

ومقتضى هذه المحبة تقديم أقواله على أقوال غيره، وتعظيم أمره على أمر غيره، كما قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فهذه علامة المحبة الصادقة؛ أن يعظِّمَ سُنَّته ويقدِّمَها على كل قول وكل أحد، أما إذا ادَّعاها وهو يخالف ذلك، فهذه دعوى.

المقصود في المحبة: أنها محبة خاصة، ومحبة مشتركة؛ مشتركة بين الخلق، والخاصة: هي محبة الله، ثم محبة الله لها لوازم، ومن لوازمها محبة الطائعين، ومحبة الرسول مقدَّمة على هذا كله، لا بد منها كما سبق، «**حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ**»، وفي لفظ آخر: «**والناسِ أجمعينَ**».

وجاء أيضًا في الصحيح أن عمر رضي الله عنه قال له: لأنتَ أحبُّ إليَّ من كل شيء، إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: «**لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك**» فقال له عمر: فإنه الآن، والله لأنْت أحب إليَّ من نفسي. فقال النبي ﷺ: «**الآن يا عمر**»[1]؛ يعني: الآن وصلتَ إلى الواجب الذي يجب عليك ولا بد منه.

ثم إن الله ﷻ بيَّن أن المحابَّ التي يحبها الإنسان يجب أن تكون كلها بعد محبة الله ومحبة رسوله، ولا يكون مقدِّمًا له، كما قال ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

فهذه الثمانية أشياء المذكورة في الآية هي عبارة عن الدنيا وما فيها،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/١٢٩)، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، ورقمه (٦٦٣٢).

فمن كانت هذه أحب إليه من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله، فلينتظر ما يحل به؛ فإنه من الفاسقين، وفي هذه الآية جمع الله ﷻ بين حبه وحب رسوله، وكذلك حب أمره. وجهاد في سبيله: يدخل فيه جميع الطاعات، واجتناب المعاصي كلها.

ومعلوم أن كثيرًا من المسلمين لا يكون بهذه الصفة، فهل يقال: إنهم لم يأتوا بالإسلام؟ لا، وإنما يقال: إنهم قصروا في هذا، فهم معرَّضون لعذاب الله، إن لم يعفُ الله عنهم عذَبهم، ثم يكون مآلهم إلى الجنة بعد العذاب، وهذا مثل ما سبق.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ: حَلَاوَةِ الإِيمَانِ

١٦ ـ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ المُثَنَّى، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَهَّابِ الثَّقَفِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَيُّوبُ، عَنْ أَبِي قِلَابَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: **«ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»**.

الشَّرح

• **قوله: «بَابُ حَلَاوَةِ الإِيمَانِ»**؛ يعني: أن الإيمان له حلاوة يجدها الإنسان، وقد لا يجدها، بهذا يتبين تفاوت الناس في الإيمان، والبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ أراد أن يبين ـ على حسب ما ذهب إليه ـ أن الإيمان والإسلام سواء؛ لأنه عبر بالإسلام، ثم عبر بالإيمان، حسب النصوص، وسبق أن الصحيح أن فيه تفاوتًا؛ جمعًا بين الأدلة، كما سبق.

ولهذا قال: «بَابُ حَلَاوَةِ الإِيمَانِ»، والحلاوة ليست كما يقول بعض المتكلمين هي حلاوة عقلية؛ يعني: يدركها في عقله فقط، هذا خلاف الحديث؛ لأنه يقول: وَجَد، **«وجد حَلَاوَةَ الإِيمَانِ»**، فمعنى ذلك: أنها حلاوة توجَد، وقد لا يجدها العبد.

• **قوله: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ»**، و«كنَّ»؛ يعني: وُجِدْنَ، وكان هنا لا تحتاج إلى اسم ولا خبر؛ لأنها تامة، **«ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فيه»** يعني: وُجِدْن فيه **«وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ»**؛ يعني: بهذه الثلاث.

ثم فصَّلها وبيَّنها، **قال: «أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»**.

• **قوله**: «**ثلاثٌ**» هذه نكرة، وأهل اللغة يقولون: لا يجوز الابتداء بالنكرة، ولكن هذه مفيدة، هذا مثل ما يقول الإمام ابن مالك:

ولا يجوزُ الابتدا بالنَّكِرَهْ ما لم تُفِدْ؛ كعِندَ زَيدٍ نَمِرَهْ[1]

فإذا أفادت جاز، وهذه مفيدة؛ لأنها موصوفة.

• **وقوله**: «**وجد حلاوة الإيمان**» هي حلاوة حقيقية، ولكنها في القلب، ليست في الذوق؛ في ذوق الفم، وقد تكون هذه الحلاوة أشد من الحلاوة التي يتذوقها بفمه، كما كان موجودًا عند الصحابة رضوان الله عليهم.

ومثال ذلك: قصة الحارسينِ اللذين عيَّنهما رسول الله ﷺ للحراسة في بعض مغازيه، لما نزل في منزل في الليل، قال للصحابة: «**أيُّكم يحرسنا هذه الليلة؟**» انتدب اثنان؛ أحدهما مهاجري، والآخر أنصاري، قالا: نحن نحرسكم، فعيَّن لهما مكانًا، فلما ذهبا إلى المكان المعيَّن قال أحدهما للآخر: إمَّا أن تكفيني أول الليل، وأكفيك آخره، أو أكفيك أوله وتكفيني آخره؟ فقال: اكفِني أوَّلَه، وأنا أكفيك آخره، فقام يصلي، فجاء مشرك يريد أن يأخذ ثأره؛ لأنهم أصابوا منهم ما أصابوا، فرأى شخصه وهو قائم يصلي، فأطلق عليه السهم، فأصابه، فنزع السهم من بدنه واستمر في قراءته، فأطلق عليه مرة أخرى، فنزعه كذلك واستمر في قراءته، وفي الثالثة أيقظ صاحبه، فلما استيقظ صاحبه إذا الدماء تسيل منه، قال: لِمَ لمْ تخبرني من أول الأمر؟! قال: كنت في آيات كرهتُ أن أقطعها قبل أن أنهيَها، واللهِ لو لم أخَفْ على المسلمينَ لم أوقِظْك!

يعني: تحمَّل ضرب السهام وإسالة الدماء؛ لحلاوة القراءة والخطاب، هذه هي الحلاوة المقصودة المطلوبة؛ حلاوة الإيمان، ليست حلاوة الطعام؛ بل أحلى منها وأعظم!

انظر كيف استلذَّ كلام الله والمتابعة لخطابه، ونسي الألم في جسده من أجل ذلك؟! هذا من حلاوة الإيمان، وهذا كثير فيهم.

---

(١) ألفية ابن مالك (ص١٧).

ولهذا كانوا يصفُّون صفوفًا مرتصَّة أمام العدو، كما أمرهم الرسول ﷺ، فإذا أصيب أحدهم هنَّؤوه، قالوا: هنيئًا لك الشهادة! كل واحد يوَدُّ أنه هو الذي أصيب، وهذه أيضًا منها.

فالمقصود: أن الذين يقولون: هذه حلاوة عقلية، مثل كون الإنسان المريض يشرب الدواء المستكرَه لمرارته أو لطبعه، فإنه يُقدِم عليه ويأخذه؛ لما يؤول إليه من الشفاء! هذه يقولون: حلاوة عقلية! والصحيح أن هذه الحلاوة حلاوة حقيقية وجودية، تكون أحلى من العسل عند الذين يتحلون بالإيمان الكامل.

وهذا يدل على أن الإيمان له حلاوة حقيقية، وأن المسلم قد يذوقها، وقد لا يذوقها، وهو دليل على تفاوت الإيمان وزيادته ونقصانه، واختلاف الناس فيه؛ فمنهم من يكون قد استكمله، ومنهم من يكون دون ذلك، ومنهم من يكون الإيمان ضعيفًا عنده لا يجد حلاوة الإيمان هذه.

وحال الصحابة ﷺ أجمعين يدل على هذا، وكذلك حال غيرهم ممن تحلى بالإيمان حقيقة؛ فلهذا تجده يستلذ المصائب والمؤلمات في طاعة الله وطاعة رسوله؛ لأنه في الواقع ينسى الألم عندما يكون متصفًا بالإيمان الكامل، في طاعة الله وطاعة النبي ﷺ.

• **قوله**: «**أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا**» **هذه الأولى**، وهذا لا يعني أن محبة الله ومحبة الرسول تتساوى؛ لأنه ـ كما سبق ـ محبة الله محبةُ عبادة وتألُّه وذل، وخوف ورجاء، وطلب منفعة، ودفع مضرة، لا بد، أما محبة الرسول فهي تَبَع لهذه المحبة مكمِّلة لها؛ يعني: يحبه في الله، كما سبق؛ لأن الله يحبه، فهو يحبه من أجل هذا، وللأسباب التي حصلت به صلوات الله وسلامه عليه.

• **قوله**: «**مما سواهما**» جَمَع الضمير هنا: ضمير الله وضمير الرسول، وقد جاء في «صحيح مسلم»: «أن رجلًا خطب عند النبي ﷺ، فقال: من يُطِعِ اللهَ ورسوله فقد رشَد، ومن يعصِهما فقد غوى. فقال رسول الله ﷺ:

«**بئسَ الخطيبُ أنت! قل: ومن يَعْصِ اللهَ ورسولَه**»[١]، فنهاه عن جمع الضمير، وأحاديث الرسول لا تتضارب ولا يعارض بعضها بعضًا.

وقد جمع العلماء بين الحديثين: بأن الحديث الذي في «صحيح مسلم» من باب الكمال والاستحباب، وهذا من باب الجواز؛ هذا يكون جائزًا، والأول أكمل. **هذا جواب**.

والذي تدل عليه النصوص أن هذا من باب الأدب والكمال، والأدب ألا يُجمَع الضمير، ولكن إذا جمعهما جاز، أما من يقول: إن كونه يجمع بين الضميرين، من خصائص الرسول. فهذا بعيد؛ لأن الخصائص تحتاج إلى دليل.

الجواب الثاني: أن هذا نَسَخ الأول، ولكن هذا يحتاج إلى دليل أيضًا، ولا دليل على تقدُّم هذا عن هذا.

والجواب الثالث: أن هذا في المعصية، وهذا في الطاعة، ولكن هل يكون فرق بين جمع الضمير في المعصية والطاعة؟ يقولون: الفرق لأن المعصية تكفي في معصية الله أو معصية الرسول، فيقال لهم: كذلك الطاعة؛ من أطاع الله فقد أطاع الرسول لا بد، فما يكفي هذا الجواب، ليس هذا جوابًا سديدًا، **فالجواب الأول هو الصواب، هو الصحيح**. والله أعلم.

الثانية: **قوله**: «**وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ**»؛ يعني: لا يحبه لدنيا ولا لكونه صار آلفًا وآنسًا له؛ من زمالة ومصاحبة وما أشبه ذلك من الأمور التي يكون فيها نفع عاجل، أو عادة اعتادوها، وإنما يكون ذلك لأجل أنه مطيع، ولو لم يكن موافقًا له فيما يألفه وما يكون من أمور الدنيا، وعلامة ذلك أن هذه المحبة لا تتغير بالبعد والقرب، وكونه مثلًا ينفعه أو لا ينفعه، تكون ثابتة لا تتغير؛ لأنها ليست لأمور الدنيا، وإنما هي لله، ما دام مطيعًا لله فالمحبة ثابتة.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٥٩٤)، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، ورقمه (٨٧٠).

فهو يحبه لله، ليس لذاته، ولا لما يصدر منه من الأمور الأخرى، ثم لا يوجد في الكون كله شيء يحَبُّ لذاته إلا الله ﷻ، أما في المحابِّ الأخرى فهي لأجل ما يصدر منه؛ إما لأجل المنفعة، أو لأجل أنه طائع لله، أنه مطيع، أو لأجل أنه أُمِرَ بحبه، وهذا داخل في الطاعةِ؛ طاعةِ الله ﷻ، وغير ذلك، أما الذي يحَبُّ لذاته فهو الله وحده ﷻ.

الرسول ﷺ يُحَبُّ؛ لأنه رسول، ليس لأنه بشر؛ بل لأنه رسول صلوات الله وسلامه عليه، حتى لا يقول الإنسان: إذَن كيف نحب الرسول؟ يحبه لأجل هذا؛ لأنه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

ثم الحب يحتاج إلى تفسير، هل الحب هو الملاءمة أو الموافقة في الشيء؟ أن توافق هذا في هذا، أو أنه حصول منافع؟

ليس هذا كله، الحب غير هذا كله؛ فهو عمل القلب الذي يقع فيه ولا يخرج منه، والحب يتفاوت فيه كما سبق، قد يكون حب تأله، وهذا إذا كان لمخلوق فهو شِرك؛ بل قد يكون خارجًا من الدين نهائيًا، مثل الذي يحب صورةً أو يحب امرأةً أو غيرها؛ لشهوات وغيرها، فيقدِّم ذلك على طاعة الله وأمْرِه.

وهذا قد يكون شِركًا بالله ﷻ. نسأل الله العافية. وقد يقع لكثير من الناس، حتى يقول: وإن دخلت النار. فبئس الحال! نسأل الله السلامة.

ثم يلزم من هذا بغض من كان عدوًّا لله ﷻ، فلا بد أن يبغضه ويعاديه؛ لأنه لا يمكن أن يكون المحبُّ يحب عدو المحب.

الثالثة: قوله: «أن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار» هل هناك أشد كراهة للعبد من كراهته أن يُقذف في النار؟ هذا غاية الكراهة، فهو يكره العود للكفر، والعود لا يلزم أن يكون أنه نشأ في الكفر؛ لأن العود قد يقال فيمن يفعل الشيء ابتداءً.

وذكر كثير من المفسرين في قوله ﷻ في قصة شعيب لما قال له المستكبرون من قومه: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى

مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩] فلا يلزم أن يكون شعيب عليه السلام على ملة الكافرين قبل هذا، مع أن هذه المسألة فيها خلاف بين العلماء.

وهذا دليل واضح في تفاوت المؤمنين في الإيمان، كما أنه دليل واضح في دخول أعمال الجوارح وأعمال القلوب في مسمى الإيمان، كما سبق بيانه.

فالأول الذي مضى في أعمال الجوارح؛ اللسان والبدن وغيره، وهذه في أعمال القلب، فإذَن كلها تدخل في مسمَّى الإيمان، وكلها تتفاوت بين المؤمنين، بعضهم يكون فيها أكمل، وكلها أيضًا ردود على المخالفين في هذا.

وهذا بإجماع أهل السُّنَّة أنها داخلة في مسمى الإيمان، وأنها أيضًا واجبة، وأن الناس يتفاوتون فيها؛ فمنهم من يقوم بتكميلها وإتمامها، ومنهم من لا يصل إلى ذلك، ومع ذلك كله لا يلزم أن يكون مَن لم يكملها معذَّبًا.

والمقصود: أن هذه الثلاثة التي ذكرها الرسول ﷺ **«أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا»** مطلقًا، مثل ما مضى؛ حتى يُدخِلَ في هذه نَفسَه.

«وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ» فقط، ليس لأجل أموال تُبذَل، أو مصالح مشتركة، أو قرابة، أو ما أشبه ذلك من مناصرة وغيرها، وإنما يحبه؛ لأنه مطيع لله ﷻ فقط. وهذا معناه أنه لا يتأثر هذا الحب لا بالبعد ولا بالقرب، ولا بالبذل والعطاء ولا بالمنع؛ لأن الحب ليس لهذه الأمور، إنما هو لله ﷻ، وهذا الفرق.

قوله: «وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»، والعَود قد يكون عودًا يُفهَم منه الرجوع إلى ما كان، وقد يكون العود ليس المقصود به أنه كان قبل ذلك على هذا الشيء؛ بل أنه يخرج من هذا إلى شيء آخر؛ يُطلَق على هذا وعلى هذا.

فيكره أن يصير كافرًا أشد من كراهته لأشد الآلام وأعظمها، وهو أن يُقذَفَ في النار! نسأل الله العافية، فإذا كان بهذه المثابة فهو قد تحلى بالإيمان وذاق طعمه.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: عَلَامَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ

١٧ ـ **حَدَّثَنَا** أَبُو الوَلِيدِ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَبْرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**آيَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ**».

الشَّرْح

• **قوله**: «**بَابٌ: عَلَامَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ**». هذا زائد على ما تقدم؛ لأن الأنصار هم أنصار الدين، أنصار الله ورسوله، فيجب أن يكون لهم خصوصية ليست لغيرهم، والمهاجرون مقدَّمون عليهم، وهذا داخل فيما سبق؛ كون الإنسان يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، لكن إذا كان الرجل له أثر كبير في دين الله ﷻ وفي نصرته والقيام به، فإنه يُحَبُّ أكثر؛ من أجل هذا الأمر. وإذا وُجِد الضِّدُّ فهذا دليل على النفاق؛ ولهذا جعل بغضهم نفاقًا، والنفاق هو إبطان الشر وإظهار خلافه، هذا شأن المنافقين.

والأنصار مأخوذ من النُّصرة، وهم الذين نصروا الله ورسوله على الكفر والمحاربين لرسول الله ﷺ ولدينه الذي جاء به، وهو اسم محبوب؛ لأنه اسم شرعي أثنى الله ﷻ على أهله، وكذلك رسوله ﷺ، والمهاجرون كذلك.

والآية: هي العلامة، **آيةُ** كذا؛ يعني: علامته، **وقال**: «**آية الإيمان**»؛ يعني: علامة وجوده عند الإنسان: أن يحبَّ الأنصار، وعلامة النفاق: البغض؛ بغضُ الأنصار.

ثم يتبع هذا المعاني التي تلحق بهذا ولا بد، كل من اتصف بالنصرة والقيام بالحق يجب أن يُحَب، كما يُحَب الأنصار، وإن وُجد التفاوت؛ فالصحابة رضوان الله عليهم لا يساويهم غيرهم؛ لأن الله اختارهم لصحبة نبيّه ﷺ، وجاءت النصوص بهذا، يقول ﷺ: «**خير الناس قرني، ثم الذين**

يلونهم، ثم الذين يلونهم»[(١)]. وفي رواية لمسلم: **«خير أمتي القرن الذين بُعِثْت فيهم، ثم الذين يلونهم»**[(٢)]؛ يعني: الذين آمنوا بالرسول ﷺ وجاهدوا في سبيل الله، أما الذين كفروا به فهم شر الناس.

وهذه الخيرية مطلقة، قال: **«خير الناس»**، فإذَن الصحابة هم أفضل الخلق مطلقًا بعد الأنبياء، وأفضل المسلمين مطلقًا بعد الأنبياء، والأنبياء مقدَّمون على هذا لا شك، ثم إن المهاجرين الأولين مقدَّمون على الأنصار، كما هو معلوم.

• **قوله: «آية الإيمان»**، الإيمان يكون باطنًا ويكون ظاهرًا، ودخل فيه الإسلام؛ بل دخل فيه الدين كله.

أما النفاق يقول أهل اللغة: إن النفاق ما كان معلومًا في اللغة العربية، وهو من الأمور التي جاء الرسول ﷺ بالتحذير منها، ولكن يقول بعضهم: إنه أُخِذ من عمل اليَرْبوع، فيسمَّى عملُه نِفاقًا.

بل لا يحتاج أن يقولوا هذا، فهذا أمر مشاهَد، يحفر بيته ثم يفرِّق التراب؛ لئلا يُعلَم مكان البيت، ثم إذا انتهى من البيت ذهب إلى آخره، ثم صار يحفر إلى العلو، حتى ما يبقى إلا قشرة الأرض السهلة، بحيث أنه إذا ضربها برأسه تنفتح، ثم يسد الباب بالتراب، فإذا أتاه شيء من باب جُحره ضرب برأسه هذا المكان الذي أعدَّه لذلك وهرب!

هذا معلوم معروف؛ لأن هذه الحيلة حيلته؛ لأنه يُعرَّض للأكل والأخذ، وهو ليس كغيره من الصيد الذي يهرب ويطير، إذا وجد يمكن يأخذه الإنسان؛ يمسكه، فاحتال بهذه الطريقة التي أرشده الله إليها لحمايته، وكل شيء

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٧١)، كتاب الشهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور إذا أُشهد، ورقمه (٢٦٥٢)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٦٣)، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، ورقمه (٢٥٣٣). وفي لفظ لمسلم: **«خير أمتي التي بعثت فيهم»**.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٦٣)، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، ورقمه (٢٥٣٣). وفي لفظ لمسلم: **«خير أمتي التي بعثت فيهم»**.

خلقه الله تعالى أعطاه ما يهتدي به في حياته. فالنفاق هو مأخوذ من بابه الأول الذي يسمَّى القاصعاء، وهذا الذي أرهفه وأعدَّه للخروج يسمى النَّافقاء، فهو خفي، لا يُدرى عنه؛ لأن ظاهره هذه الأرض الطبيعية، لا فيها لا حفر ولا غيره، يكون النفاق أُخِذ من هذا المعنى؛ لأن المنافق يُظهِر خلاف ما يبطن، فهو أظهر الموافقة وأبطن المخالفة، وهو إظهار الخير وإبطان الكفر والشر.

والنفاق من أضر الأمور على المسلمين والإسلام؛ لأن المنافق يكون مع المسلمين ويطَّلع على خفايا الأمور، وعلى عوراتهم وعلى ضعفهم، فيدل العدو على ذلك.

ولهذا حذر الله منهم كثيرًا، ووصفهم أوصافًا كثيرة؛ ففي سورة البقرة ذكر المؤمنين بثلاث آيات في أولها، ثم ذكر الكافرين بآيتين، ثم ذكر المنافقين بثلاث عشرة آية! وجاءت سورة التوبة كلها فيهم، وسورة المنافقون، وغيرها من السور كثير، وأخبر ﷺ أنهم أصحاب لسان وأصحاب مناظر وأُبَّهات، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]؛ يعني: ذوي فصاحة وبلاغة.

والنفاق ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: نفاق عملي.

القسم الثاني: نفاق اعتقادي.

والنفاق العملي خمسة أقسام، مخالفة الظاهر؛ يعني: إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا اؤتُمن خان، وإذا وعد أخلف، وهذه الأمور إذا اجتمعت في إنسان فلا بد أن يكون منافقًا خالصًا.

والنفاق الاعتقادي ستة أقسام، كل واحد من هذه الأقسام إذا وجد واحدة في إنسان فهو نفاق أكبر، إذا مات عليه فهو في الدرك الأسفل من النار، وهو تكذيب الرسول ﷺ، أو تكذيب بعض ما جاء به، أو بُغض الرسول ﷺ، أو بُغض ما جاء به، أو الفرح بعلو الكفر على دين الإسلام، أو

الحزن في انتصار الدين وعلوه على الكفر، إذا وُجد واحد من هذه في إنسان فهو المنافق النفاقَ الاعتقادي.

والمقصود بهذا: أن حبَّ الأنصار رضوان الله عليهم «**آية الإيمان**»، ومثلهم المهاجرون بلا شك، ومثلهم كل مناصر للدين وقائم به، هذه ليست خاصة بهم، ولكنْ هم المقدَّمون في هذا، وكذلك عكسه، بُغْض من كان بهذه الصفة.

ومعنى ذلك: أن الإيمان يكون فيه إثبات ونفي؛ يعني: فعلًا وتركًا؛ الترك يدخل فيه بغض المعصية وأهلها، بغض المعاصي وأهلها، والفعل يدخل فيه محبة الطاعة وأهلها، وأولها حب الله ﷻ كما سبق، وكل هذا على ما سبق أنه يدل على أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، وأن الناس يتفاوتون فيها، ففيه أيضًا الرد على المخالفين في هذا.

قال الإمام البخاري رحمه الله:

بَاب

١٨ ـ حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو إِدْرِيسَ عَائِذُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ، أَنَّ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ رضي الله عنه، ـ وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا وَهُوَ أَحَدُ النُّقَبَاءِ لَيْلَةَ العَقَبَةِ ـ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ، وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: «بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللهُ فَهُوَ إِلَى اللهِ؛ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ». فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ.

الشَّرح

• **قوله: «وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا وَهُوَ أَحَدُ النُّقَبَاءِ لَيْلَةَ العَقَبَةِ»** عبادة بن الصامت رضي الله عنه من سادة الصحابة وعلمائهم، وليس فيم دنيٌّ رضي الله عنهم أجمعين.

• **وقوله: «أن رسول الله ﷺ قال وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ»**، معلوم أن الرسول ﷺ إذا خاطب جماعة أو فردًا من الناس، فهو خطاب لجميع الأمة إلى يوم القيامة.

• **قوله: «وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ»** العصابة: تدل على أنهم قلة قليلون، مع ذلك هو خطاب لأمته كلها.

• **قوله: «بَايِعُونِي»** وطلبوا منه صلوات الله وسلامه عليه مبايعته، والمبايعة الصحيح أنها أُخِذَت من الباع، والباع: هو ما بين منتهى اليدين إذا مُدَّتا من أطراف الأصابع إلى أطراف الأصابع، والأصل في هذا أنهم كانوا يمدُّون أيديَهم عند المبايعة ويتعاقدون على العهود.

وهذه المبايعة مبايعة لله ﷻ؛ لأن الذي يبايع الرسول كأنما بايع الله ﷻ، ثم هذه تدل على التأكيد؛ تأكيد المذكور هنا أنه أمر لا يجوز الإخلال به، ويجب الوفاء به.

• **قوله**: «**عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا**» قد يتساهل بعض الناس في هذه الكلمة، «**أن لا تشركوا بالله شيئًا**»، وهي كلمة عظيمة في الواقع؛ لأن «**شيئًا**» هذه نكرة، يدخل تحتها الصغير والكبير، والقليل والكثير، ومعلوم أن النفس لها مرادات وأمور كثيرة يدخل فيها أعمال النيات وما في الضمائر، كما يدخل فيها الأمور الظاهرة، ومعنى ذلك: أنه يجب أن لا يكون عند العبد شرك لا ظاهرًا ولا باطنًا، ولا قليلًا ولا كثيرًا؛ لهذا الذي يَسلَم من الشرك كله؛ دقيقه وجليله، وظاهره وباطنه: يكون ممن يسبق إلى الجنة بلا حساب، فهو الذي يأتي ربه بقلب سليم.

«**أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا**»، شيئًا: نكرة يُقصَد بها المشرَك به، فيدخل فيه الأعيان، ويدخل فيه المعاني، وأقصد بالأعيان الشيء المعيَّن الذي يُتجه إليه، سواء كان عاقلًا؛ وليًّا أو نبيًّا، أو غير ذلك من الجمادات والمخلوقات، ويدخل فيه الأمور المعنوية، مثل: الهوى، والمناصب، ومطالب الدنيا، وأمور كثيرة، فـ«**شيئًا**» نفي لهذه كلها.

ثم عطف على ذلك «**وَلَا تَسْرِقُوا**»، السرقة أسهل من هذا بكثير، ولكنها أيضًا جريمة، والسرقة هي اختلاس أموال الناس المحفوظة، وأخذها بدون رضا، وقد تكون السرقة أيضًا فيما بينك وبين ربك؛ ولهذا جاء في الحديث: «**أسوأ الناس سرقةً الذي يسرق صلاته**»[1].

فإذَن يدخل فيه حقوق العباد وحقوق الله ﷻ في هذا، وهو ألا يأتي بها مع قدرته على ذلك.

• **قوله** ﷺ: «**بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا...**» إلى

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٢٣٣)، وأحمد في مسنده (٣٧/ ٣١٩). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٣٠٠): «رواه أحمد، والطبراني في الكبير والأوسط، ورجاله رجال الصحيح».

آخره: يدل على أن الإيمان يتفاوت؛ فالأنصار سبق أن بايعوه، وهذه مبايعة أخرى، إما على التأكيد لما سبق، أو للخصوصية التي خُصوا بها، فيصبح مقصود البخاري أنهم خُصوا بشيء عن غيرهم؛ ولهذا أمرهم أن يبايعوه مرة أخرى أو ثالثة؛ لأجل هذه الخصائص، فيجب أن يُخَصُّوا بالحب أكثر من غيرهم.

• **قوله**: «**وَلَا تَزْنُوا**» وهذا أيضًا من المفاسد ومن الجرائم؛ لأن هذا فيه إفساد للنفس، وإفساد للنسب، وإفساد للغير؛ فهو من العظائم.

• **قوله**: «**وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ**» ومعلوم أن هذا ليس له مفهوم؛ أي: لا يقتصر على قتل الأولاد؛ بل القتل مطلقًا.

والقتل قد يكون مقرونًا بالشرك، وهو من عظائم الأمور، حتى قال ابن عباس وغيره: «إن القاتل عمدًا لا توبة له»، فجاءت أحاديث في تعظيمه كثيرة، وكذلك آيات في كتاب الله، ومنها قوله ﷻ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣]، هذا وعيد ما جاء مثله في كثير من الذنوب، نسأل الله العافية.

وقول ابن عباس: «إنه لا توبة له» له وجه صحيح في الحقيقة، وقد بيَّنه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ وقال: **القاتل يتعلق فيه ثلاثة حقوق:**

الأول: حق لله ﷻ، وهذا يسقط بالتوبة مع الكفارة، ولكن العمد ليس فيه كفارة، العمد لا كفارة فيه؛ لأنه أعظم من أن يكفِّر، ولكن إذا تاب لعلَّ الله يقبل توبته.

الثاني: حق للأولياء؛ أولياءِ المقتول، وهذا يسقط: إما بالقِصاص، وإما بأخذ الدِّيَة، وإما بالعفو.

الثالث: وهو حق المقتول، هذا لا حيلة فيه، فلا بد أن يقف هو ومن قتله بين يدي الله، فيحكم الله بينهما، وأول ما يُقضَى بين الناس الدماء.

وقد جاء أن المقتول يأتي حاملًا رأسه، ممسكًا بقاتله، كما في قوله ﷺ:

«**يجيء القاتل، والمقتول يوم القيامة متعلقٌ برأس صاحبه، يقول: ربِّ سَلْ هذا لمَ قتلني؟**»[(١)]، الله علَّام الغيوب لا يخفى عليه شيء.

وفي النسائي وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «**كل ذنب عسى الله أن يغفره، إلا من مات مشركًا، أو من قتل مؤمنًا متعمِّدًا**»[(٢)].

جاء أن «**من قتل معاهَدًا لم يَرَحْ رائحة الجنة**»[(٣)] كما في البخاري وغيره، هذا إذا كان معاهَدًا كافرًا، فكيف إذا كان مسلمًا؟! لم يَرَح رائحةَ الجنة، ورائحة الجنة توجد من مسيرة أربعين سنة، والأحاديث في هذا كثيرة جدًّا.

ولهذا **قال**: «**وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ**»، وذلك أن قتل الأولاد كان معروفًا في العرب، أو طوائف منهم، يقتلونهم **لأمرين**:

إما خوفًا من الفقر، وإما خوفًا من العار كما يقولون!

والعار يعني: إذا كانت بنتًا، يخافون أنها تُسبَى أو أنها يُفجَر بها، فيكون معرَّة عليهم، فيقتلونها صغيرة، وهي المؤودة التي ذكرها ﷻ أنها سوف تُسأَلُ ما ذنبها؟ ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير: ٨، ٩] إذا كانت هي تُسأل، فكيف بالقاتل؟! فالقتل كله عظيم؛ ولهذا **قال**: «**وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ**».

«**وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ**» هذه كلمة عامة شاملة، «**وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ**» البهتان: هو الذي يَبهَت من قوبل به؛ لأنه لم يكن له به علم، انبهت لما سَمِع هذا، ما كان سبق له فيه فكر ولا علم ولا غير ذلك.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٣/ ٦٤١)، كتاب الديات، باب هل لقاتل مؤمن توبة؟ ورقمه (٢٦٢١).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/ ١١٢)، وأبو داود في سننه (٦/ ٣٢٥)، كتاب الفتن، باب تعظيم قتل المؤمن، ورقمه (٤٢٧٠)، والنسائي في الصغرى (٧/ ٩٣)، كتاب تحريم الدم، ورقمه (٣٩٥٥).

(٣) تقدم تخريجه.

وهذا يدخل فيه حقوق العباد وحقوق الله ﷻ، كلها داخلة في هذا، وتفاصيل هذا كثيرة جدًّا، فهو من الجوامع.

• **وقوله: «بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ»** هذا يراد به الإقدام على الشيء بعلم، أنتم تعلمون ذلك وتعرفونه.

• **وقوله: «وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ»**؛ يعني: هذا الكلام يقوله رسول الله ﷺ، فهو يدل على أن الطاعة كلها يجب أن تكون لله، وإنما يطاع الآمر إذا كان أمر بأمر الله.

والمعروف هو الذي أمر الله ﷻ به، وما نهى عنه فهو غير معروف، ثم **قال: «فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ»** هذه البيعة **«فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ»** لم يعيِّن أجرًا يكون مقابلًا لهذا، **قال: «أجره على الله»**، وهذا قد يكون فيه تعظيم لهذا الأجر، ولكن في رواية جاءت **«فله الجنة»**، **«فمن وفى فله الجنة»**[1].

الجنة هي الغاية المطلوبة التي يطلبها الإنسان، والجنة اسم لكل النعيم الذي يقع فيه.

• **قوله: «وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللهُ فَهُوَ إِلَى اللهِ؛ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ»** هذه الجملة الأخيرة هي الشاهد من المراد للبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، أن مثل هذه الأمور: القتل، والشرك، والسرقة، والزنا، ومعلوم أن هذه من الكبائر العظيمة، وأكبرها الشرك، ولكن مفهوم هذا في آخره أن هؤلاء إذا فعلوا شيئًا من ذلك أنهم لا يخرجون من الدين الإسلامي، وإنما هم من أهل الوعيد الذين يكون أمرهم تحت مشيئة الله ﷻ؛ إن شاء عاقبهم، وإن شاء عفا عنهم.

• **وقوله: «وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ به»**، عوقب؛ يعني: أقيم

---

(١) أخرج الإمام أحمد في مسنده (٣٨/٤٨٨) حديث رقم (٢٣٥٠٦) عن أيوب الأنصاري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«من جاء يعبد الله لا يشرك به شيئًا، ويقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويصوم رمضان، ويجتنب الكبائر؛ فإن له الجنة»**، وسألوه: ما الكبائر؟ قال: **«الإشراك بالله، وقتل النفس المسلمة، وفرار يوم الزحف»**.

عليه الحد، «**في الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ له**». هل مجرد إقامة الحد يكون كفارة، أو أنه لا بد أن ينضاف إلى ذلك التوبة؟

لا بد من التوبة كما تقدم، أما إقامة الحد مع الإصرار فلا يكفي في العفو عن الجريمة؛ لأن المُصِرَّ على الذنب كفاعله، والمسألة فيها خلاف بين العلماء.

قوله: «**ثُمَّ سَترهُ الله**»؛ يعني: أصاب من هذه الأمور، ولكن فيه أشياء قد لا تنستر، مثل القتل، ومثل التعدي على الناس بالظلم والنهب والسرقة وغير ذلك مما يكون ظاهرًا ولو جزئيًا، ولكِنْ غيرها قد يكون فيه خفاء.

وفي هذا دليل على أن الإنسان إذا وقع في ذنب من الذنوب لا يجوز له أن يشهر بنفسه، وأن يُحَدِّث: فعَلْتُ وفعَلْتُ، فإنه جاء الوعيد عليه، وأنه غير معافًى، هذا من الاستهتار ومن الاشتهار به؛ ولهذا جاء في حديث عبد الله بن عمر الذي في «الصحيحين» لما سُئل عن النجوى قيل له: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: «**إن اللهَ يُدني المؤمن، فيضع عليه كَنَفَه ويَسترُه، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أيْ ربِّ، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطى كتابَ حسناته**»[1]، ويخرج إلى الناس؛ يعني: من الستر يمدها إليهم ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٠].

فقوله: «**يضع عليه كَنَفَه**» لأنه إذا قال له ﷻ: فعلتَ كذا وكذا في مكان كذا وفي يوم كذا، يسودُّ وجهه، ويرى أنه هلك، فيستره حتى لا ينظر الناس إليه، وهذا من رحمته ﷻ، فأما الذين يستهترون ويشهرون أنفسهم فينادَى عليهم على رؤوس الخلائق، هذا فلان فعل كذا وفعل كذا، وفي حديث ابن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣، ١٢٨)، كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨﴾ [هود: ١٨]، ورقمه (٢٤٤١)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٢٠)، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، ورقمه (٢٧٦٨).

عمر أيضًا الآخَر: «**لكل غادر لواءٌ يُنصَب بغدرته يوم القيامة**»[١]، وهذا من الشهرة أيضًا، فمن الخزي ومن العار ومن الاستهتار كون الإنسان إذا فعل شيئًا من الذنوب خفيةً يذهب يشهر نفسه، يقول: فعلتُ وفعلتُ! فهذا الذي ـ نسأل الله العافية ـ قد لا يعفى عنه.

والمقصود في هذا الردُّ على الخوارج الذين يكفِّرون المسلمين بالذنوب، ولا شك أنها من الكبائر ومن العظائم، ومع ذلك قد يعفو الله عن صاحبها، والرسول ﷺ كان يأمر مناديًا في المجامع، يقول: «**ألا إنَّه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة**»[٢]؛ فالجنة لا يدخلها كافر، هي محرَّمة على الكفار وما فيها، لو كان كافرًا ما عُفي عنه، وكذلك لو كان كافرًا ما أقيم عليه حد، ثم صار كفَّارة له، يصير الحد كفارة له.

وفيه رد على المعتزلة، وعلى المرجئة. أما وجه الرد على المرجئة فإنهم يقولون: هذه الذنوب لا تضر؛ فالنصوص تدل على أنه يعاقَب، وأنه قد يكون في النار، ففيه الرد عليهم، أما المعتزلة فإنهم يقولون: إنه في النار، وإن كان في الدنيا لم يخرج من الإسلام، ولكنه لا يطلق عليه اسم الكفر، يقولون: خرج من الإسلام ولم يدخل في الكُفر؛ يعني: صار بمنزلة بين المنزلتين! وأما في الآخرة فقرَّروا أنه في النار خالدًا مخلَّدًا.

هذه من خصائصهم التي اختُصوا بها ولم يوافقهم عليها أحد من الناس، كيف لا يكون مسلمًا ولا يكون كافرًا؟ هذا غير معقول!

وأما الخوارج فيكفِّرون بالذنوب، واتفقوا مع المعتزلة على حكم

---

(١) صحيح البخاري (٤/ ١٠٤)، كتاب الأدب، باب إثم الغادر للبر والفاجر، ورقمه (٣١٨٨)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٣٥٩)، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، ورقمه (١٧٣٥).

(٢) أخرج الترمذي في سننه حديث رقم (٣٠٩٢)، والنسائي، حديث (٢٩٥٨)، وأحمد في مسنده (٢/ ٣٢)، حديث رقم (٥٩٤) أن رجلًا سأل عليًّا ﷺ قال: بأي شيء بُعِثْتَ؟ يعني يوم بعثه النبي ﷺ مع أبي بكر في الحجة، قال: «بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عُريان، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فعَهْدُه إلى مدته، ولا يحج المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا».

الآخرة؛ يعني: أنه في الآخرة يكون في النار، فهذا الحديث يردُّ المذاهب هذه، **والبخاري** رَحِمَهُ اللَّهُ **قصد في هذا الكتاب ـ كتابِ الإيمان ـ الردَّ على الطوائف المخالفة لما جاء به الرسول** ﷺ.

ولكن طريقته أنه يذكر النصوص، وقد يشير إلى المعنى في الترجمة، وقد لا يشير إليها، غير أن ذلك مفهوم من صنيعه.

وقيل: البيعة هذه، هذه تسمَّى بيعة النساء؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ [الممتحنة: ١٢] إلى آخر الآيات، أمره أن يبايعهن، ومبايعة الرسول ﷺ للنساء كانت بالكلام، ولم يصافح امرأة صلوات الله وسلامه عليه.

وقد جاء في الحديث أنه أيضًا يكرر هذه المبايعة، واختُلف متى كانت، والواقع أنها تكرَّرت، فحديث عوف بن مالك الأشجعي فيه التصريح بهذا، قال: «كنا عند رسول الله ﷺ تسعةً أو ثمانية أو سبعة، فقال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**» وكنَّا حديثَ عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**» فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**» قال: فبسَطْنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله»[(١)]، فيكون هذا فيه تأكيد للبيعة السابقة.

ولهذا جاء أنه ﷺ لما صلى العيد وخطب «ثم أقبل يشقُّهم حتى جاء النساءَ معه بلال، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ [الممتحنة: ١٢] الآية، ثم قال حين فرغ منها: «**آنتن على ذلك؟**» قالت امرأة واحدة منهن، لم يجبه غيرها: نعم»[(٢)] هذه أيضًا بيعة مكررة لهن، وقوله: «**آنتن على ذلك؟**»؛ يعني: ثابتات على هذه البيعة، فهذا للتأكيد؛ تأكيد هذه الأمور، وللتذكير أيضًا.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٢١)، كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، ورقمه (١٠٤٣).

(٢) أخرجه البخاري كتاب العيدين باب «موعظة الإمام النساءَ» حديث رقم (٩٧٨)، ومسلم في كتاب صلاة العيدين، حديث رقم (٨٨٤).

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: مِنَ الدِّينِ الفِرَارُ مِنَ الفِتَنِ

١٩ ـ **حَدَّثَنَا** عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ المُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ وَمَوَاقِعَ القَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ**».

الشَّرح

• **قوله: «بابٌ: من الإيمان الفرارُ من الفتن»** الفرار من الفتن يدل على ثبوت الإيمان عند الإنسان، وشُحِّه به، وحرصه على ذلك، والفتن كثيرة جدًّا ومتنوعة، قد تكون ظاهرة، وقد لا تكون ظاهرة، وهي مأخوذة من العذاب، فعذاب النار فتنة ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الذاريات: ١٤] وأصلها وضع الشيء على النار، مثل وضع الذهب حتى يتبين الغش فيه من الصافي، ويكون أيضًا في غير ذلك، فيكون مثلًا في الإنسان نفسه، يُفتَن في مصائب وأمور صعبة عليه، حتى يتبين هل هو صادق أو غير صادق؟ فإن كان صادقًا فإنه يثبت ولا يتزعزع، ويصبر ويتحمل، وإلا انتكس وسقط؛ ولهذا أخبر الله ﷻ أن هذا عام ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت: ٢] فلا بد من الافتتان.

وليس معنى ذلك أن الله لا يعلم الخفيات والمستقبَلات، ولكنه ﷻ لا يأخذ إلا بالعمل الظاهر الذي يُعمَل، وإلا فهو سبحانه يعلم أن هذا سوف ينتكس، وهذا سوف يصبر ويثبت، قبل وجوده.

ومن الفتن فِتَن تكون في الأموال، وفِتَن في الأهل والولد، وفِتَن بين الناس بعضهم ببعض، وفي غير ذلك من أمور الدنيا، الأمور التي قد تصرف الإنسان عن الثبات، أو قد تقلل من إيمانه وتمسُّكِه، وهي كثيرة في الواقع.

وقد تكون بالنعم التي ينعم الله ﷻ بها على الإنسان، والله يبتلي بالضراء وبالسراء تعالى وتقدس؛ حتى يتبين بالفعل الصادقُ من غيره، وفي هذا الحديث أن من الإيمان الفرار من الفتن.

• **قوله: «يوشك أن يكون خيرَ مال المرء»** كلمة **«يوشك»** معناها: يَقرُب.

• **قوله: «يوشك»**؛ يعني: يقرب، وكل آت فهو قريب.

«يكون خيرَ مال الإنسان غنَمٌ يتبَعُ بها شَعَفَ الجبالِ، يفرُّ بدينه من الفِتَن»؛ يعني: أنه يعتزل الناس، يكون معه ما يكفيه في معيشته وقُوْته ما يستغني به، فيكون هذا هو خير المال في ذلك الوقت؛ لأن بقية الأموال لا تخلو من مخالطة الناس.

• **قوله: «خَيْرَ مَالِ المُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ»** «الشَّعَف» هي رؤوس الجبال والمقصود بذلك أنه لا بد له من معيشة.

وكونه يستثمر ماله وينمِّيه ليس ملومًا بذلك؛ بل هو مأجور؛ لأنه يستغني به عما في أيدي الناس، وعن الحاجة إلى من قد يشتري بالمال دِينَه، أو جزءًا منه، فيكون هذا من الدِّين أيضًا، ولكن هذا يحتاج إلى نية، وكون الإنسان يفر من الفتن لحُبِّه دينه، وشدة حرصه عليه، وبغضه الكفر خوفًا أنه إما يرجع عن دينه، أو يُفتَن فيه، فيكون قد نقص دينه، فهذا وجه كونه من الإيمان.

والمقصود بهذا كله: أن حرص الإنسان على ثباته على أمر الله ودينه، والابتعاد عن الأسباب التي قد تقدح في ذلك أو تذهبه؛ أن هذا من الإيمان، ويجتمع في هذا الأمور المعنوية والأمور الظاهرة.

فدل على أن الدين يكون بأعمال القلب، ويكون بأعمال الجوارح، وأصله التصديق الجازم، والقبول الذي ليس فيه تردد، فدل على أنواعه وأقسامه وأجزائه، وأنه كله دين، ولكن البخاري كما سبق يجعل الدين والإسلام والإيمان كلها سواء، كلها عبارة عن شيء واحد، وعلى هذا شيء من الإيرادات كما سبق.

وكذلك الذي يقابله قد يورد عليه بعض الأشياء، ولكن الصحيح أن هذا

لا خلاف فيه؛ يعني: بالنظر إلى نفس المعاني هذه ليس فيها اختلاف؛ لأنه كلام معصوم تكلم به، صلوات الله وسلامه عليه، كلامه يصدِّق بعضه بعضًا؛ فلهذا جُمع في ذلك أن الألفاظ الجامعة يدخل تحتها معانٍ كثيرةٌ، مثل التقوى، والبر، والإحسان، وما أشبه ذلك من الكلمات الجامعة، ومنها الإيمان والإسلام.

فإذا اجتمعت هذه الأسماء؛ يعني: مقرونة، فإنها كل واحد يفسَّر بما يناسبه، فيكون غيرَه، وإذا جاء أحدها دخل فيه البقية كلها، هذا جمع بين النصوص كلها، **وهذا هو الصواب الصحيح**.

فهذا يعني أن الدين يكون بالفعل، ويكون بالقصد والنية والإرادة، ولكن كما سبق أن بعضه فرض لا بد منه، ولا يجوز الإخلال به، وبعضه قد يكون أقل من ذلك، وبعضه مستحب؛ فالمستحب تركه لا يكون قادحًا في الأصل، وإنما يكون مُنقِّصًا فقط.

إذا قيل: القادح يدخل في النقص؟ قل: نعم، ولكن المقصود بالقادح كونه يزيله أو ينافيه؟

فهو لا ينافيه ولا يزيله، وإنما يذهب بالكمال، إما الكمال الواجب الذي يعاقَب تاركه، أو مع الكمال المستحب، والكمال المستحب لا يعاقَب تاركه، ويدخل في هذا وهذا.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللهِ، وَأَنَّ المَعْرِفَةَ فِعْلُ القَلْبِ؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]

٢٠ ـ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدَةُ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَرَهُمْ، أَمَرَهُمْ مِنَ الأَعْمَالِ بِمَا يُطِيقُونَ، قَالُوا: إِنَّا لَسْنَا كَهَيْئَتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَغْضَبُ حَتَّى يُعْرَفَ الغَضَبُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: «إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللهِ أَنَا».

الشَّرح

• **قول النبي ﷺ**: «أنا أعلمكم بالله»، المقصود بهذا: أن من كان أعلم، كان إيمانه أكمل وأتم، والرسول ﷺ هو أعلم الأمة بالله ﷻ، فيلزم على هذا أن يكون هو أتقاهم وأقربهم إلى الله؛ لأن العمل يتبع العلم، ولا عمل بدون علم، ولكن إذا وُجِد عمل بلا علم، فقد يكون باطلًا، وقد تكون جدواه قليلة، فلا بد من العلم.

ولهذا قال الله ﷻ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فبدأ بالعلم قبل الأمر بالاستغفار الذي هو العمل؛ لأن الاستغفار يشمل العمل كله، والعلم بالله وبصفاته وأسمائه، وكذلك ما يلزم لذلك، فمن كان أعلم بأسماء الله وصفاته فهو أقرب؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وهذا حصر؛ لأن الخشية لا تكون إلا في هؤلاء المذكورين ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾. فالعلماء ـ كما هو معلوم ـ يتفاوتون تفاوتًا عظيمًا، فأعلمُهم رسولُ الله ﷺ على الإطلاق، فيلزم من ذلك أن يكون هو أتقاهم؛ يعني: أنه لا يخلُّ بأمر من الأمور التي أمر الله ﷻ بها، ولا يرتكب أمرًا فيه مخالفة.

وهذا الكلام الذي ذكر؛ يعني: كونه يأمر بالشيء الذي يُستطاع، ثم يقولون له: لسنا مثلك، أنت غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر، مفهوم هذا أن الرسول ﷺ قد يترك الأمور الواجبة التي تجب على غيره؛ لأنه مغفور له، وهذا خطأ عظيم، لا يجوز أن يُفهَم مثل هذا أو يقال؛ لهذا قال: «**إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**»، وهذا جاء صريحًا في أحاديث أخرى.

• **وقوله: وأن المعرفة فعل القلب؛ لقوله تعالى:** ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

كل الأعمال مبعثها من القلوب، والظاهر لا يمكن أن يكون مخالفًا للباطن، إلا أن يكون الإنسان منافقًا، أو سكران، أو ساهيًا، أو نائمًا، أو مجنونًا، أما إذا كان عاقلًا فلا يمكن، أن العاقل يعمل عملًا ثم تذهب تسأله عن نيته، ماذا تريد بهذا العمل؛ يعني: يأتي للمسجد تسأله تقول: هل تريد أن تصلي؟ أو يأتي إلى المسجد فإذا قام ليكبر قال: اللَّهُمَّ إني نويت كذا وكذا!

هذا عبث؛ لأن الإنسان إذا توضَّأ وقصد المسجد فهذه النية، والنية دل عليها العمل، وهكذا: إذا رأيت إنسانًا يطوف مثلًا على حجر أو على بيت أو قبر، تقول: ما ندري ما نيته! نيته تبيَّنت من عمله؛ لأنه عاقل، والعاقل لا يمكن أن يأتي بشيء على خلاف المقصود، فالحكم على الأعمالِ الظاهرة. والنياتُ في القلوب، مثلما قال النبي ﷺ: «**أُمِرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم، وحسابُهم على الله**»[1].

قوله: «**وحسابهم على الله**» هذا يعني: النيات والمقاصد، هذه التي يعلمها الله، وهو الذي يحاسبهم عليها، فإن كانوا صادقين جُوزوا بالأجر والثواب العظيم، وإلا سوف يعاقبهم الله على أنهم أظهروا خلاف ما أبطنوا.

• **وقوله:** «**وأنَّ المعرفة فعل القلب**» هل يقال المعرفة أو العلم؟ كأن يقال: عَرَف الله؟

في الواقع المعرفة هي العلم؛ لأنه لا فرق بين هذا وهذا بالنسبة للعبد،

---

(١) تقدم تخريجه.

ولكن لا يوصف الله تعالى بها؛ لأنه يُفهَم منها أنها مكتسَبة بعد أن لم تكن! فإذا عَرَف فقد عَلِم.

«**وفعل القلب**» يُقصَد به أنه هو الذي يبعث الجوارح على الأعمال، سواء كان قولًا أو عملًا يُعمَل.

• **وقوله: لقوله تعالى:** ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ﴾ الآية فيها التصريح بأن القلوب لها كَسْب، وكَسْبها، مثل الخوف والرجاء، والخشية والإنابة، وغير ذلك، وأعمال القلوب كثيرة جدًّا، ولكن تُسمَّى أقوالًا أو أعمالًا؟ وبعض الناس يقول: إن قول القلب ليس هو عمل القلب، فيفرِّق بين قوله وعمله، فما هو قوله؟

يقول: قوله هو ما ينطوي عليه من العقيدة، والعمل هو الذي يصدر عن ذلك، مثل الخشية والإنابة، والخوف والرجاء، وما أشبه ذلك من أعمال القلوب الكثيرة التي لا بد منها، وبعضهم لا يفرق، ويقول كله عمل القلب.

• **قوله:** ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ هذا يدل على أن الكسب والعمل سواء، فلا فرق بين كسب وعمل، لا كما يقوله بعض أهل البدع: إن الكسب غير العمل؛ فإن هذا لا دليل عليه؛ لأنهم فسروا الكسْب بشيء غير معقول، قالوا: الكسب هو مقارنة الإرادة للعمل، والإرادة غير مؤثرة في مقارنتها للفعل، فما فائدة إرادة غير مؤثرة؟! ولهذا قيل: إن هذا غير معقول، أو قالوا: إن هذا من عجائب الكلام!

• **قوله:** ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ليس المعنى استقلال القلب بالكسب؛ فالقلب لا يستقل إلا بالنية والمقاصد التي يتبعها العمل، فلا بد أن تكون الجوارح تابعة للقلب، كما جاء في الحديث؛ حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، وفيه: «**ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلَحَت صَلَح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٢٠)، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ورقمه (٥٢)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٢١٩)، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، ورقمه (١٥٩٩).

وفي حديث آخر: «**القلب مَلِك**»[١]؛ مَلِكُ الأعضاء، والمقصود بذلك ما يدبِّر الإنسان ويفكر فيه، سواء كان علمًا أو عملًا، وأكثر ما يأتي في الكتاب والسُّنَّة إضافة ذلك للقلب.

والحقيقة أن بين القلب وبين الدماغ ارتباطًا؛ لأن الدماغ أيضًا فيه الفكر وفيه الأمور التي كلها تكون مرتبطة بالجسد كله؛ ولهذا حفظه الله ﷻ عن المؤثرات الخارجية، بالعظام التي أحاطه بها، حكمة من الله ﷻ.

والمقصود: أن العلم هو ما يكون في القلب؛ أي: معرفة القلب.

• **وقوله: «كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم، أمرهم من الأعمال ما يطيقون»** كلمة «**كان**» الغالب أنها تدل على المداومة؛ كان يفعل كذا، أو كان يقول كذا: أن هذا كثير، أو أن هذه سبيله؛ طريقه لا يتعداها، هذا هو الغالب، وقد يأتي خلاف ذلك.

«**إذا أمرهم، أمرهم من الأعمال ما يطيقون**» الطاقة هي القدرة والاستطاعة، الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، والوُسْع هو الاستطاعة، بأن يستطيع ذلك، وهذا من العدل ومن الخير، يأمرهم بما يطيقون.

فيقولون له: «**إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله؛ إن الله قد غفر لك ما تقدم وما تأخر**»؛ يعني: يريدون زيادة؛ لأنهم عندهم رغبة في الخير، ورغبة في كثرة الأعمال، فيريدون أن يأتوا بأكثر مما أمرهم به، فإذا قال لهم: أنا هذا عملي، قالوا: أنت قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر.

وهذا في الحقيقة له مفهوم سيِّئ، لا يجوز أن يكون عند المسلم، وهو أن الرسول يترك بعض الأشياء التي يَحسُن فعلها أو يجب فعلها؛ اعتمادًا على أنه قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر! هذا لا يجوز أن يكون.

ولهذا جاء الجواب **قال: «إنَّ أتقاكم وأعلمكم بالله أنا»** فغضب لذلك، وسَبَبُ الغضب كما سبق أن هذا المفهوم السيِّئ ضمن هذا المعنى، أنك تترك

---

(١) أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في المصنف (٩/ ٩٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٥٧). وهو موقوف على أبي هريرة ﷺ.

بعض الواجب اعتمادًا على أن الله غفر لك، فيغضب، والشاهد فيه أن العلم إيمان؛ من الإيمان، والعمل من الإيمان، والعلم مقدم على العمل، فإذَن الإيمان دخل فيه كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة؛ فهو عام شامل.

وفي هذا شاهد نحوي «**إِنَّ أَتْقَاكُمْ وأَعْلَمَكُمْ بِاللهِ أَنَا**»، وهو أنه فُصِل وأُخِّر الضمير البارز؛ لأن هذا عند النحاة لا يجوز، يقول: إنَّ أتقاكم وأعلمكم بالله. . ، يقدم الضمير يكون غير مفصول، ولا شك أن رسول الله ﷺ أفصح العرب وأبلغهم؛ فكلامه حجة، ويجب أن تُتَّخذ القواعد منه، ولا تأتي على خلافه، كما يقول بعض النحاة: الحديث ليس حجة؛ لأن الحديث قد يكون تعبيرًا من الراوي على المعنى، لا أنه لفظ للرسول، ولا يقولون: إن كلام الرسول ليس حجة؛ لأن مثل هذا لا يجوز أن يقال، ومن المعلوم أن كلام رسول الله ﷺ مرويٌّ باللفظ، فيكون حجة.

• **وقول الرسول ﷺ: «إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللهِ أَنَا»**؛ لأن العلم جاء به هو صلوات الله وسلامه عليه، فهو الذي وهبه الله ﷻ العلم الكامل، وعلَّمه بلا أن يتعلم، علَّمه الله ﷻ كل شيء من الأشياء التي يختص بها المخلوق، أما الذي يختص بها الله ﷻ فهي لا تدخل في هذا.

فمقصوده رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا أن هذا جزء من الإيمان، كما سبق أن الإيمان مركَّب من أجزاء:

من المعرفة التي هي العلم، ومن القول، ومن الفعل، فأراد أن يبين أن العلم هو الأصل في هذا، أعني: علم القلب، والثاني يصدر عنه، فلا بد من ذلك، وفي هذا الرد على الذين ينكرون مثل هذه المعاني، وهذا واضح.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: مَنْ كَرِهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ؛ مِنَ الإِيمَانِ

٢١ ـ **حَدَّثَنَا** سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ**».

الشَّرح

هذا تقدم في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السابق: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ**».

والبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ يكرر الأحاديث كثيرًا لمقصود له بالترجمة التي يترجم بها؛ لأنه قد يقطع الحديث، أو يكرره؛ ليأخذ منه فقهًا في كل مرة، ولكن عادته أنه لا يعيد الحديث بلفظه وبسَنَده ما وَجَد إلى ذلك سبيلًا، فلا بد إذا أعاده أن يأتي بلفظ آخر أو بسند آخر غير سند الأول، وإلا قد يكرر كثيرًا، وهو مقصوده الاستنباط.

ولهذا يقولون: إن فِقْهَه في تراجمه، وقد زادت تراجمه على أحاديث الكتاب كثيرًا؛ لأنه قد يذكر الحديث، ويذكر عليه عدة تراجم؛ مثل حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما اشترى منه النبي ﷺ الجَمَل، ذكر عليه ستًّا وثلاثين ترجمة استنتجها من هذا الحديث! وقد يكون فيه أكثر من هذا، وهكذا كل أحاديث الرسول ﷺ فيها العلم النافع والخير الكثير.

فالبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في الواقع في عمله هذا يدرِّب الطالب على التفقه والاستنتاج والاستنباط؛ ولذلك أحيانًا إذا جاء بالحديث ما يذكر الحديث

الذي هو نص في المسألة، قد يذكر حديثًا فيه شيء من الخفاء؛ حتى يستنتج الطالب ويستخرج الحكم بنفسه، فيكون بهذا تعليم له بطرق الاستنتاج والتفكر، **فمِن أنفَعِ الكتب التي ينبغي للطالب أن يقرأها هذا الكتاب**؛ كتاب البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، ولكن يجب أن يتفقه الإنسان ويعرف المراد، ويعرف ما وضعه لهذا رَحِمَهُ اللَّهُ، وبهذا فاق به كثيرًا من كتب الحديث.

وهكذا سار البخاري؛ إذا جاء الحديث وفيه أنواع، فيجعل لكل نوع ترجمة؛ ولهذا كثرت تراجمه، ويقولون: إن فقهه رحمه الله تعالى في تراجمه، وكثير من الناس يعيب مثل هذا، وهذا في الواقع يدل على فقهه وعلمه، وأنه يجب أن مدار الأحكام على النصوص، ولا يكون هناك علم حقيقي إلا من هذا العلم الشرعي.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: تَفَاضُلِ أَهْلِ الإِيمَانِ فِي الأَعْمَالِ

٢٢ ـ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ عَمْرِو بْنِ يَحْيَى المَازِنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يَدْخُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ**»، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَيُخْرَجُونَ مِنْهَا قَدِ اسْوَدُّوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الحَيَا، أَوِ الحَيَاةِ ـ «شَكَّ مَالِكٌ» ـ فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ فِي جَانِبِ السَّيْلِ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً» قَالَ وُهَيْبٌ: حَدَّثَنَا عَمْرٌو: «الحَيَاةِ»، وَقَالَ: «خَرْدَلٍ مِنْ خَيْرٍ».

الشَّرح

الأعمال يدخل فيها أعمال القلوب وأعمال الجوارح بلا شك؛ فالتفاضل قد يكون بالأصل، وقد يكون بالفروع، وكله واقع، وهذا واضح من الأحاديث التي ذكرها البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ؛ ليتبين لنا مراده في هذا إن شاء الله.

• **قوله: عن النبي ﷺ قال: «يَدْخُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ».**

المقصود بأهل النار هنا الذين يخرجون منها، وهذا يدل على دخول كثير من المسلمين النار، ثم يخرجون إلى الجنة، **يقول الله ﷻ: «أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَيُخْرَجُونَ مِنْهَا قَدِ اسْوَدُّوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الحَيَا، أَوِ الحَيَاةِ»** يقول البخاري: **«شَكَّ مَالِكٌ»**؛ لأن الحديث عن طريقه، **«فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ فِي جانب السَّيْلِ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً»**.

ثم ذكر البخاري رحمه الله تعالى كعادته، إذا كان في كلمة خلاف يذكر الذي يؤيدها ويوافقها أو الذي يخالفها، فذكر من طريق ثانٍ **قال: قَالَ وُهَيْبٌ: حَدَّثَنَا عَمْرٌو: «الحَيَاةِ»**؛ يعني: أنه ما شك، قال: الحياة، **وَقَالَ: «خَرْدَلٍ مِنْ**

خَيْرٍ»؛ يعني: بدل الإيمان، قال: خير، هذا أيضًا من الدقائق التي يحرص عليها البخاري، وإذا كان في الحديث شيء من الخلاف فإنه يؤيد الصحيح منها، ويذكر الاتفاق بينها، ومعلوم تفاوُت الحفَّاظ في الحفظ.

والمقصود من سياق هذا الحديث: بيان تفاوت الإيمان وتفاضله بين أهله؛ ففرق بين من يدخل الجنة بلا محاسبة، ومن يدخل النار وهو من أهل الإيمان، فرق كبير، وهذا التفاوت وهذا الفضل لا بد أن يكون بالأعمال، إن الله لا يظلم مثقال ذرة، تعالى وتقدس، وكل من عمل سوف يجازى به، ثم فيه أن الإيمان أيضًا يتفاوت في أصله.

ولهذا قال: «**مثقالُ حبةٍ من خردلٍ من إيمانٍ**»؛ يعني: جزء من جزء صغير من إيمان، فهذا الإيمان ضعيف، لا يقابل من كان إيمانه كالجبل الراسي الذي لا يتزعزع، بعض الناس لو شُكِّك في الآخرة أو في الله، يشُكُّ! وبعضهم لا يتطرق إليه الشك بحال من الأحوال، مهما أُلقي عليه من الشُّبَه؛ لثباته وكمال إيمانه.

وهذا نص في أن أصل الإيمان يتفاوت بين المؤمنين، الذي هو التصديق والقبول من الله ﷻ، حتى صار بعضهم في قلبه مثقال حبة من خردل فقط، والخردل: نبت معروف له حبوب صغيرة جدًّا، فرق بين هذا وبين من كان إيمانه كاملًا، وفي هذا دليل واضح بأن كثيرًا من أهل التوحيد يدخلون النار. نسأل الله العافية.

ولكن يُفهَم من **قوله**: «**قد اسودُّوا، فيُلقَون في نهر الحيا أو الحياة**»؛ أي: أنهم قد يحترقون ويموتون، فلا يكون فيهم إحساس، فيكون هذا خاصًّا بهم ورحمة لهم، وقد جاء في «صحيح مسلم» التصريح بهذا؛ أنهم يموتون، هؤلاء من أهل الإيمان، ثم يخرجون ضَبَائِر ضَبَائِر[1]؛ يعني: أنهم يُضمُّ بعضهم إلى بعض، فيُلقَون في هذا النهر، يقال لأهل الجنة: أفيضوا عليهم، فيَنبُتون، النبت هذا لأبدانهم وأجسادهم؛ لأنها احترقت، صارت حُمَمًا؛

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨٥)، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار.

يعني: فحمًا، بخلاف الكافرين؛ فإنهم كلما نضجت جلودهم بُدِّلوا جلودًا غيرها؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] نسأل الله العافية.

و﴿كُلَّمَا﴾ هذه لما لا نهاية له، كلما جاء شيء خلَفَه مثله؛ لأن الإحساس الشديد في الجلد، يُبَدَّلون جلودًا غير جلودهم، أما هؤلاء الموحِّدون لم يُبَدَّلوا، احترقت جلودهم ولحومهم وعظامهم كلها، هذه رحمة بهم.

• **وقوله: «في نهر الحياة»** هذا الذي رجحه الخطابي وغيره: أنه الحيا، وليس الحياة، ويقول: الحيا، وهو المطر[1]، هذا لا يزال يعرفه الناس، يقولون: نزل الحيا، يُسمُّون المطر حيًّا؛ لأنه تحصل به الحياة؛ حياة الأرض.

• **وقوله: «فيَنبُتون كما تَنبُت الحِبَّة»**، الحِبَّة: هي بذرة الشيء، بذر العشب وغيره من النبات.

وقد تكون هذه الحِبَّة خفية ما تُرى تارةً، حتى قال بعضهم: إن بذور النبات تنزل مع المطر، والظاهر أنها لا تنزل مع المطر، وإنما هي في الأرض موجودة، وكل نبت يخرج ثمارًا وحبوبًا، ثم تكون مع التراب، ولكن تختفي ما تُرى، فإذا نزل المطر نبتت، بدليل أنك لو أجريت الماء الذي تستخرجه من الآبار أو تسيله من النهر، نبت النبات، هذا ما نزل فيه مطر، فهو في الأرض موجود، ولكن كل شيء بأمر الله وإرادته وإذنه.

ولهذا يقول في النخل ﷺ لما ضربها مثلًا لكلمة التوحيد: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

---

(١) قال القاضي عياض: «فيُلقَون في نهر الحياة أو الحياء، شكَّ مالك» «كذا ذكره البخاري، وبمد الأول في كتاب الأصيلي، ولغيره بالقصر، ولا وجه له هنا، ذِكْره وهْم، لا بقصر ولا بمد، لكنه قد يخرج لرواية القصر وجه؛ فالحيا ـ بالقصر ـ: كل ما يحيا الناس به، والحيا: المطر، والحيا: الخِصبُ؛ فلعل هذه العين سُمِّيت بذلك؛ لخصب أجسام من اغتسل بها منهم، كما فسره في الحديث، أو لأنهم يحيون بعد غسلهم منها». مشارق الأنوار على صحاح الآثار (١/ ٢١٩).

﴿كُلَّ حِينٍ﴾؛ يعني: كل سنة، بإذن ربها؛ يعني: إذا أذن ﷻ آتت أكُلَها، وإلا لا تأتيه، إذا لم يأذَنْ لم تأت به، وكل شيء بإذنه تعالى وتقدس؛ النبات وغيره، ولا يقع شيء إلا بإذنه وإرادته.

والحَمِيل ـ حَمِيل السيل ـ هو الغُثاء، إذا جاء السيل يحمل معه ما خفَّ من الأشياء والأذى، ثم ينفيها إلى جانب، فيكون فيه سماد؛ لتخرج النبات فيه بسرعة تراها مبيضة؛ لأنها تخرج بسرعة، فهذا وجه التشبيه بـ«**ألم ترَ أنها تخرجُ صَفْراءَ ملتوية**» تلتوي؛ لأنها تشب بسرعة، ما تبقى حتى تذبل وتنشف، فتلتوي من أجل ذلك، وهذا كله يدل على فصاحة الرسول ﷺ، ودقة ما يخبر به ﷺ.

ولكنَّ كثيرًا من هذه الأشياء لا يعرفها إلا من زاولها، شاهدها ونظر فيها، إنما يصفها وصفًا قد يكون مقارِبًا؛ فالمقصود في هذا تفاوت الناس في الإيمان، وهو واضح.

يقول العلماء: إنه يُفهَم من هذا أن الإيمان الذي يكون في القلب لا تقتسمه الخصوم؛ بل يبقى للعبد، وإنما الخصوم يأخذون الأعمال التي يعملها؛ من صلاة، وصوم، وحج، وصدقة، وغير ذلك.

أما الإيمان فيبقى، بدليل أنه لو أُخذ إيمانه ما دخل الجنة ولا خرج من النار، بقي الإيمان عنده لم تتقاسمه الغرماء، والغرماء سوف يجتمعون عند الله، يوم تجتمع الخصوم عند الله ثم يحكم بينهم، والحُكم لا بد من أداء الحق، والحقوق هناك ما فيها أموال ولا أثاث ولا شيء، إنما هي أعمال، فيؤخذ من عمل الإنسان ويُعطى المظلوم حتى يستوفي، ما الظن إذا كانت الخصوم كثيرة؟! جاء في الحديث أن الذي يَخلُف الغازيَ في سبيل الله في أهله بسوء؛ يعني: يخون بهم؛ أنه يوقَف له يوم القيامة، ويقال له: خذ ما تشاء من أعماله، ثم التفت إليهم ﷺ، وقال: ما ظنكم؟ هل يُترَك له شيء؟ ما يُترَك شيء له، يأخذ عمله كله، فإذا أخذ عمله ألقي في النار.

كذلك في «صحيح مسلم» لما قال: «**أتدرون من المفلس فيكم؟**» ثم فسرها قال: «**إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة،**

ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطُرِحت عليه، ثم طُرح في النار»[1]، هذا هو المفلس حقيقة، عَمِل ولكن ليس له، ذهب لغيره، ثم أضيفت إليه سيئات أخرى؛ لأنه إذا انتهت الأعمال يبقى خصوم يؤخَذ من سيئاتهم فتُلقى عليه.

هذه من الأمور التي يجب على الإنسان أن يفكر فيها؛ حتى لا يطلق لسانه في الناس، أو يتعدى عليهم؛ لأن هذ أمور لا تُترَك؛ ولهذا **جاء أن الدواوين ثلاثة**. الدواوين معناها: الكتابة التي تكتب على الإنسان **ثلاثة أقسام**:

القسم الأول: لا يعبأ الله به شيئًا؛ يعني: أنه سهل، فهذا الذي بينك وبين ربك ﷻ قد يغفره بلا مبالاة.

القسم الثاني: لا يُغفَر منه شيء، وهو الشرك، لا يُغفَر منه شيء، لا بد أن يؤاخَذ به.

القسم الثالث: لا يُترَك منه شيء، وهو الذي بين العباد بعضهم لبعض، لا بد من وفائه.

فهذا الحديث قال العلماء فيه: إنه يدل على أن أصل الإيمان ثابت، وبهذا يجاب عن الحديث الذي فيه أنه: **«يخرج من النار من قال لا إله إلا الله ولم يعمل خيرًا قط»**[2]؛ يعني: أنه ما بقي له خير من الأعمال الأخرى، قد أُخِذت وذهبت، وإنما عنده أصل الإيمان فقط، أما أن يخرج وهو لم يكن عنده إيمان، فهذا لا يمكن، لا يخرج من النار الكُفَّار، والكُفَّار الجنة عليهم حرام، فهذا يجب أن يُفهَم، وهو مفهوم من هذا الحديث وغيره، والمقصود بذلك عِظَم التفاضل بين المؤمنين، كما سبق. والله أعلم.

المقصود: أن الأعمال دخل فيها أعمال القلوب، والأعمال التي يعملها الإنسان إما بقول أو بفعل، فهو شامل؛ يعني: أن الزيادة والنقص يكون من

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

هذا، والواقع أن هذا واضح، فأعمال القلوب أيضًا يتفاضلون فيها، مثل التصديق الذي يفسِّر كثير من الناس الإيمانَ به، ويقولون: إنه الذي جاء في اللغة، فتصديق بعض الناس يكون أمكن وأتم من بعضهم، فإنه لا يقبل الشك وبعضهم لو شُكِّك لشَكَّ.

فلهذا تفاضلوا في هذا كله، أما الأعمال فهو أمر ظاهر، كل من كانت أعماله أتم وأكمل وأكثر فهو أفضل وأرفع درجة عند الله ﷻ، وعلى هذا صارت الجنة درجات، وذكر البخاري هذا الذي يخرج من النار وفي قلبه مثقال أدنى من حبة من خردل من إيمان، هذا يخرج من النار، وهذا دليل على أن كثيرًا من أهل الإيمان يدخلون النار بذنوبهم، ثم يخرجون منها، ولا يبقى فيها أحد من أهل الإيمان أصلًا، ولكنهم في خروجهم يتفاوتون، فمن هو أكثر إيمانًا من هذا، يخرج قبله، وهكذا.

ولكن هذا ضعيف الإيمان، ما بقي في قلبه إلا هذا المقدار من هذا الإيمان الضعيف، ولكن هذا المقدار نجا به بعدما أخذ جزاءه بتركه الواجبات وفِعْله المحرمات، فعوقب في النار، وقد سبقه عقاب قبل هذا، عقاب في القبر، وعقاب في الموقف، ولكن هذا العقاب لم يفِ بما يستوجبه، فأُدخِل النار؛ حتى يأخذ جزاءه ثم يخرج.

وجاء في حديث أخرجه مسلم: «**فيُخرِج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط قد عادوا حُمَمًا، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة، يقال له: نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحِبَّةُ في حَمِيل السيل**». وهذا أشكل على بعض أهل العلم؛ لأنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن، وفي هذا الحديث أنه لم يعمل خيرًا قط، فهذا جاء تفسيره كما في «صحيح مسلم» السابق، عن النبي ﷺ أنه له أعمال، ولكنها أُخِذت، ووُزِّعت على الناس.

أليس هذه هي الخسارة؟! أن يعمل أعمالًا كثيرة، ثم تؤخذ منه وتُعطى غيرَه، وقد لا يكفي هذا، يؤخذ من سيئات الناس وتوضع عليه! وهذا لأنه ظلم الناس بلسانه وبفعله وعمله وغير ذلك، فيعطى جزاءه، ثم يدخل النار،

هذا لم يبقَ له خير قط، ولكن الإيمان الذي في القلب لا يوزَّع على الناس، يبقى له، وهذا من فضل الله.

فيفسَّر هذا بهذا، لم يعمل خيرًا قط؛ يعني: لم يكن عنده عمل أصلًا؛ لأن أعماله ذهبت، وزيادة على هذا وُضِع عليه من سيئات الناس الذين ظلمهم! ثم هذا فيه الرد على أهل الباطل مثل الخوارج والمعتزلة الذين يقولون: إن من دخل النار لا يخرج منها؛ لقول الله ﷻ: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

ومن أخزاه الله لا يفلح، وهذا أخذ بهذا النص؛ لأنه وافق الهوى فقط، وتركت النصوص الأخرى، مثل كونه يخرج من النار، وأما إخوانهم المعتزلة فإنهم خالفوهم في الاسم ووافقوهم في الحكم، ما الفائدة في ذلك؟!

يعني: خالفوهم في كونه يسمى كافرًا، قالوا: لا نسميه كافرًا، ولا نسميه مؤمنًا؛ بل هو بين المنزلتين!

وهذا جعلوه أحد أركان دينهم؛ لأن لهم أركانًا خمسة للدين، ليست هي الأركان التي مرت معنا في حديث عبد الله بن عمر؛ بل هي أمور ابتدعوها؛ منها قولهم: المنزلة بين المنزلتين؛ يعني: أن هذا صاحب المعاصي خرج من الإسلام ولم يدخل في الكفر! فكان مثل الشاة التي تكون بين القطيعين؛ مرة تنضم إلى هؤلاء، ومرة إلى هذا، فهي حائرة، أما في الآخرة بعد الموت فهو من أهل النار عندهم!

هذا الحكم الذي وافقوا الخوارج فيه، وهذا كله باطل ومخالف للنصوص الكثيرة.

۞ ۞ ۞

٢٣ ـ **حَدَّثَنَا** مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ صَالِحٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ، وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ، مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدِيَّ، وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ، وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجُرُّهُ!**». قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الدِّينَ**».

الشَّرح

رؤيا الأنبياء وحي من الله ﷻ، أما مَرائي الناس فقد تكون صادقة، وقد تكون كاذبة، وقد تكون حقًّا، وقد تكون غير ذلك.

• **وقوله**: «**بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ**» «**بينا**»؛ يعني: أن هذا حدث في أثناء النوم، «**رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ، مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدِيَّ**»؛ يعني: القميص يأتي من العلو، يلبس من العلو، «**الثُّدِيَّ**» هذا بقية البدن غير مستور، مكشوف.

«**ومنها ما يبلغ**»؛ يعني: أكثر من ذلك، «**وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ، وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجُرُّهُ، فسألوه تأويل ذلك قال: الدِّين**»؛ لأن الدين يعبَّر عنه باللباس، ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فهو يعبَّرُ به؛ لأنه يلبسه العبد ويستره من العذاب، يمنعه من العذاب، وهذا أهم من اللباس الحقيقي الذي يلبسه يستر به بدنه، وهذا أيضًا ظاهر في تفاضل الناس في العذاب.

فإذا كان الواحد يبلغ قميصه إلى ركبتيه، والآخر إلى أقل من ذلك، والآخر إلى أقل من ذلك؛ هذا تفاوت عظيم، وعمر رضي الله عنه قميصه يجره خلفه؛ يعني: شيء فاضل، فضل على الستر زيادة عليه!

• **قوله**: **قال**: «**الدِّين**»، الدِّين: دخلت الأعمال كلها فيه، وسيأتي

استدلال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ على نقص الدِّين بقوله ﷺ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]؛ لأن الكمال يكون بعد عدمه.

وكذلك قول الرسول ﷺ في النساء: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهبَ للُبِّ الرجل الحازم من إحداكن**»[1]، ففَسَّر ـ كما سبق ـ نُقصانَ دينها بتركها الصوم والصلاة وقت الحيض، وإن كانت غيرَ مؤاخَذة؛ لأن الأمر ليس بيدها، ولكن لا تكون مثل الذي يصوم في هذا الوقت ويصلي؛ يعني: لا تساويه، هذا وجه النقصان، وليس فيه ذم، وإنما فيه أن العامل لا يكون مثل الذي لا يعمل، فهذا نقص من الدِّين، وهذا أيضًا دليل صريح على أن الأعمال داخلة في مسمى الدين، فإذَن هذه الأعمال تتفاوت بين الناس، فقد سماه الدِّين.

والمقصود: أن **قوله**: «**بينا أنا نائم... إلى آخره**» أن رؤيا الأنبياء وحي يجب العمل به، وهذا منها، فهو رأى الناس عليهم قُمُص، وفسَّر هذه القمص بالدِّين، وعمر كان ضافيًا قميصُه يجره خلفه؛ لأن دينه كامل، وفيه دليل على تفاوت الناس في الإيمان والعمل، وهو واضح في مثل هذا.

(١) تقدم تخريجه.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: الحَيَاءُ مِنَ الإِيمَانِ

٢٤ ـ **حَدَّثَنَا** عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ، قَالَ: أَخْبَرَنَا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ، ـ وَهُوَ يَعِظُ أَخَاهُ فِي الحَيَاءِ ـ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**دَعْهُ؛ فَإِنَّ الحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ**».

الشَّرح

سبق أن الحياء خُلُق يبعث على حسن الأمور وفعلها، ويمنع عن مساويها ومكروهاتها وقبائحها، والحياء من أعمال القلوب، خير كله، ولكن ليس من الحياء تركُ أمر الله، هذا يكون عجزًا وليس حياءً، مثل من يرى إنسانًا يعمل مخالفة ولا ينهاه أو يرشده ويأمره؛ حياء منه، هذا ليس حياء.

وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنكم كنتم تقولون كلمةً كان يمنعني الحياء منكم أن أنهاكم عنها، قال: لا تقولوا: ما شاء الله، وما شاء محمد**»[1] فيجب أن يُفهَم أن هذا الحياء ليس حياء منهم أن ينهاهم، ولكن حياء من الله؛ أنه لم يأته الوحي في هذا، ولما جاءه الوحي نهاهم، وفي حديث الباب يقول: «**مَرَّ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ، وَهُوَ يَعِظُ أَخَاهُ فِي الحَيَاءِ**»؛ يعني: ينهاه عن الحياء، يترك أشياء ينبغي له ألا يتركها، **فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ**: «**دَعْهُ؛ فَإِنَّ الحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ**».

فإذا كان الخلق الذي في القلب من الإيمان دل:

أولًا: على كثرة خصال الإيمان.

وثانيًا: أن الإيمان يتفاوت، وأنه يكون موزعًا بين أعمال القلوب

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤/ ٢٩٧).

وأعمال الجوارح، وأنه يكون إيمانًا كله، وهذا هو ما دلت عليه العبارة السابقة، والبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ يكرر الأمور للتأكيد وزيادة البيان.

المقصود بالحياء: الحياء الذي يحمل العبد على فعل الخير وترك الشر، أما الحياء الذي يكون جبنًا ويكون خورًا، يمنع الإنسان أن يقول الحق، وأنه يجامل الناس ويسير معهم وإن كانوا على باطل؛ فهذا ليس هو هذا الحياء المطلوب، وإن سمِّيَ حياء، وإنما الحياء الذي يَجمُل به العبد: أن يترُكَ ما يلام عليه، ويُستحيا من فعله عند أولي العقل والبصائر؛ لأن الأخلاق قد تنقلب، قد يحب الباطل والخبيث، ويبغض الحق، فلا عبرة في هذا، العبرة فيما هو ميزان الشرع الذي يكون الفعل محمودًا عليه، والترك يكون أيضًا محمودًا عليه، فإذا ترك هذا وفعل هذا، فهذا الحياء من الله ومن رسوله ﷺ، وكذلك من المؤمنين، يستحيي أن يخالفهم لأمر الله ﷻ، ولا يكون الحامل عليه مراعاة الناس فقط، حمل عليه أمرُ الله وأمر رسوله ﷺ؛ بل يكون مخلصًا في هذا.

وقد سبق أن الحياء من الإيمان، ولكن يجب أن يفسَّر بالحياء الذي يحمل على فعل الخير، وترك ما يُلام عليه أو يُذَم، أو يكون فعله فيه شيء من القدح في الأخلاق، وفي مروءة الإنسان وإن كان لو فعله غيرَ معاقب، أو يكون محمودًا على مثل ذلك.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]

٢٥ ـ **حَدَّثَنَا** عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ المُسْنَدِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو رَوْحٍ الحَرَمِيُّ بْنُ عُمَارَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ وَاقِدِ بْنِ مُحَمَّدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ»**.

الشَّرح

هذا من الأصول التي اعتمدها العلماء وقالوا: إنه أصل عظيم من أصول الإسلام، وهو أن أصل الدين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأن هذا أول ما يجب على الإنسان أن يقوله.

• **قوله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ»** إلى آخره، فيه فرضية الكفاية.

• **قوله: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ»** قال: **«الناس»** واليوم فيه كثير من الناس يقول: إن قتال الكفار لا يجوز إلا أن يكون للردِّ؛ يعني: إذا اعتدوا يقاتَلون، أما إذا كَفُّوا فهم لا يقاتلون، وهذا خلاف **قوله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ»**.

فالتعبير بالناس، والتعبير أولًا بالمقاتلة يدل على أنه ابتداء، وليس كما يقولون: إنه دفاع! فهو من باب المبادءة.

هذا تكرر مرارًا يعني: الاستدلال به، ولكن مثل ما سبق فيه الأمر،

«أُمِرْت»، ومعلوم أن الآمر هو الله ﷻ، ولا أحد يشك في هذا «أن أقاتل الناس»، والأمر قد يكون بالابتداء، ويكون بالفعل إذا وُجد الاستعداد، وقد يكون فيما بعدُ، ثم إنه ﷺ في بداية الأمر أُمِرَ بالكف والصبر والتحمل وألَّا يُقاتِل، حينما كان في مكة، وإنما أُمر بالقتال لما هاجر إلى المدينة، وصار له أنصار ودار، وقوة ومَنَعة.

«حتى» هذه غاية، والغاية لا بد من مراعاتها والنظر إليها، «حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ»، قوله: يشهدوا، الشهادة يجب أن تكون مطابقة لما في القلب؛ يعني: لا بد أن تكون بعلم وعمل، أما أن يشهد بشيء لا يعمل به فهو كذب، ولا تسمى شهادة، تسمى كذبًا؛ ولهذا قال الله ﷻ في المنافقين: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١].

يعني: في شهادتهم هذه كاذبون؛ لأن باطنهم ليس كظاهرهم، قالوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فهم كذابون، فإذَن لا بد من العلم بالشهادة، ولا بد أن يكون عاملًا بهذا العلم، وإلا لا تكون شهادة؛ فالشهادة تقتضي أن يكون العلم تقدم قبل النطق بها، وأن يكون عاملًا بها موقنًا.

ولهذا قيل: أترى الشمس؟ على مِثْلِها فاشهَدْ، لا تشهد على شيء مظنون!

فالشهادة تقتضي العلم، وتقتضي العمل، وتقتضي الأمر والطلب فيها. «فإذا قالوها» القول بأن ينطق بها فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويأتي بحقوقها؛ فيقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويصوم رمضان، وهذا المفهوم لحقوقها الذي فُهِم منها من باب التأكيد، صرح به الرسول ﷺ.

• **قوله**: «وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ»، وفي كثير منها: ويصوموا؛ لأن الصوم فُرِض في السنة الثانية بخلاف الحج؛ فإنه في كثير من الروايات لم يُذكَر؛ لأن الصحيح أن الحج فُرِض في السنة التاسعة من الهجرة، بقوله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، هذه الآية

التي فيها فُرِض الحج، أما قوله ﷻ في سورة البقرة: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] فهذا أمر بإتمام الحج فقط، إتمام الحج والعمرة، إذا دخل الإنسان فيهما وجب عليه أن يتمهما، ولا يجوز أن يقطعهما، يقول: أريد أن أبطل ما كنت دخلتُ فيه، كما يفعله بعض الجهلة، إذا جاء قال: أنا أتراجع لا أستمر، فيقال له: ليس بيدك، هذا أمر يجب عليك أن تَمضيَ فيه، ولكن الآية التي فيها وجوب الحج هي آية آل عمران، وأول سورة آل عمران نزل في السنة التاسعة من الهجرة في سنة الوفود، ومنها هذه الآية.

فلهذا ما حج الرسول ﷺ إلا مرة واحدة، وهي حجة الوداع في السنة العاشرة، وليست التاسعة، فإنه في التاسعة أمر أبا بكر أن يحج بالناس؛ لأن في تلك السنة الحج ليس في وقته، بسبب النسيء؛ ولهذا لما حج في السنة العاشرة خطب قال: «**إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حُرُم**»[1]، ثم ذكر أشياء كثيرة في خطبته، وقد تعددت خُطَبه في الحج؛ خَطَب في عرفة، وخطب في منى عدة مرات يُعَلِّم الناس ويودِّعهم.

ويقول لهم: «**لعلكم لا تلقوني بعد اليوم!**»، فعرفوا أن هذه آخر حياته ﷺ، **فالمقصود**: أنه **قال**: «**فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ**»، «فإذا» هذا يدل على أن الأموال غير معصومة للكافر، وأنها مباحة للمسلم، ولكن هل يأخذها باختلاس؟

لا، ولكن يأخذها بالقوة؛ يعني: بالقتال، ودون القتال لا يجوز أن يأخذها، وهي محرَّمة، فلا يجوز أن يتمتع بأمر محرَّم عليه؛ لأن المال هو نعم الله، ونعم الله جُعلت للتقوي على طاعته.

أما إذا كان يتقوَّى بها على معاصيه فهو ليس أهلًا لها؛ ولهذا سمِّي المال الذي يؤخذ من الكفار فَيئًا؛ يعني: الفيء هو الرجوع؛ لأنه رجع مكانه وإلى محله؛ لأنه كان في غير محله، كل هذا عقاب للكافرين، فإذَن هم

---

(١) تقدم تخريجه.

يتمتعون بمعاصٍ، وتجتمع عليهم في أعمالهم وفي أكلهم وفي كل تصرفاتهم؛ لأنهم عصوا الله ﷻ وهم عبيده، ويأكلون نِعَمَه ويكفرون به!

فكذلك قوله: «**عصموا مني دماءهم إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ**»؛ يعني: وحقها كل واجب أوجبه الله وأوجبه رسوله ﷺ، وهو من حق لا إله إلا الله، ثم هذا يدلنا على أن أول ما يجب على العبد أن يشهد «**أن لا إله إلا الله**»، وهي أول الواجب على العبد، ليس كما يقول أهل الضلال من المتكلمين: أول الواجب النظر، أو قصد النظر، أو الشك، وما أشبه ذلك! لأن هذا كفر بالله ﷻ.

ومقصودهم بالنظر الاستدلال على وجود الله، والاستدلال على وجود الله لا يُجدي شيئًا، ولا يعطي إسلامًا ولا إيمانًا، وإنما يعطي أن الله ﷻ الرب لكل شيء، الخالق لكل شيء، المُوجِد لكل شيء، وهذا لا ينقل الإنسان من الكفر إلى الإسلام أصلًا؛ لأن هذا شيء معلوم ومعروف عند الأمم، فكلها تعلم أن الله هو الخالق، الرازق، المدبِّر الذي بيده ملكوت كل شيء، وكل شيء ملك له، هذا كله يعرفه الناس من قديم، ولا أحد يجهله، كل من عنده عقل بالنظر يعرف هذا.

فلا يكون ذلك مدخلًا للإنسان لا بالإيمان ولا حتى في الإسلام، فهذا أمر الله، ثم هذا فيه النص بأن القول من الإيمان، فهو إذَن القول والعمل والاعتقاد، كما قال أهل السُّنَّة هو الإيمان، هذا المجموع هو الإيمان، مجموع هذه الأشياء الثلاثة: القول والعمل، ومن يقول: العلم، أو يقول: العقيدة، لا مانع، كل ذلك مؤداه واحد، هو الإيمان.

وكذلك يدلنا على أن مقتضى هذا أن يكون الإنسان فاهمًا للمراد، وإلَّا لا يجدي شيئًا، ثم النص على أن الصلاة يجب أن تقام، «**ويقيموا الصلاة**» إقامتها: أن يؤديها على الوجه الذي شرعه الله ﷻ، وشرعه الرسول ﷺ، ومعنى هذا: أنه يأتي بها كاملة، فإن أخلَّ بها فهو إخلال يحاسَب عليه، وقد يكون نقصًا في إيمانه وعمله.

وكذلك أداء الزكاة. يبقى في بعض الروايات أنه لم يذكر الصوم، فما سبب عدم ذكره؟ والجواب عن هذا: أن الصوم ليس من الأمور الظاهرة؛ لأنه

في الواقع سر بين العبد وبين ربه؛ لأن بإمكان الإنسان أن يُظهِر أنه صائم، وإذا خلا بنفسه أكل وشرب دون أن يعلم به أحد! فإذا امتنع من الأكل والشرب دل على أنه مؤمن، وأنه مراقب لله ﷻ، فوُكِلَ إلى إيمانه ولم يُذكَر، هذا هو السبب في هذا. والله أعلم.

المقصود بقوله: بَابٌ: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] أنهم يقاتَلون على هذه الأمور المذكورة، وقد جاءت هذه الآية في سورة براءة في موضعين: هذه ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾، وفي الأخرى: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]؛ يعني: أن هذا هو الإسلام الظاهر الذي هو ترك الشرك، ويكون بالقول؛ بقول لا إله إلا الله.

وسبق أن الإنسان لا يدخل الإسلام إلا بهذا، ولو اعتقد صحة الإسلام، ولو عمل وهو لم يقل، فهو ليس بمسلم، إلا أن يحول بينه وبين ذلك حائل؛ إما عجز، أو ما أشبه ذلك، أما مع التمكن من النطق فلا يُحكَم له بالإسلام حتى ينطق بالشهادتين.

لهذا **قال** ﷺ: **«أُمِرتُ أن أقاتل الناس»** إلى آخره، فكأنه جعل الحديث تفسيرًا للآية؛ لأن الله ﷻ أمره أن يبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم.

• **وقوله: «أقاموا الصلاة وآتوُا الزكاة»** هذه الأمور الظاهرة، أما الصوم فله وضع غير هذا، وهو سر بين العبد وبين ربه، وأما الحج فهو لا يلزم كل أحد، يلزم المستطيع، وعند بعض العلماء يكون على التراخي.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ مَنْ قَالَ: إِنَّ الإِيمَانَ هُوَ العَمَلُ

لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٧٢]، وَقَالَ عِدَّةٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٣، ٩٤]؛ عَنْ قَوْلِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَقَالَ: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٦١].

الشَّرح

• **قال في هذا الباب: «بَابُ مَنْ قَالَ: إِنَّ الإِيمَانَ هُوَ العَمَلُ».**

يعني: أن الإيمان عمل، وهو منقسم بين عمل القلب، وعمل الجوارح كما سبق؛ **لقوله تعالى:** ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٧٢]، قال: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾، ما قال: تُصَدِّقون، أو تؤمنون، قال: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ وهذه من الأدلة التي تبين أن العمل داخل في مسمى الإيمان، ثم الباء هذه ﴿بِمَا﴾ الباء سببية، و﴿ما﴾ يصح أن تكون موصولة، ويصح أن تكون مصدرية؛ يعني: بعملكم، أو بالذي كنتم تعملونه.

• **وقوله: وَقَالَ عِدَّةٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:** ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٣، ٩٤]؛ **عَنْ قَوْلِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،** هذا تفسير خاص، وإلا هذا القول لا يطابق الآية من كل وجه؛ فالآية أعم ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٣، ٩٤]، فـ﴿ما﴾ مثل ما سبق: إما أن تكون موصولة، وإما أن تكون مصدرية، والمصدر أعم.

يعني: يُسألون عن عملهم، يسألون عن كل شيء؛ فلهذا يقول: إن «**عدة من أهل العلم**» قالوا هذا القول؛ يعني: أن هذا القول جزء من المعنى، وليس

هذا المعنى كله الذي دلت عليه الآية؛ فالآية تدل على أكثر من ذلك.

• **وَقَال:** ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٦١]، هذه في سياق قصة القرينين اللذينِ كانا في الدنيا ثم افترقا، صار أحدهما إلى الجنة والآخر إلى النار، وفي تساؤل أهل النعيم في الجنة، يقول ﷺ عنهم: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الصافات: ٥٠، ٥١]؛ يعني: في الدنيا ينهاه عن الإيمان وعن متابعة الحق. يقول: ﴿يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الصافات: ٥٢] هذا استفهام إنكاري، ينكر عليه أن يكون مصدِّقًا ومؤمنًا، ثم يقول لأصحابه وهو في الجنة: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الصافات: ٥٤]؛ يعني: إلى النار ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ [الصافات: ٥٥]؛ يعني: في وسَطِها، فصار يخاطبه يقول: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الصافات: ٥٦، ٥٧] إلى آخر الآيات.

وهذا من العجائب! يعني: رجل في النعيم في أعلى الجنة إذا أراد أن يطَّلِع في جهنم اطَّلع، ذهب وصار هذا سهلًا عنده، ثم يخاطب من في النار؛ وذلك لأنهم فيما يشتهون وما يريدون يحصل لهم، فـ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾ الإشارة إلى النعيم الذي ذكره هذا القرين، وهذا المقام الذي نحن فيه ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

هذا الكلام كأنه شيء واقع، وهو سيأتي، ولكن لتحقُّق الوقوع ذُكر بصيغة الماضي الذي يدل على أنه وقع وانتهى، وهو لم يأتِ بعد، ولكن سوف يقع كما أخبر الله ﷻ تمامًا، وهذا كثير في كتاب الله ﷻ.

❁ ❁ ❁

٢٦ ـ حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ، وَمُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، قَالَا: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ شِهَابٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ: أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: «**إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ**». قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «**الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**». قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «**حَجٌّ مَبْرُورٌ**».

الشَّرح

ذكر هذا الحديث: **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ: أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: «إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ»**، هذا نص في أن الإيمان بالله ورسوله عمل **«إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ»**، كيف يجاب عن الذين ينفون أن يكون العمل داخلًا في مسمى الإيمان؟!

لا جواب عنه بعد هذه النصوص.

• **قوله: «قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟»**؛ يعني: الذي يلي ذلك ما هو؟ قَالَ: «**الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**» والجهاد في سبيل الله هو الموصل إلى طاعته وإلى جزائه وفضله ونعيمه، فيدخل فيه جهاد النفس على الطاعة، وجهادها على الصبر عن المعصية، وهو أمر لازم لا بد منه، لا بد للعبد من الصبر على الطاعة، والصبر عن المعاصي، والصبر على الأقدار التي تصيبه.

فهذه الأمور الثلاثة من الإيمان ولا بد منها، والعبد لا بد أن يصيبه ما يصيبه، فيوطِّن نفسه على أنه سيصاب بالأمراض، ثم في الأخير بالموت، كلها مصائب، فيجب أن يصبر؛ لأن هذا أمر الله، كتبه عليه ولا بد من وقوعه، وهذا من جهاد النفس، ثم كذلك جهاد الشيطان، فالشيطان يحتاج إلى مجاهدة، ومِن أظهرِ هذه الأمور الصلاة؛ فإنه كما جاء في الحديث: «**إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضُراط، حتى لا يسمع التأذين، فإذا قُضي النداءُ أقبل، حتى إذا ثُوِّبَ بالصلاة أدبر، حتى إذا قُضِي التثويبُ أقبل، حتى يخطُرَ بين**

المرء ونفسه، يقول: اذكُرْ كذا، اذكر كذا»[(١)]؛ يعني: هذا في نفسه، وأعطاه الله مقدرة على معرفة الشيء الذي يكون للإنسان به تعلُّق، فتجده مثلًا يذكر أشياء في الصلاة لا يذكرها خارج الصلاة، كل ذلك من الشيطان؛ حتى يشغله عن الصلاة؛ لأن الصلاة صلة بين العبد وبين ربه، فهو يريد أن يقطع هذه الصلة؛ لخبثه وحسده وعداوته، فيجب أن يجاهد هذه اللحظات التي يكون الإنسان في الصلاة، فيجتهد بطرده وحضور قلبه، ويتأمل ماذا يقال، وماذا يتلى، ويتأمل ماذا يفعل هو، ويتأمل أين هو؟ فإن العبد إذا قال: الله أكبر، فإنه رفع الحجاب بينه وبين ربه.

ولهذا كان المصطفى ﷺ إذا حزبه أمر فَزِع إلى الصلاة، والله ﷻ يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥] فهي في الواقع صلة، ويقول ﷺ: «**إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه**»[(٢)]، هذا فضل عظيم، ينبغي أن يتأمل العبد الحديث الذي في «صحيح مسلم»؛ حديث أبي هريرة، وهو حديث قدسي: عن النبي ﷺ يقول: «**قال الله تعالى: قسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾** [الفاتحة: ٢]، **قال الله تعالى: حمدني عبدي**»[(٣)]، الصلاة المقصود بها هنا قراءة الفاتحة، إذا استشعر الإنسان أن الله يخاطبه، يقول: حَمِدَنِي عَبْدِي، هذا شرف عظيم وفوز كبير للعبد، فلا يغفل عن هذا.. إلى آخر ما جاء في الحديث.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٢٥)، كتاب الأذان، باب فضل التأذين، ورقمه (٦٠٨)، وأخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٣٩٨)، كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه، ورقمه (٣٨٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٩٠)، كتاب الصلاة، باب حك البزاق باليد من المسجد، ورقمه (٤٠٥)، وأخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٣٩٠)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن البصاق في المسجد، ورقمه (٥٥١).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٢٩٦)، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، ورقمه (٣٩٥).

• **قوله: «قيل ثم ماذا؟»** جاء هذا للترتيب، **قَالَ: «حَجٌّ مَبْرُورٌ»** يقول كثير من العلماء: الحج المبرور: الذي لم يخالطه معصية، وجاء ببره؛ يعني: صار برًّا وهدًى، والعمرة كذلك تسمَّى حجًّا؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] تامًّا، يقول: ﴿لِلَّهِ﴾؛ يعني: يجب أن تكون خالصة لله، ليس فيها مقاصد أخرى، وليس فيها مرادات للنفوس أو أمور تَصرِف الإنسان عن ذلك.

فهذا الحج هو القصد الذي كلَّف الله عباده به، قَصْد البيت، وهو امتحان للعبد في بدنه وفي عقله، هل تُسَلِّم لله أو تعترض على هذه الأمور التي بعض الناس لا يستسيغها؟ مثل رمي الجمار، والطواف على البيت، والمبيت في منى، وفي مزدلفة، والوقوف بعرفات، يقولون: ما نعقل لها معنى! لأنكم قاصرون، وهذه أوامر الله، ولو فُتح هذا الباب للمجرمين الملاحدة، لصار الدين كله لا يعقلون له معنًى، وقد يقول قائل: لماذا إذا أردنا أن نصلي نغسل وجوهنا وأيدينا وأرجلنا إلى آخره؟ أو إذا فقدنا الماء نضرب بأيدينا الأرض ونمسح وجوهنا إلى آخره؟ **نقول:** كل هذه تكاليف لك، هل تذعن وتنقاد وتطيع وتسلِّم وتكون عبدًا لله، أو أنك تنازع الله كما نازعه الشيطان في أمره حينما أمره بالسجود؟ ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الحجر: ٣٣]، وفي موضع: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢] ولا بد أن يكون له أتباع؛ بل أكثر الناس أتباع له في هذا.

والمقصود: أن الحج المبرور هو الذي صار طاعة خالصة لله ﷻ، فهو من الجهاد؛ ولذا عُطف عليه بـ**«ثم»** التي تدل على العطف مع التراخي، والترتيب أيضًا.

فهذه كلها أعمال، وهي إيمان كما سبق، والبخاري رحمه الله تعالى يشير بهذا إلى أن الإسلام هو الإيمان، وسبق الكلام في هذا، وأن الصحيح أنه إذا اجتمع الإسلام مع الإيمان فُسر كل واحد بما دل عليه.

ولهذا جاء في «الصحيحين» من حديث عمر رضي الله عنه عند مسلم، وحديث

أبي هريرة ﷺ من رواية البخاري: حديث جبريل عليه السلام الذي فيه التفرقة بين الإسلام والإيمان، ففسر الإسلام بالأمور الظاهرة: شهادة أن لا إله إلا الله، إقام الصلاة... إلى آخره، وكذلك في حديث أبي هريرة فسر الإيمان بالأعمال الباطنة: «**أن تؤمن بالله وبملائكته وكتبه...**» إلى آخره[١].

وفي «الصحيحين» في حديث وفد عبد القيس، لما جاؤوا للرسول ﷺ وقالوا: مُرْنا بأمرٍ نأخذ به ونبلغه مَن وراءنا؛ يعني: أمرًا يكون جامعًا يكفيهم؛ لأنهم بينهم وبين الرسول كفَّارٌ يحولون بينهم وبين الوصول إليه، قال: - «**آمركم بالإيمان بالله، وهل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وتعطوا من المغنم الخمس**»[٢] فسماه إيمانًا، وهذا الذي سماه إيمانًا في حديث جبريل عليه السلام جعله هو الإسلام، فهذا دل على أنه إذا جاء أحدهما مفردًا، دخل فيه الآخر، وإذا قُرن أحدهما بالآخر فيفسَّر كل واحد بما يناسبه، **وهذا هو الصحيح**، وهو الذي تجتمع فيه الأدلة، حتى إن محمد بن نصر رحمه الله في كتابه «تعظيم قدر الصلاة» زعم أن كون الإسلام مع الإيمان مترادفًا؛ أن جمهور أهل السُّنَّة عليه، وكذلك ابن عبد البر في «التمهيد» قال قريبًا من ذلك أو مثله، والحقيقة أن هذا فيه نظر، ليس كذلك؛ جمهور أهل السُّنَّة على خلاف هذا؛ على الفرق بين هذا وهذا.

❁ ❁ ❁

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٦١)، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦]، ورقمه (٧٥٥٦)، وأخرجه مسلم في الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقَدَر، وعلامة الساعة، ورقمه (١٧).

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ إِذَا لَمْ يَكُنِ الإِسْلاَمُ عَلَى الحَقِيقَةِ، وَكَانَ عَلَى الِاسْتِسْلاَمِ أَوِ الخَوْفِ مِنَ القَتْلِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] **فَإِذَا كَانَ عَلَى الحَقِيقَةِ، فَهُوَ عَلَى قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾** [آل عمران: ١٩]

٢٧ ـ حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عَامِرُ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنْ سَعْدٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَعْطَى رَهْطًا ـ وَسَعْدٌ جَالِسٌ ـ، فَتَرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا هُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ؟ فَوَاللهِ إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا، فَقَالَ: «أَوْ مُسْلِمًا» فَسَكَتُّ قَلِيلًا، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ، فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي، فَقُلْتُ: مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ؟ فَوَاللهِ إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا، فَقَالَ: «أَوْ مُسْلِمًا». ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي، وَعَادَ رسولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا سَعْدُ، إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ، وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ**» وَرَوَاهُ يُونُسُ، وَصَالِحٌ، وَمَعْمَرٌ، وَابْنُ أَخِي الزُّهْرِيِّ، عَنِ الزُّهْرِيِّ.

الشَّرح

• **قوله: بَابُ إِذَا لَمْ يَكُنِ الإِسْلاَمُ عَلَى الحَقِيقَةِ، وَكَانَ عَلَى الِاسْتِسْلاَمِ أَوِ الخَوْفِ مِنَ القَتْلِ.**

مقصوده بـ«**الاستسلام**»؛ يعني: في الظاهر فقط، أنه استسلم؛ أي: ما نازع بل أطاع، ولكنه في باطنه على خلاف ذلك؛ يعني: النفاق، فهو يحمل هذه الآية على هذا، والحديث على ذلك، والحديث في الواقع بعيد عن هذا المعنى، وكذلك الآية.

ولكن هذا يدل على ما قاله جمهور أهل السُّنَّة، أن الإسلام غير

الإيمان، ويبين هذا أن هؤلاء أتوا إلى النبي ﷺ ليدخلوا في الإسلام من أول وهلة قالوا: آمنا، وقال لهم ﷻ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات: ١٤] فهم دخلوا في الإسلام، ولكنه لم يتمكن الإيمان من قلوبهم بعدُ، ما ثبت وتمكَّن، ولكنهم انقادوا وأسلموا، وقالوا: لا إله إلا الله، فهم مسلمون.

وهذا يدل على أن الإنسان لا ينبغي له أن يقول: أنا مؤمن ويجزم؛ بل يقيِّد هذا، كما هو مذهب أهل السُّنَّة، بأن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، وليس هذا شكًّا، كما تقوله المرجئة، يسمون أهل السُّنَّة شكَّاكًا، يشكُّون في دينهم، والشك في الدين كُفر.

ونقول: هذا ليس شكًّا، هذا استثناء؛ لأن الإيمان درجته رفيعة، فإذا قام الإنسان بالأوامر على الوجه المطلوب صار مؤمنًا، ولكن هل يأتي بها على الوجه المطلوب؟ لا يلزم، صلينا قبل قليل، ولكن هل جئنا بالصلاة على الوجه المطلوب الأتم؟! ما يلزم، هذا نادر؛ ففيها سهو، وفيها غفلة، وفيها إعراض، وفيها وفيها.

فكل واحد منا قد لا يرضى عن عمله هذا، يود أن يكون أحسن حالًا؛ فلهذا الأعمالُ كلها على هذا الوجه، إذا علم الإنسان أنه أتى بالأوامر على ما أمر الله ورسوله، واجتنب النواهي كذلك، فليجزم، يقول: أنا مؤمن، ولكن هذا صعب.

• **فقوله ﷺ في هذه الآية: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾** [الحجرات: ١٤] أسلمنا، ليس معناه هنا أسلمنا: أنَّا منافقون؛ لأن البخاري رحمه الله تعالى يقول: يُحمَل على الظاهر، والظاهر معناه أن الباطن لا إسلام فيه، هذا فقط في القول عنده، والآية على خلاف ذلك، وأما الحديث فهو أبين من ذلك، وذلك أن الرسول ﷺ قَسَم هذا القَسْمَ وصار يعطي الناس، وترك رجلًا يقول سعد: هو أعجبهم إليَّ، أعجبهم؛ يعني: أنه يراه أفضلهم في عمله؛ فعن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أعطى رهطًا وسعد

جالس، فترك رسول الله ﷺ رجلًا هو أعجبهم إليَّ، فقلت: يا رسول الله، ما لك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمنًا، فقال: «أو مسلمًا» فسكتُّ قليلًا، ثم غلبني ما أعلم منه، فعدت لمقالتي، فقلت: ما لك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمنًا، فقال: «**أو مسلمًا**». ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي، وعاد رسول الله ﷺ، ثم قال: «**يا سعدُ، إني لأعطي الرجل، وغيره أحب إلي منه؛ خشية أن يكبَّه الله في النار**»(١).

• **فقوله**: «**أَوْ مُسْلِمًا**»؛ يعني: قل «**مُسْلِمًا**» فهذا فيه الإشارة إلى ما ذهب إليه أهل السُّنَّة أن الإنسان لا يجزم بأنه مؤمن، ولكن يستثني.

أما الإسلام فلا استثناء فيه؛ يعني: ما يقول أنا مسلم إن شاء الله؛ بل يقول أنا مسلم ويجزم؛ لهذا **قال**: «**أَوْ مُسْلِمًا**»؛ يعني: قل: مسلم، لا تقل: مؤمن.

• **وقوله**: «**إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ، وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ**»؛ يعني: خشية أن يعترض على الرسول، فيكون في نفسه عليه شيء، فيُكَب في النار؛ لأن الإيمان لم يتمكن من قلبه، فيترك الذي تمكن الإيمان منه.

وقد جاء هذا صريحًا في حديثٍ آخر: أن النبي ﷺ قال: «**إني أعطي الرجل وأدع الرجل، والذي أَدَعُ أحبُّ إليَّ من الذي أعطي، أعطي أقوامًا؛ لِما في قلوبهم من الجزع والهلع، وأَكِلُ أقوامًا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير**» «**إني أعطي قومًا؛ لما ما في نفوسهم من الهلع، وكذا وكذا، وأَكِلُ أناسًا إلى إيمانهم، منهم فلان**» منهم: عمرو بن تغلب، فقال عمرو: ما أحِبُّ أن لي بكلمةِ رسول الله ﷺ حُمْرَ النَّعَمِ!(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٤)، كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة، وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل، ورقمه (٢٧)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٣٢)، كتاب الإيمان، باب تألُّف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه، ورقمه (١٥٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٩، ١٥٦)، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢١]، ورقمه (٧٥٣٥).

فالمقصود أن الحديث يدل على الفرق بين الإسلام والإيمان؛ يعني: عكس ما ذهب إليه البخاري رحمه الله تعالى، ويدل على هذا قول الرسول ﷺ لسعد: «**أو مسلِمًا**»؛ يعني: قل مسلمًا، ولا تقل مؤمنًا، هذا معناه، ولأن الإيمان أمره مستور، أمره في القلب، لا يُطلع عليه أحد من الناس، ولكن يُطلع على آثاره ونتائجه، فلا بد أن تكون آثار الإيمان ظاهرة؛ فالآثار لا تكفي في الجزاء.

وهذا في الواقع دل على أن الحكم على الظاهر في كل شيء؛ ففيه الرد على الذين يقولون: الكفر يكون كفر اعتقاد فقط، وهذا قول باطل؛ فالكفر يكون في الاعتقاد، ويكون في العمل، وفي هذا جاء في «صحيح مسلم»: «**إنَّ بين الرجل وبين الشرك والكفر تَرْكَ الصلاةِ**»[(١)]، وفي «المُسنَد» و«السنن»: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر**»[(٢)]، والصلاة عمل ظاهر، والأدلة على هذا كثيرة جدًّا، وفي هذا نقول: هذا قول مُحْدَث، ومن أبطل الأقوال وأكثرها بطلانًا.

فالمقصود: أن هذا يدل عليه، في مفهومه ومقابله، وسعد أقسم قال: فوالله إني لأراه، بفتح الهمزة؛ يعني: أعلمه، وإذا «أُراه» بضمها، فبمعنى: أظنه، ولكن الحديث بالفتح وليس بالضم، إني لأَراه مؤمنًا؛ يعني: أعلمُه لما ظهر منه، هذا مقصوده، بقوله: مؤمنًا، فنهاه الرسول ﷺ عما قال، وفي رواية في مسلم: فضرب رسول الله ﷺ بيده بين عنقي وكتفي، ثم قال: «**أقتالًا؟! أيْ سَعدُ، إنِّي لأعطي الرجل...**»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٨٨)، كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، ورقمه (٨٢).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨/ ٢٠)، والترمذي في سننه (٥/ ١٤)، كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، ورقمه (٢٦٢١). وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، وأخرجه ابن ماجه (٢/ ١٨١)، كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة، ورقمه (١٠٧٩).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٣٣)، كتاب الإيمان، باب تألُّف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه، ورقمه (١٥٠).

فالمقصود: أن استدلال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الآية بعيد، والحديث على أن الإسلام هو الإيمان، وأن الأعراب منافقون، وأن هذا الرجل منافق الذي قال سعد عنه إنِّي لأَراه مؤمنًا، وهذا مقصوده، وهذا بعيد جدًّا؛ فالحديث يرده؛ لأن قوله: «**إني لأُعطي الرَّجلَ وغيرهُ أحب إليَّ منهُ**» هذا يرد هذا الاستدلال، وهو الظاهر في ذلك. والله أعلم.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: إِفْشَاءُ السَّلَامِ مِنَ الإِسْلَامِ

وقَالَ عَمَّارٌ: «ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الإِيمَانَ: الإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ، وَالإِنْفَاقُ مِنَ الإِقْتَارِ».

الشَّرح

• **قوله: «بَابٌ: إِفْشَاءُ السَّلَامِ مِنَ الإِسْلَامِ»**، ما قال: من الإيمان، والمفترض أن يكون من الإيمان؛ لأن الكتاب كتاب الإيمان؛ لأن الإسلام عنده والإيمان شيء واحد، والبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ يشير في أبواب الإيمان إلى الرد على المرجئة، فالمرجئة هم من أشر الطوائف التي تدعو إلى ترك العمل؛ حيث قالوا: إنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، فهذا من أبطل الكلام وأخبثه.

• **قوله: «بَابٌ: إِفْشَاءُ السَّلَامِ مِنَ الإِسْلَامِ»**؛ لأن السلام يكون بالظاهر، بالكلام المسموع الذي يُلقى على الناس يسمعونه، وليس بالأمور الباطنة؛ لهذا قال: **«من الإسلام»**، وعنده كله سواء، قلت: من الإسلام أو من الإيمان؛ يعني: الإسلام والإيمان عنده سواء.

• **قوله: وقَالَ عَمَّارٌ: «ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الإِيمَانَ: الإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ..»**؛ يعني: أن الإنسان يتبع الحق ويقوله ويُظهره وإن كان عليه، وهذا يدل على العدل، وعلى أنه حمله على ذلك إيمانُه.

• **قوله: «وبذل السلام للعَالَمِ»**، يقول: **«للعالَمِ»**؛ يعني: بذل السلام للكل، بأن تسَلِّم على من لقيتَ، سواءٌ ردَّ عليك أو لم يرُدَّ.

• **قوله: «والإنفاق من الإقتار»**؛ يعني: من الإعواز، ومن الفقر، إذا كان الإنسان بحاجة ينفق، وهذا يدل على الرغبة في الخير، وأن هناك ما يحمله على هذا، والذي حمله الإيمانُ بالجزاء، والإيمان بملاقاة الله، والإيمان بأنه يكون له بهذا العمل ما هو خير وأفضل عند الله، هذا كلام جميل؛ يعني: في الواقع.

٢٨ ـ حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، قَالَ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، عَنْ أَبِي الخَيْرِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَيُّ الإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: **«تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»**.

الشَّرح

• **قوله: أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ: أيُّ الإسلام خير؟** فالذي تقدَّم «**أيُّ الإسلام أفضلُ؟**» وهنا قال: «**أيُّ الإسلام خير؟**» ومقصود البخاري رحمه الله تعالى أن التعبير هذا يساوي التعبير السابق؛ السابق قال: الإيمان، وهنا قال: الإسلام، فإذَن الإسلام والإيمان شيء واحد، هذا من استدلاله لذلك.

ولكن هنا جاء الجواب: «**تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**»، وهناك الجواب جاء مختلفًا؛ يعني: مغايرة بين هذا وذاك، فلا يتم الاستدلال بذلك على هذا؛ فقد جاء الجواب بقوله: «**إيمان بالله ورسوله**»، فإطعام الطعام لا يساوى الإيمان بالله ورسوله، وهذا أمر ظاهر ومحسوس؛ فهو بذل للمال خلاف الإيمان بالله ﷻ، فهنا السؤال عن الإسلام، ما سأل عن الإيمان، قال: أي الإسلام خير؟ وهناك: أي: الإيمان أفضل؟ يعني: خصال الإيمان، وهنا خصال الإسلام.

ولهذا جاء الجواب مطابقًا للسؤال، وذاك الذي قبله أيضًا مطابق للسؤال تمامًا، أما قول من يقول: إنه كان السائل مختلف الحال: الأول له حال، فأجيب بجواب غير ذلك، وهذا له حال أخرى، فأجيب بغير ذلك ـ فليس بظاهر، الظاهر أنه هذا نفسه أول سؤال عن الإيمان، وهذا سؤال عن الإسلام، وجاء الجواب حسب السؤال بذلك. والله أعلم.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ: كُفْرَانِ العَشِيرِ، وَكُفْرٍ دُونَ كُفْرٍ.
فِيهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ

٢٩ ـ **حَدَّثَنَا** عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ، يَكْفُرْنَ**» قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ بِاللهِ؟! قَالَ: «**يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ؛ لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ!**».

الشَّرْح

• **قوله**: «**بَابُ كُفْرَانِ العَشِيرِ..**»، والعشير: هو المُعاشِر الذي يكون معك في ليلك ونهارك، ولا يلزم أن يكون هكذا، ولكنه يكون ملازمًا، وقُصد بهذا الزوج؛ لأنه هو الذي يكون معاشرًا لزوجته.

• **قوله**: «**وَكُفْرٍ دُونَ كُفْرٍ**»؛ يعني: أن هذا الكفر ليس هو الكفر المخرج من الدين الإسلامي، ولكنه يُطلَق عليه أنه كفر.

وهكذا جاء في غيره أنه «**كفر دون كفر**»، حتى جاء في الحكم بغير ما أنزل الله أنه بعضه «**كفر دون كفر**»، كما هو قول المفسرين من الصحابة وغيرهم.

• **وقوله**: **فيه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ**؛ يعني: فيه حديث أبي سعيد، عن النبي ﷺ.

ثم ذكر حديث ابن عباس؛ يعني: غيره، وقال: «**أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ**».

وفي رواية: أن امرأة قامت وقالت: لماذا يا رسول الله ﷺ قال:

«**لأنكن تُكثِرْنَ الشَّكاةَ، وتكْفُرنَ العشير**»[1] وهذا يدلنا على نصح رسول الله ﷺ وقيامه بالحق، لو أن الإنسان قام الآن أمام النساء يتلطف ويذكر لهن الشيء الذي يفرحن به أو يُرِدْنه، ولا يذكر مثل هذا لهن، فهذا فيه غش في الواقع، وفيه عدم النصح، فيجب أن ينصح حتى تحتاط المرأة لنفسها وتقوم بما يلزم؛ لئلا يصيبها العذاب وتقع في النار.

هذا الواجب الذي يجب أن يقال ويقدَّم وينصح، وإن كان سماع ذلك مكروهًا لدى بعض السامعين، ولكن كونه يسمع مكروهًا فيحتاط لنفسه أولى من أن يسمع شيئًا يروق له، ثم يبقى في خطر، أو في العمل الذي يقوده إلى العذاب!

• **قوله: «أُرِيتُ النار»** هذه «أُرِيتُ» يجوز أن يكون في اليقظة، ويجوز أن يكون في النوم، وكلاهما سواء؛ لأن منامات الرسول ﷺ كيقظته، وهو تنام عيناه ولا ينام قلبه، فقلبه يقْظان دائمًا، فرؤيته؛ يعني: رؤية المنام التي يراها كرؤية العين، فهي وحي.

وفي هذا دليل على وجود النار، وأنها موجودة الآن؛ لأنها لو كانت غير موجودة الآن ما رآها، وأدلة هذا لا حصر لها، والقرآن مملوء من الأدلة التي دلت على وجودها؛ كقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤] الإعداد فيما يأتي؟ إنه شيء موجود.

• **قوله: «أُرِيتُ النَّارَ»** وهذه الرؤية قد تكون في المنام، وقد تكون في اليقظة، وهو رآها في منامه ورآها في يقظته، وعُرِضَت عليه في مسجده لما قام يصلي صلاة الكسوف، فتقدَّم ثم تقهقر ثلاث مرات، فلما سألوه قال: «**عُرِضَت عليَّ الجنة والنار دون هذا الحائط، حتى خفت أنها تأتي عليكم، فقلتُ: يا ربِّ وأنا فيهم؟!**» فكل هذا بقدرة الله ﷻ، كما أنه زُوِيَت له الأرض وشاهد مشارقها ومغاربها، كل ذلك من الآيات التي يعطيها الله رسولنا ﷺ.

• **وقوله: «أُريتُ النار فإذا أكثر أهلها النساء، يَكْفُرْنَ»، قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٦٠٣)، كتاب صلاة العيدين، ورقمه (٨٨٥).

بِاللهِ؟ قَالَ: «يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ؛ لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ» الدهر: يعني: الليل والنهار كله «ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا»؛ يعني: على خلاف الإحسان «قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ!».

فهذا لا يلزم منه أن يكون النساء كلهن هكذا، ولكن هذا الغالب، وقول الرسول ﷺ هنا واضح، وفيه النصح للنساء أن يحذرن المَخُوف.

• **قوله: «كفران العشير، كفرٌ دون كُفر»**؛ يعني: أنه ليس كفرًا مخرجًا من الدين، والكفر أصله لغةً: الجحود والتغطية، تغطية الحق وستره؛ ولهذا يسمَّى الفلاح الذي يزرعُ كافرًا؛ لأنه يغطي البذر بالتراب، والكفر قد يطلق على بعض الأعمال ولا يراد به حقيقة الكفر، فقد يكون كفر نعمة، وقد يكون كفر جَحْد الحق الذي يجب أن يقر به ويقابَل بالجزاء.

• **قوله: «قال: يكْفُرْنَ العشير...»** وهذا ليس على إطلاقه؛ يعني: هذا الغالب، كثير من النساء هذه صفاتهن، وقد تكون النساء خيرًا من الرجال في بعض الأمور وغيرها، وكل إنسان لا بد أن يجزى بعمله؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وفي الحديث الآخر أيضًا يقول: «**رأيتُ جهنم يحطِمُ بعضها بعضًا، ورأيتُ عَمْرًا يجُرُّ قُصْبَه، وهو أول من سَيَّب السوائِبَ**»[1].

ويدل هذا على أن العبد قد يدخل النار عقابًا له، ثم يخرج منها، فإذا كان مثل هذا لأجل عقوبة فعلها فإنه لا يبقى فيها إذا كان مسلمًا.

وقوله: «**قيل له**»؛ يعني: القائل، سواء يكون من الرجال أو من النساء «**أَيَكْفُرْنَ بِاللهِ؟ قَالَ: يَكْفُرْنَ العَشِيرَ**» العشير هو الزوج، وكفرانه: يُجْحَد ما يقدِّمه للمرأة من الخير والإحسان وما يجب، لكن هذا ـ كما سبق ـ ليس على إطلاقه؛ قد يكون الرجل ظالمًا للمرأة، والمرأة ضعيفة، وظُلْم الضعفاء من شِيَم أهل الباطل، وأهل الضلال؛ ولهذا حث الرسول ﷺ على الإحسان

---

(١) أخرجه البخاري، باب ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾، ورقمه (٤٦٢٤) ومسلم، ورقمه (٩٠٤).

إليهن، وقال: «**فإنهنَّ عندكم عوانٍ**»[١]؛ يعني: أسيرات، وقال: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»[٢].

وهو خير الناس لأهله صلوات الله وسلامه عليه، وهو القدوة، والزوج مع زوجته يجب أن يتغاضى كل واحد عما يصدر من الآخر؛ حتى تستقيم الأمور، أما إذا كانت المحاسبة على كل شيء فلن تستقيم الأمور.

والمقصود: أن هذا يدل على أن أعمال المعاصي قد تسمَّى كُفرًا ولا يراد به إخراج الإنسان بها من الدين؛ لهذا سمى عدم القيام بحق الزوج وترك حسن العشرة كُفرًا، فسمى العمل كفرًا **بقوله**: «**يكفرن العشير**»، ولكنه كفر دون كفر، فدل على أنه يطلق على بعض الأعمال أنها كفر، لكنها لا تخرج صاحبها من الدين، وهذا مثل ما سبق.

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣/ ٤٥٩)، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، ورقمه (١١٦٣)، وابن ماجه في سننه (٣/ ٥٧)، أبواب: النكاح، باب حق المرأة على الزوج، ورقمه (١٨٥١).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٥/ ٧٠٩)، كتاب المناقب، باب في فضل أزواج النبي ﷺ، ورقمه (٣٨٩٥)، وأخرجه ابن ماجه في سننه (٣/ ١٤٨)، كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء، ورقمه (١٩٧٧).

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: المَعَاصِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ، وَلَا يُكَفَّرُ صَاحِبُهَا بِارْتِكَابِهَا إِلَّا بِالشِّرْكِ

لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»، وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

٣٠ ـ حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ وَاصِلٍ الأَحْدَبِ، عَنِ المَعْرُورِ، قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ**».

الشَّرح

• **قوله**: «**بَابٌ: المَعَاصِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ، وَلَا يُكَفَّرُ صَاحِبُهَا بِارْتِكَابِهَا إِلَّا بِالشِّرْكِ**»؛ لأن الشرك من أمر الجاهلية أيضًا، والجاهلية ضد العلم، فهي مضافة إلى الجهل، والجهل لا أحد يرضى به، حتى الجاهل نفسه لو قلت: أنت جاهل، لأبى أن يقبل ذلك! فالجاهلية يعني: ضد الإسلام.

وأمر الكفر والجاهلية يكون بعيدًا عن الإسلام؛ ولهذا **قال**: «**ولا يكفَّر**»؛ يعني: الإنسان ـ على مذهب أهل السُّنَّة ـ قد يكون فيه خصال من الخير كثيرة والإيمان، وفيه خصال من الجاهلية، ولا يكون بذلك كافرًا.

وهذا مطَّرِد في جميع الحالات والأمور، قد يكون مؤمنًا، ولكن عنده خصال من الكفر أو من النفاق، وهو لِمَا غَلَب عليه؛ يعني: الحكم عليه بما

غلب، فإذا كان الكثير الغالب هو خصال الخير والإيمان فهو مؤمن، غير أنه يكون ناقص الإيمان، ولا يكون بهذا كافرًا كما تقوله الخوارج والمعتزلة، الذين يجعلون مرتكب الكبيرة أو غيرها من الذنوب خارجًا من الدين الإسلامي.

والمعتزلة يقولون: خرج من الإيمان ولم يدخل في الكفر! والخوارج يقولون: خرج من الإيمان فصار كافرًا ويجب قتله، وإذا مات فهو في النار! ووافقهم المعتزلة على الحكم الأخير، وهو كونه في النار، وهذا كله باطل خلاف الأدلة التي جاء بها الرسول ﷺ.

• **وقوله:** «**إلا بالشرك**»؛ يعني: أن الإنسان إذا وقع في الشرك يكون بذلك خرج من الدين الإسلامي، وصار مشركًا.

• **قوله: لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»**؛ يعني: أبا ذر رضي الله عنه، مع علمه وفضله وزهده، وكونه من أولياء الله، ففيه جاهلية، فدل على أن ولي الله قد يكون فيه شيء على خلاف مراد الله ﷻ ودينه، وأنه لا يخرج بذلك عن ولاية ربه ﷻ، ولكن لا يكون كمن خلا من ذلك، والله حَكَم عدل.

• **وقوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، الغَفْر هو الستر والوقاية، ﴿لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾؛ يعني: لا يستره ولا يقيه أثر ذنبه؛ بل يأخذه به، وهذا من بين الذنوب كلها؛ فالشرك غير مغفور لصاحبه. نسأل الله السلامة من الشرك.

والشرك صعب، مع دقته وكثرة أنواعه وخفائها على كثير من الناس؛ كالحُبِّ على الباطل، والبغض على الحق، وهذا قد لا يخلو منه مجتمع؛ بل قد لا يخلو منه غالب العباد.

• **وقوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ «**أن**»: مصدرية، و«أن» المصدرية وما دخلت عليه من أدوات العموم، كما ذكر ذلك الأصوليون؛ يعني: أن الله لا يغفر الشرك، فدخل في هذا الشركُ الأكبر والأصغر.

• **وقوله:** ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ يعني: ما هو دون الشرك، وأقل منه يغفره إذا شاء لمن يشاء، هذه مسألة مشهورة بين العلماء، هل الشرك الأصغر مغفور أو غير مغفور؟ يعني: هل هو تحت المشيئة، أو ليس كذلك مع الأكبر؟

الظاهر أنه مع الأكبر، ولا يلزم أن يكون المشرك الذي وقع في الشرك الأصغر أن يكون كافرًا، أو خرج من الدين، ولكن ذنبه غير مغفور، لا بد أن يؤاخَذ به، سواء مصائب في الدنيا، أو عذاب في القبر، أو عذاب في الموقف، أو عذاب في النار، ثم بعد ذلك يكون مآله إلى الجنة. والإنسان ضعيف، لا يستطيع العذاب، عذاب الله عظيم، ليس كعذاب الخلق!

والمقصود: أن قوله: بَابٌ: المَعَاصِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ، وَلَا يُكَفَّرُ صَاحِبُهَا بِارْتِكَابِهَا إِلَّا بِالشِّرْكِ كما تقدم أن الإنسان إذا دخل في الإسلام فلا يجوز إخراجه منه إلا بترك ما دخل به؛ يعني: ترك الإسلام نفسه، والإسلام أن يستسلم لله بالطاعة، ويتبرأ من الشرك وأهله، هذا هو تعريف الإسلام، فلا يخرج الإنسان منه إلا أن يفعل الشيء الذي ينافيه، وهو الشرك بالله.

والشرك بالله: أن يجعل العبادة لله ولغيره من المخلوقين، فهذا هو حقيقة الشرك؛ أن يجعل العبادة منقسمة بين من هي له الذي هو الله، وبين المخلوق، سواء كان المخلوق بشرًا، أو شجرًا، أو حجرًا، أو قبرًا، أو ميتًا، أو غير ذلك، غير أن **الشرك ينقسم إلى قسمين:**

القسم الأول: شرك أكبر.

القسم الثاني: شرك أصغر؛ فالأصغر لا يكون مُخرجًا من الدين، وإنما الذي يُخرج من الإسلام هو الشرك الأكبر الذي هو جَعْل نوع من العبادة لغير الله.

والجاهلية مأخوذة من الجهل الذي هو ضد العلم، وهذا يدلنا على أن العلم الحقيقي الذي ينفع هو الذي أتى به الرسول، وليست العلوم التي تُستنتج بالأفكار وبالنظر وبالتجربة وبغير ذلك، هذه وإن كانت نافعة لكن الحقيقة ليست هي العلم الذي يكون به النجاة ويكون به معرفة حق الله، ومعرفة ما

يجب له وما يمتنع عليه؛ بل لا بد أن يكون جاء بالوحي، وهو الذي تكون به النجاة من عذاب الله.

والجاهلية قد تكون لزمن معين، وقد تكون في أزمان مختلفة، فكل ما خالف الإسلام فهو جاهلية، وهذا يدل عليه؛ لأنه **قال**: «**إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ**».

• **قوله**: «**لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ**» الرَّبَذَةُ: مسكنه ﷺ، سكن فيها، وتوفي فيها.

• **وقوله**: «**وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ**»، الغلام المقصود به: المملوك، كان في ذلك الوقت كثرت الغلمان والجواري؛ لوجود الجهاد في سبيل الله.

• **وقوله**: «**فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ**»؛ لأن العادة أن السيد يتميز عن مملوكه باللباس، هو ما تميَّز، صار وإياه سواءً! فهذا صار مُلفتًا للنظر؛ ولهذا سأله: لماذا أنت مثل غلامك في اللباس؟ فأخبره بالحقيقة، «**فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا**» الرجل هو غلامه الذي سابه، «**فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ**».

• **وقوله**: «**سابيت رجلًا**»؛ يعني: الرجل يقصد به مملوكه الذي اشتكاه على رسول الله ﷺ، هذا يدلنا على أن المعاصي لا تخرج الإنسان من كونه صالحًا، بشرط ألا يكون مصرًّا عليها؛ بل قد تكون حالته بعد ارتكاب الذنب أحسن منها قبله، بالتوبة، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين، والتطهر يكون بالماء من الأقذار والأنجاس، ويكون بالخروج من المعاصي، بالتوبة والإقلاع منها، وكلاهما يحبه الله ﷻ.

ماذا قال؟! قال: يا ابن السوداء! هكذا قال! فذهب يشتكي على رسول الله، فدعاه قال: «**أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟!**» قال: نعم، قال: «**إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ**»، قال على كبر سني؟ قال: «**نعم**»؛ فالرسول ﷺ يقول الحق ويفصل به، ولا بد منه، فلا يخشى أحدًا، فصارت هذه مؤثرة فيه.

فدل على أن الرجل الصالح قد يكون فيه جاهلية، وقد يكون فيه معاصٍ، وأنه لا يخرجه ذلك عن كونه من أولياء الله، فأبو ذر من أولياء الله؛ ولهذا أقلع عن هذا الأمر، وأثر به هذا كثيرًا، فصار إذا اكتسَى كسَى غلامَه

بمثل ما اكتسى به؛ لهذا يقول: رأيتُ «**عليه حُلَّة، وعلى غلامه حُلَّة**»، الحُلَّة يعني: الثوبين اللذين يتجمل بهما، فسأله فذكر السبب.

• **قوله: «إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ»**، خَوَلٌ؛ يعني: الذي خُوِّل ومُلِّك، ومعنى «خَوَلُكم»: أن الله خوَّلكم إياهم؛ يعني: أعطاكم إياهم، وملَّككم إياهم، وإلا فهم إخوانكم، وما دام أنه مسلم فهو أخوك، ولكنه الأصل في ذلك الكفر؛ لأن أصل الرق الكفر، وهذا عقاب الله ﷻ للكافر، إذا استولى عليه المسلمون فلهم أن يسترقُّوه ولهم أن يقتلوه، ولهم أن يفادوه، كما هو معلوم في كتب الجهاد وغيرها.

فإذا لم يكن هناك جهاد فلا يوجد الرق إلا بهذا، بعض الناس يزعم أن هناك أرقَّاء من الأصل، ليس كذلك، الرقيق هو الكافر، أما المسلم فهو حر، وهو أخو المسلم، ولا فرق بين مسلم ومسلم إلا بالتقوى، من كان أتقى لله فهو أفضل عند الله وأقرب إلى الله، مهما كان لونه أو عِرْقه أو عمله.

فلهذا أخبرنا ربنا ﷻ أننا كلنا من بني آدم، وآدم خُلق من تراب، وأخبر ﷻ أن أكرمنا عنده من كان تقيًّا، والتقيُّ هو المكرم عند الله، لا بالجنس، ولا باللسان، ولا بالمال، ولا بالبلاد، ولا بغير ذلك؛ بل المسلم أخو المسلم، يجب أن يحِبَّ له ما يحبه لنفسه أينما كان، وعلى أي صفة كان؛ فلهذا قال: «**إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ**».

• **قوله: «جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ»**؛ يعني: خَدَم يخدمونكم «**فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ**» هذا الذي حمل أبا ذر على مساواته للغلام «**لْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ**»، بأنفسكم يعني.

وهذه وصية من رسول الله ﷺ لمن عنده مملوك أن يكون كولده؛ بل يكون كنفسه؛ إذا أكل يأكل من مأكله، وإذا شرب كذلك، وإذا لبس كذلك، وأبو ذر رضي الله عنه امتثل هذا، فأخبر عنه.

والمقصود بذلك: **قوله: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»**، والجاهلية مذمومة، قد تكون من الذنوب وقد تكون من الكفر، هذا ذنب، ويدل على أن المؤمن إذا ارتكب الذنب لم يخرجه ذلك عن كونه مؤمنًا، ولكنه ينقص قدره عند الله، وهذا أمر تظاهرت عليه النصوص.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] فَسَمَّاهُمُ المُؤْمِنِينَ

٣١ ـ حَدَّثنا عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ المُبَارَكِ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، حَدَّثَنَا أَيُّوبُ، وَيُونُسُ، عَنِ الحَسَنِ، عَنِ الأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ: ذَهَبْتُ لِأَنْصُرَ هَذَا الرَّجُلَ، فَلَقِيَنِي أَبُو بَكْرَةَ، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قُلْتُ: أَنْصُرُ هَذَا الرَّجُلَ، قَالَ: ارْجِعْ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا التَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا القَاتِلُ، فَمَا بَالُ المَقْتُولِ؟! قَالَ: «**إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ**».

الشَّرح

• **قول الله ﷻ**: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] **فَسَمَّاهُمُ المُؤْمِنِينَ**؛ يعني: مع وجود القتال، دل على أن الذنوب لا تُخرِج المؤمن من أنه مؤمن، كذلك المسلم.

• **قوله ﷻ**: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾؛ يعني: سماهما مؤمنين مع وجود القتال، فدل على أن القتال بين المؤمنين لا يقتضي خروج واحدة من الطائفتين عن الإيمان، ولكن هذا يدل على نقص الإيمان، أما خروجه فلا؛ فلهذا قال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

والأُخوة يعني: أخوة الإيمان؛ فالأُخوة باقية مع وجود القتال، والقتال لا بد أن يكون فيه قتل، والقتل كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣] وقد صح عن ابن عباس كما سبق أنه قال: ليس للقاتل توبة؛ القاتل عمدًا، ولكن هذا أجاب عنه العلماء فقالوا: **إن القتل يتعلق فيه ثلاثة حقوق يلزمها القاتل، ثلاثة أمور يجب أن يَخرُج منها:**

أحدها: حق الله ﷻ، وهذا يسقط بإقامة الحد عليه مع التوبة.

الثاني: حق الأولياء، وهذا يسقط إما بالعفو، أو بأخذ الدِّيَة، أو بالقِصاص.

الثالث: وهو حق المقتول، فكيف الخلاص منه؟ يُحمل قول ابن عباس على هذا، على حق المقتول أنه لا بد من استيفائه يوم القيامة، والله ﷻ قد يرضي المقتول إذا كان القاتل قد تاب صادقًا، قد يرضيه، وقد جاء بعض الأحاديث يدل على هذا، فإن أول ما يقضى بين الناس في الدماء ويأتي المقتول متمسكًا بقاتله يقول: يا رب سَلْ هذا لِمَ قتلني؟

فإذا كان الرجل قد تاب وصدق في توبته فإنه يقول ﷻ للمقتول: ارفع رأسك، فيرى قصرًا في الجنة بعيد المنال، يقول: يا رب، لمن هذا؟! فيقول: لمن عفا عن أخيه، فيعفو عنه، وليس هذا لكل أحد؛ بل هذا لمن يشاء الله؛ لأن هذا فضل من الله.

ولكن نقول: إن قول ابن عباس يُحمَل على هذا المعنى فقط، أما التوبة فهي من كل ذنب، كما قال الله ﷻ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣] هذا دخل فيه كل ذنب؛ الشرك وغيره، لمن تاب وصدق مع الله ﷻ.

• **وقوله** ﷻ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] فسماهم مؤمنين مع القتال، مما يدل على أن القتال بين المؤمنين أنه لا يقتضي خروج واحد منهم عن الدين الإسلامي مع وجود القتال، ولا بد أن يكون مع القتال قتل.

وأما قوله ﷻ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ الآية [النساء: ٩٣] يقول العلماء: جزاؤه إذا جازاه الله، ولكن يجوز أن الله يعفو عنه، بدليل أنه قال في آيات أخرى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] فسماه أخًا مع القتل، ولا شك أن هذه أُخُوة الدين، وليست أُخُوة النسب.

• **قوله: «عن الأحنف بن قيس قال: ذَهَبْتُ لِأَنْصُرَ هَذَا الرَّجُلَ»**؛ يعني: عليًا، فَلَقِيَنِي أَبُو بَكْرَةَ.

«أبو بكرة» واسمه نُفيع. والبَكْرَة: هي التي توضع على البئر ويوضع فيها الحبل الذي في طرفه الدلو الذي يُنضح به الماء.

والسبب في تسميته أبا بكرة: أنه نزل من حصنٍ بَحبلٍ في بَكْرة هاربًا من الكفار في وقت حصار الطائف، لما كان النبي ﷺ محاصرًا لها، فنزل ببكرة، ولجأ إلى المسلمين، فسمِّيَ أبا بكرة، وهذه كُنية، وليست اسمًا له ولا لقبًا.

والفرق بين الكُنية واللقب: أن الكُنية ما دلت على المدح، واللقب ما دل على الذم، وهذا ليس فيه ذم؛ بل فيه ثناء ومدح، فسمِّيَ أبا بكرة.

• **قوله: «فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قُلْتُ: أَنْصُرُ هَذَا الرَّجُلَ، قَالَ: ارْجِعْ»** هذا يدلنا على أن أكثر الصحابة ما دخلوا في القتال؛ لأن الرسول حذرهم من هذا، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ستكون فِتَنٌ القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرَّفَ لها تَستشرِفْه، فمن وجد منها ملجأً أو مَعاذًا، فلْيَعُذْ به»**[1] فحذرهم منها؛ ولهذا يقولون: الذين وقعوا فيها أعداد معينة.

وعلى كل حال الذين قاتلوا مجتهدون، والذين امتنعوا مجتهدون، وكلهم مُثاب، والمصيب له أجران، والمخطئ له أجر الاجتهاد، والخطأ معفو عنه.

• **قوله: «فَمَا بَالُ المَقْتُولِ؟! قَالَ: إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»**؛ يعني: هذا يدلنا على أن النية التي فيها العمل أنها عمل، فحرصه على قتل صاحبه جعله في النار، فقد كان حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِه، ولكنه لم يتمكن، ولو تمكَّن لقَتَله.

وهذا يدل على أن الفعل الذي يكون فيه التوصل إلى الذنب يُعاقَب

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب: تكون فتنةٌ القاعدُ فيها خير من القائم، رقم (٧٠٨١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب نزول الفتن كمواقع القطر، رقم (٢٨٨٧).

عليه، كما يدل على أن النيات والمقاصد هي التي تعتبر، والأعمال تبعٌ، **قال: «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه»**، حريصًا في نيته وفعله، ولكنه لم يستطع.

ثم هذا لا يدل على الكفر، ولا يدل على الخلود في النار، وإنما هذا من نصوص الوعيد، ونصوص الوعيد عند أهل السُّنَّة تُمَرُّ كما جاءت، ولا يُفهم منها أن صاحبها خرج من الدين الإسلامي، والعلماء لهم فيها **مذهبان:**

أحدهما: التأويل، فيقال في مثل هذا: في النار إذا جوزي بعمله، ولكن الله يعفو إذا شاء، ويتجاوز.

وهذا يقال في القاتل الذي يقول الله ﷻ فيه: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣] يكون هذا جزاءه إذا جازاه الله بعمله، ولكن قد يعفو الله عنه.

المذهب الثاني: يأبون هذا، يقولون: يجب ألا نفسِّر ولا نؤوِّل، ونَدَع النص على ما جاء عليه؛ ليكون أدعى للانزجار، وكذلك نَسْلَم من أن نقع في خلاف ما أراد الرسول ﷺ، وهذا مذهب أهل فقهاء الحديث.

والأول: قول الفقهاء، ويستدل الأولون بقوله ﷻ في هذه الآية: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩] سَمَّاهم مُؤمنينَ مع وجود القتال، فكذلك قال في القاتل، ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨].

يعني: عُفِيَ عن القِصاص، فانتقل إلى الدِّيَة، فسماه أخًا، وهذه الأُخُوة إيمانية، وليست أُخُوة نسب، هذا شيء معلوم، وأدلتهم من هذا القبيل.

المقصود: أن هذا من نصوص الوعيد التي يقول العلماء فيها: يجب أن تُمَرَّ ولا تفَسَّر، مع اعتقاد أن صاحبها لا يخرج من الدين الإسلامي، هذا قول أئمة الحديث، وجمهور الفقهاء يؤوِّلونه ويقولون: يجب أن نوفِّق بين النصوص كلها.

ومن المعلوم أن الذنوب لا تُخرج الإنسان من الدين، فلا تجعله كافرًا كما يزعمه أهل الباطل، هذا من المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ردٌّ لمذهب المعتزلة والخوارج، وكلاهما مذهب باطل.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: ظُلْمٌ دُونَ ظُلْمٍ

٣٢ ـ حَدَّثَنَا أَبُو الوَلِيدِ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، ح، قَالَ: وحَدَّثَنِي بِشْرُ بْنُ خَالِدٍ أَبُو مُحَمَّدٍ العَسْكَرِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ سُلَيْمَانَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، قَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ؟! فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

الشَّرح

• **قوله: «بَابٌ: ظُلْمٌ دُونَ ظُلْمٍ»**؛ يعني: مثل ما قال: «كُفرٌ دون كُفرٍ»، لكن هذا أعم؛ لأن الظلم يُطلَق على الذنوب، كما أنه يُطلَق على الكفر، وعلى الشرك وعلى غير ذلك.

• **قوله: «بابٌ: ظلمٌ دون ظلم»**؛ يعني: أن الظلم الكبير هو الشرك، أما الذنوب فهي دونه، وهي ظلم.

واختلفوا في تعريفه، فمن المشهور عند كثير من الناس ـ ولا سيما الأشاعرة ـ أنهم يقولون: الظلم هو التصرف في ملك الغير بغير إذنه، وهذا تعريف غير صحيح؛ للوازمه الباطلة التي تلزم عليه.

والتعريف الصحيح: أن الظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]؛ لأن هذا وضع العبادة في غير موضعها، وضعها في مخلوق، فصار ظلمًا؛ ولهذا قالوا: إن الله ﷻ لو عذَّب المطيع طوال حياته وجعله في النار، لا يكون ظلمًا؛ لأنه تصَرُّفٌ في المُلكِ، تصرَّف في مُلكِه، ولم يتصرف في غير ملكه؛ بل الكون كله ملك له.

فإذا فعل شيئًا فله ذلك، ولكِنَّ رسولنا ﷺ يروي لنا عن ربه ﷻ أنه يقول: «**يا عبادي، إني حرَّمتُ الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرَّمًا؛ فلا تظالموا**»[1]. يقولون: هذا لا يقوله إلا الذين قالوا هذا التعريف، هذا من الأمور الممتنعة، فهل يُحَرِّم على نفسه شيئًا ممتنِعًا؟! هذا باطل في الواقع؛ قال: «**حرَّمتُ الظلم على نفسي**»، وقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: ١٨٢]، [الأنفال: ٥١]، [الحج: ١٠]، هل ينفي شيئًا ممتنعًا؟! الممتنع لا يصح وجوده أصلًا؛ كوجود إلٰهين معًا، هذا ممتنع، لا يمكن ذلك.

وكذلك كون الإنسان مثلًا يكون حيًّا ميتًا في آن واحد، هذا ممتنع، إما حيٌّ أو ميت، أو يكون مثلًا جالسًا قائمًا في آن واحد، هذا لا يمكن؛ فالممتنع من المتضادات، والمتضادات لا تجتمع؛ فالضدان لا يجتمعان ولا يرتفعان؛ يعني: لا بد من وجود أحدهما، ولا بد أن يكون أحدهما منفردًا عن الآخر.

فإذَن تعريف الظلم بأنه التصرف في ملك الغير بغير إذنه: تعريف باطل؛ لما يلزم عليه من اللوازم الباطلة.

• **قوله: عن عبد الله قال: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾** [الأنعام: ٨٢]، **قَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ؟**؛ يعني: الصحابة أخذوا عموم اللفظ، فأدخلوا فيه الذنوب كلها، قالوا: أَيُّنَا لَا يُذنِب؟ فالذنوب ظلم لنفسه، **قال: فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾** [لقمان: ١٣]، فهذا الحديث يظهر أنه في المدينة، والله أعلم أنَّ كلتا الآيتين نزلت في مكة؛ لأن الأولى: في سورة الأنعام، والثانية: في سورة لقمان.

وفي رواية تلا عليهم: ألم تسمعوا قول الرجل الصالح: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

فبيَّن أنه ليس المقصود مطلق الظلم، وإنما المقصود الظلم المطلق؛

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٤)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ورقمه (٢٥٧٧).

يعني: **إذا قلنا: مطلق الظلم**، دخل فيه كل الظلم؛ أيُّ: ظلم، **وإذا قلنا: الظلم المطلق**، يعني: الشرك فقط هو الذي ليس معه أمنٌ، وليس معه إيمان، فهو ينافي الإيمان، فكذلك ينافي الأمن، المشرك يتوقع أن الله يصيبه بالعذاب في الدنيا، أما في الآخرة إذا مات على ذلك فهو في النار.

فهذا الظلم المطلق؛ يعني: الظلم الكامل، أما مطلق الظلم فهو الوقوع في شيء من الظلم، وهو غير الأول، لا يكون حكمه حكم الأول؛ بل صاحبه يكون مسلمًا أو مؤمنًا، ولكن هذا الشيء قدح في إيمانه وفي إسلامه ونقَّصه، هذا الذي يجب أن يُقال ويجب أن يُفهم من كلام النبي ﷺ.

• **قول الله ﷻ**: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] اللَّبْسُ: هو الخلط؛ يعني: ما خلطوا إيمانهم بظلم، هل هذا يُقصَد به مجرد الذنوب، أو يُقصَد به الشرك؟

الرسول ﷺ فسره بالشرك؛ وذلك أنه لما نزلت الآية شَقَّ الأمر على الصحابة، قالوا: «**أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نفسه؟**» وهذا لا يَسلَمُ منه أحد، فقال: ليس كما أردتم، ألا سمعتم قول العبد الصالح: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]. لكن مقصود البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذا الظلم العظيم ليس معه أمن مطلقًا، أما ظلم المعاصي فمعه شيء من الأمن في الدنيا والآخرة؛ يعني: يأمن الخلود في النار، ويأمن أن يكون مثل الكافرين في الدنيا، فيُعَذَّبَ كعذابهم.

• **قوله**: فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]، الواقع أن الآية نزلت قبلُ، ولم تكن بهذا الترتيب، ولكن في الحديث الآخر أنه قال: ألم تسمعوا قول العبد الصالح؟ يعني: لقمان، وهذا يدل على أن الذنوب تسمى ظلمًا، ولكنها ليست مساوية للشرك لا في الاسم ولا في الجزاء.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ: عَلَامَةِ المُنَافِقِ

٣٣ ـ **حَدَّثَنَا** سُلَيْمَانُ أَبُو الرَّبِيعِ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا نَافِعُ بْنُ مَالِكِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ أَبُو سُهَيْلٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**».

الشَّرح

• **قوله**: «**بَابُ عَلَامَةِ المُنَافِقِ**» العلامة: هي الشيء الذي يدل على صاحبه ظاهرًا، ومنها ما يوضع على الطرق من: إما لافتات، وإما غيرها، ويكون علامة على الشيء، ثم العلامة قد تسمَّى آية؛ كعلامات النبوة.

والنفاق تقدم الكلام عليه: هو ما كان معروفًا في لغة العرب. وما جاء به رسول الله ﷺ من التعريف هو: كونه يُبطِن الكفر ويُظهر ضده، هذا لم يكن معروفًا.

ويقولون: إنه مأخوذ من النافِقاء؛ يعني: جزءًا من بيت اليَربوع؛ لأن اليربوع يحفر له جحرًا ثم يُفَرِّق التراب؛ حتى لا يُرى، ثم يسد بابه بتراب؛ حتى لا يدخل عليه شيء، ثم يأتي إلى أقصى الجُحر ويقصد العلو، حتى إذا ما بقي إلا قشرة خفيفة من الأرض أبقاها، فإذا أتاه من قِبَل جُحره شيء، ضَرَب برأسه تلك القشرة، ثم انفتحت فهرب! هذه من آيات الله ﷻ، فسبحان مَن علَّمه وهداه إلى هذا.

والله أعطى كل شيء خَلْقَه ثم هدى، فأعطاه الشيء الذي يتحرَّز به، وبعض الحيوانات أعطاها سلاحًا إما في رأسها، وإما في فمها، وإما في مخالبها تَفْتِك بغيرها وقد تفترس غيرها، وبعضها ليس عنده هذا الشيء، فأعطاه شيئًا يحتمي به!

كذلك النمل الذي يجمع الحَبَّ في الصيف ويُدخِله في بيته، ويكسِّره حتى لا ينبت إذا جاءه مطر، ما الذي دله على أنه إذا كُسرَ لا يَنبُت؟! وإذا

أصابه نَدى وبلل وخاف عليه الفساد، أخرجه ونشره لئلا يعفن، فإذا يبس أدخله، يفعل ذلك؛ لأنه وقت الشتاء لا يجد ما يأكل، فيخزن هذا الطعام ولا يأكله إلا وقت الحاجة، إذا لم يجد في الأرض شيئًا، يأكله.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «مفتاح دار السعادة»: «وَلَقَد أخبر بعض العارفين أنه شَاهد مِنْهُنَّ يَوْمًا عجبًا قَالَ رأيت نملة جَاءَت الى شقّ جَرَادَة فزاولته فَلم تطق حمله من الأرض فَذَهَبت غير بعيد ثمَّ جَاءَت مَعهَا بِجَمَاعَة من النَّمْل قَالَ فَرفعت ذَلِك الشق من الأرض فَلَمَّا وصلت النملة برفقتها الى مَكَانَهُ دارت حوله ودرن مَعهَا فَلم يجدن شَيْئًا فرجعن فَوَضَعته ثمَّ جَاءَت فصادفته فزاولته فَلم تطق رَفعه فَذَهَبت غير بعيد ثمَّ جَاءَت بِهن فَرَفعته فدرن حول مَكَانَهُ فَلم يجدن شَيْئًا فَذَهَبت فَوَضَعته فَعَادَت فَجَاءَت بِهن فَرَفعته فدرن حول الْمَكَان فَلَمَّا لم يجدن شَيْئًا تحلقن حَلقَة وجعلن تِلْكَ النملة فِي وَسطهَا ثمَّ تحاملن عَلَيْهَا فقطعنها عضوا عضوا»[1]، لأنها كذبت عليهن، والواقع أنه هو الذي ظلمها.

وقد أخبرنا الله ﷻ عن قصة سليمان بقوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [النمل: ١٨] وكذلك الهدهد كان داعية للتوحيد.

ولهذا يقول ﷻ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] وفي «الصحيحين»: «**قرصت نملة نبيًّا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأُحرِقَت، فأوحى الله إليه: أن قرَصَتْك نملة أحرَقْتَ أمَّةً من الأمم تسبِّح!**»[2].

وهذا يدل على أن كل شيء يسبح بحمده ﷻ، وأنه أعطاها شيئًا من العقل الذي تعيش به.

عن أبي الصديق الناجي، قال: «خرج سليمان عليه السلام يستسقي، فمر بنملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: اللَّهُمَّ إنَّا خَلْقٌ من

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٢٤٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٦٢)، كتاب الجهاد والسير، باب: إذا حرق المشرك المسلم هل يحرق، ورقمه (٣٠١٩)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٧٥٩)، كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل، ورقمه (٢٢٤١).

خلقك، ليس بنا عن سُقياك ورزقك غنًى، اللَّهُمَّ فإمَّا أن تسقيَنا، وإما أن تهلِكَنا! فقال: ارجعوا فقد سُقيتم بدعوة غيركم!»[١]؛ فالمقصود أن هذه آيات من آيات الله ﷻ.

في هذا الحديث علامة المنافق ثلاث، وفي الحديث الذي يليه ذكر أنها أربع؛ فالثلاث يقول فيها: «**إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**» أما الأربع فقال فيها: «**إذا اؤْتُمِنَ خان، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وإذا خاصَمَ فَجَر**».

والنفاق معناه كما تقدم: إظهار الخير وإبطان الشر؛ إظهار ما يُطلَب منه، وإبطان خلافه، وهذا نوع من الناس، وقد يسمى الآن «الطابور الخامس» وهذا لا يزال في الناس موجودًا، فإذا كان الحق ظاهرًا كثر، وإذا ضَعُف ظهر النفاق بلا خُفية. **والنفاق قسمان:**

القسم الأول: نفاق أكبر، ويسمى نفاق اعتقاد.

القسم الثاني: نفاق دونَه، ويسمى نفاق عمل.

والكفر، والشرك، والنفاق الأكبر: هو بغض الدين، أو بغض من جاء به، أو الفرح بظهور الكافرين عليه، أو الحزن بكون الدين ينتصر.

فإذا وُجِد واحدة من هذه الأمور في رجل فهو من الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] وإن صلى وصام وحج وغير ذلك؛ لأنهم كانوا مع المؤمنين بهذه الصفة، وهم الذين حذر الله منهم كثيرًا، وأخبر ﷻ أن لهم فصاحة وبلاغة، ولهم مناظر وأُبَّهات، قال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

يعني: عندهم فصاحة، تعجبك مناظرهم، وكذلك تعجبك خُطَبهم وكلامهم، يقول الرسول ﷺ: «**أخوف ما أخاف على أمتي: منافِقٌ عليمُ اللسان**»[٢].

فالمقصود: أن هذه العلامات إذا وُجِدت في الإنسان كان منافقًا

---

(١) الدعاء، للطبراني (ص٣٠٠)، رقم (٩٦٨)، ومصنف ابن أبي شيبة (٦/ ٦٢).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٢٨٩).

خالصًا، وهي خمس علامات: «الكذب؛ إذا حدَّث كذب، وإذا اؤتُمن خان، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف».

الغدر: كونه لا يفي بالعهد، والخيانة يدخل فيها ما هو حق للإنسان، وما هو حق لله ﷻ، هذه إذا اجتمعت في إنسان دلت على أنه منافق نفاقَ اعتقاد، وإذا انفرد بعضها معه فهو عنده شيء من النفاق، وهو لِما غلب عليه من الإيمان أو النفاق، والنفاق ضده الإخلاص والصدق، فمن غلب عليه الإخلاص والصدق مع الله ﷻ غلب إيمانه، والعكس بالعكس.

لماذا ذكر البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ علامات النفاق في كتاب الإيمان؟

نقول: مقصوده رَحِمَهُ اللَّهُ: أن المؤمن قد يكون عنده شيء من النفاق، ولا يكون خارجًا عن الإيمان بذلك.

• **قوله: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ».**

وفي الحديث الآخر زاد اثنتين كما سبق ذِكْرُه: **«إذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»**، فتكون خمسًا؛ لأنها كلها جاءت في الحديث، وهذا النفاق العملي الذي يكون بالقول وبالعمل، الكذب، والفجور في المخاصمة، وخيانة الأمانة، وكذلك إخلاف الوعد، وهذه كلها عملية.

ولكن إذا اجتمعت هذه في إنسان فهذا دليل على أنه منافق في الاعتقاد؛ لأنها لا تجتمع إلا في منافق قد اعتقد النفاق، فصار دِيْنه النفاق، **قال: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ»**، الكذب هو الإخبار على خلاف الواقع، وهذا معناه أنه يقصد ذلك ويتعمد، **«وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ»**، وهذه قد تكون عند كثير من الناس، لا يبالي بإخلاف الوعد، وهي من آيات النفاق، فلا يجوز أن يتساهل فيها.

وكذلك **«إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»**، في الأمانة، سبق أن هذه عامة، ويدخل فيها ما هو لله ﷻ، وما هو للخلق، فلا يجوز أن يخون أمانته، والأمانة تحمَّلها الإنسان؛ لأنه ظلوم جهول، تحملها لأجل ذلك، وقد أبت عن تحمُّلِها الجبال؛ خوفًا من عذاب الله ﷻ.

٣٤ ـ حَدَّثَنَا قَبِيصَةُ بْنُ عُقْبَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُرَّةَ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**» تَابَعَهُ شُعْبَةُ، عَنِ الأَعْمَشِ.

الشَّرح

في هذا الحديث زاد خصلة عن الأولى، فصارت أربعًا، وفي الحديث السابق خصلة أخرى خامسة لم تذكر هنا، فصارت خمسَ خصالٍ، وهي:

«**إذا حدَّث كَذَب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتُمِن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»، هذه خمس خصال.

أما النفاق الاعتقادي فهو باعث على كل شر؛ لأنه يعتقد الكفر ويُظهِر الإسلام، فيكون عنده بغض الحق، أو بغض الرسول ﷺ؛ أن يبغضه، ويبغض دينه الذي جاء به، أو بعضه، ويحب أنه لا يظهر، ويفرح بظهور دين الكفار وانتصارهم على الإسلام!

هذه من الكفريات، يكفي واحد منها، إذا وُجِدت في الإنسان فهو من الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] نسأل الله العافية.

• **وقوله**: «**من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا**»؛ يعني: هذه إذا اجتمعت في إنسان صار من المنافقين النفاقَ الاعتقادي مع العملي، وهذا معنى: خالصًا، فهو من الذين ذكر الله ﷻ أنهم يكونون في الدرك الأسفل من النار.

• **وقوله**: «**ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعَها**»، هذا يدل على أنه لا يَكفُر بوجود خصلة من النفاق، أو من الكفر، وإن كان حاملًا لها وفاعلًا لها، وإذا تركها صار خالصًا منها، فدل على أن

العمل يسمى كفرًا، ويسمى نفاقًا، ويسمى إيمانًا وإسلامًا، وكل ذلك مقصود للبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ.

كما دل على أن النفاق قد يكون منه شيء مع المؤمن، كما أن الكافر قد يكون معه شيء من الإيمان، والإنسانُ لِما غَلَب عليه، وذكر أن آية المنافق خمسة أشياء: «**إذا حدَّث كذب، وإذا خاصم فجر، وإذا اؤتُمن خان، وإذا عاهد غدر**» هذه علامات ظاهرة على ما في الباطن.

والكذب ليس من خصال المؤمنين أصلًا؛ ولهذا قيل للرسول ﷺ: أيكذِبُ المؤمن؟ قال: «**لا**». قيل له: يزني؟ قال: «**نعم**»، يزني، ولكنه في هذه الحالة يرتفع الإيمان عنه.

وأما إخلاف الوعد، فهذا أيضًا داخل في الكذب، كذب وزيادة.

وأما الخيانة في المؤتمَنات، فهذا كما سبق أنه عام فيما يكون بين العبد وبين العباد، وبين العبد وبين ربه ﷻ. وهذا كثير وجوده ومنتشر. نسأل الله العافية.

وأما الغدر في المعاهدة فهذا من أكبر الذنوب. نسأل الله العافية. وقد حذر الله منه ونوه بذلك في كتابه ﷻ.

وأمر بالوفاء في العهود في غير ما آية، وأخبر أن الذين لا يوفون بعهودهم متوعَّدون بالعذاب.

وأما الفجور في المخاصمة فهو كذب ظاهر، والفجور خلاف الإيمان والائتمان بالعهد.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: قِيَامُ لَيْلَةِ القَدْرِ مِنَ الإِيمَانِ

٣٥ ـ حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ، عَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ يَقُمْ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»**.

الشَّرح

• **قوله**: «بَابٌ: قِيَامُ لَيْلَةِ القَدْرِ مِنَ الإِيمَانِ» هذا داخل فيما سبق؛ أن الإيمان هو العمل، وقيام ليلة القدر عمل وإيمان، ورجاء وخوف، والإيمان لا بد أن يكون مشتملًا على هذا.

وهذا التنويع من البخاري رحمه الله تعالى أراد به أن يبيِّن أن الأعمال إيمان، وأن المرجئة الذين يقولون: إن الأعمال ليست من الإيمان؛ ليس لهم دليل لا من كتاب الله ﷻ، ولا من سُنَّة رسوله ﷺ، وإنما هو رأي من الآراء التي لا تستند إلى دليل، فيكون باطلًا. والمُرْجِئة سُمُّوا مرجئة؛ لأنهم أرجَؤوا الأعمال عن الإيمان، فلم يجعلوا الأعمال داخلة في الإيمان.

وهم يقولون: إنه يكفي الإنسان أن يقول ويعتقد؛ إذا اعتقد في قلبه الإيمان وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، كفاه ذلك، ولو لم يصلِّ، ولم يزكِّ، ولم يحجَّ؛ ما يضره! والإيمان عندهم شيء واحد، والناس فيه كلهم سواء، لا يختلف المؤمنون في الإيمان عندهم، فليس هذا إيمانه كامل، وهذا ناقص، وهذا صادق في إيمانه. وكل هذه آراء باطلة.

فالبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا التنويع يريد أن يبطل هذا المذهب، وسيعود إلى هذا أيضًا في آخر الكتاب الذي سماه كتاب التوحيد والرَّد على الجَهميَّة، والمرجئة أيضًا؛ لأن المُرْجئة هم جَهْمية، اجتمع فيهم الإرجاء والتجهُّم، ولا يدخل في هذا من يسمونهم مُرجِئة الفقهاء؛ لأن مرجئة الفقهاء الخلاف معهم

في أنَّ العمل هل يسمَّى إيمانًا أو لا؟ أما تاركه عندهم فهو آثمٌ، ومستحق للعذاب عندهم، وهم ليسوا كالمرجئة الذين يقولون: لا يضر ترك العمل.

ففي هذه الترجمة زيادة، وهي أن قيام ليلة القدر من الإيمان؛ يعني: هذا العمل عمل خالص، ومقصوده بهذا: أن النص جاء في هذا، كما قال ﷺ: «مَنْ يَقُمْ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

• **قوله: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَقُمْ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»، قوله: «إيمانًا»**؛ يعني: إيمانًا بالوعد، والإيمان سبق أنه التصديق مع العمل؛ أن يصدِّقَ التصديقَ الجازم الذي لا يختلجه شك ولا ريب.

• **قوله: «وَاحْتِسَابًا»** الاحتساب هو طلب الأجر من الله ﷻ. وهذان الأمران يجب أن يكونا في كل عمل يعمله الإنسان؛ يؤمن بوعد الله الذي وعد على لسان رسوله ﷺ، ويحتسب حصول ذلك من الله فضلًا وإحسانًا منه.

• **وقوله: «غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه»**، الغَفْرُ: هو الستر مع الوقاية. غُفِرَ؛ يعني: وُقِيَ شَرَّ ذنبه مع ستره، فلا يظهر ولا يشهر، بخلاف الذين لا يبالون في أمر الله ﷻ.

فإن كل غادر يُوضَع عند رأسه لواءٌ بغدرته، كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ، مع المناداة عليه وإشهاره أمام الناس لفضيحته[1].

• **وقوله: «ما تقدَّم من ذنبه»، «مِن»** هذه هل هي تبعيضية، أو أنها ابتدائية تدل على العموم؟

فيه خلاف بين العلماء، ومنهم من يقول: المقصود بهذا الصغائر، أما الكبائر فلا بد فيها من التوبة.

والصغائر تُغفَر بفعل الواجبات، أو فعل ما فيه الخير والأجر

---

(١) أخرجه البخاري حديث رقم (٣١٨٦)، ومسلم حديث (١٧٣٥)، ولفظه عند مسلم: «إذا جمع الله الأوَّلين والآخرين يوم القيامة، يُرفَع لكل غادر لواء، فقيل: هذه غَدرةُ فلان بن فلان».

والثواب من الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، فشَرْطُ هذا اجتناب كبائر الذنوب.

وهذا يدل أيضًا على أن الذنوب فيها كبائر وصغائر، ولا شك في هذا، وإن كان بعض العلماء يقول: الذنوب كلها كبائر بالنسبة لمن بارزهم بالذنب، فليس هناك صغير، ولكن الأمر على خلاف ذلك؛ فالذنوب لا تستوي، والقرآن يدل على الفرق كما في الآية السابقة.

وليلة القدر ليست معيَّنة من الشهر، فمعنى ذلك: أنه يطلبها ويتحرَّاها، ولكنها هي محددة في العشر الأواخر من رمضان، كما صحت بذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ، وأنه كان يتحراها ويعتكف العَشْر الأُوَل، ثم اعتكف العَشْر الوسطى والأخيرة، ثم قال: «**فمن كان متحَرِّيَها فليتحَرَّها من العشر الأواخر**»[(١)].

وقد اختلف الناس فيها اختلافًا كثيرًا، حتى ذكر ابن كثير وغيره من العلماء ما يَقرُب من أربعين قولًا فيها، والصحيح أنها ثابتة، وأنها باقية إلى قيام الساعة في هذا الشهر، ولكن بعض العلماء زعم أنها تتنقل في العشر؛ يعني: سنة تكون إحدى وعشرين، وسنة تكون في ثلاث وعشرين، وأخرى تكون في خمس وعشرين، وهكذا. فالله أعلم.

والرسول ﷺ كما ثبت في «صحيح البخاري» «خرج من بيته ليخبِرَ بها بعينها، فتلاحى رجلان، يقول: **جئتُ لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان، فرُفِعَت**»[(٢)]، رُفِع العلم بها، أما هي لم تُرفَع.

وفي «الصحيحين» عن أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٥)، كتاب التهجد، باب فضل من تعارَّ من الليل فصلى، ورقمه (١١٥٨)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٨٢٣)، كتاب الصيام، باب فضل ليلة القدر، والحث على طلبها، وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها، ورقمه (١١٦٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٩)، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، ورقمه (٤٩).

يعتكف في العشر الأوسط من رمضان، فاعتكف عامًا، حتى إذا كان ليلة إحدى وعشرين، وهي الليلة التي يخرج من صبيحتها من اعتكافِه، قال: «**من كان اعتكف معي فليعتَكِف العشر الأواخر، وقد أُريتُ هذه الليلة ثم أُنسِيتُها، وقد رأيتُني أسجد في ماء وطين من صبيحتِها، فالتَمِسوها في العشر الأواخر، والتَمِسوها في كل وِترٍ**»، فمطرت السماء تلك الليلة، وكان المسجد على عريش، فوكف المسجد، فبَصُرَت عيناي رسولَ الله ﷺ على جبهته أثر الماء والطين، من صُبحِ إحدى وعشرين»[1]؛ فلهذا كان يجزم بأنها إحدى وعشرين، وهناك علامات ودلائل.

وعلى كلٍّ حال، إخفاؤها رحمةٌ من الله؛ حتى يجتهد المسلم في هذه العشر كلها، يتحراها، ولا ينبغي التفريط بها؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ [القدر: ٣]؛ يعني: العمل فيها خير من هذا الوقت الطويل، عُمر كامل للإنسان، ولكِنَّ كثيرًا من الناس يُفَرِّط بهذا ولا يبالي! وليس هذا وحده؛ بل في أمور كثيرة مما ذكر الرسول ﷺ أن فيها الخير وفيها المضاعفة.

المقصود أن قوله ﷺ: «**مَنْ يَقُمْ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**».

يعني: إيمانًا وتصديقًا بالوعد الذي وعد الله القائم بها، والاحتساب: أن يكون عمله خالصًا لله ﷻ، مخلصًا له.

فمن قام بهذه الصفات ليلة القدر غُفِرَ له ذنبه مهما كان، وليلة القدر سمِّيَت بذلك؛ لأنه يُقَدَّر فيها كل ما يحدث في تلك السنة التي فيها، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٤٨)، كتاب الاعتكاف، باب الاعتكاف في العشر الأواخر، والاعتكاف في المساجد كلها، ورقمه (٢٠٢٧)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٨٢٤)، كتاب الصيام، باب فضل ليلة القدر، والحث على طلبها، وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها، ورقمه (١١٦٧).

[الدخان: ٣، ٤] وهي تعدل عمر إنسان إذا عُمِّر؛ يعني: ثلاثٌ وثمانون سنة وأربعة أشهر، هذه الليلةُ؛ لأنَّها بألف شهر، فكيف يفرِّط في مثل هذا؟

فينبغي للإنسان أن يجتهد العشر كلها؛ لأنها أُخفِيَت، فمن أهل العلم من يقول: هي ليلة إحدى وعشرين، ومنهم من يقول: ليلة اثنين وعشرين إلى آخره، ولكن ليست كثيرًا، كون العبد يقوم هذه الليالي محتسبًا مؤمنًا بالوعد، والناس كثيرًا ما يتهاونون بأمور سهلة، وهي يترتب عليها أجور عظيمة.

فمثلًا صح الحديث في أن «**من غَسَّل يوم الجمعة واغتسل، ثم بكَّر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام فاستمع ولم يَلْغُ؛ كان له بكل خطوة عملُ سنة؛ أجرُ صيامها وقيامها!**»[1] ذاهب وراجع، كيف نفرِّط في مثل هذا؟! يركب سيارته إلى المسجد أينما كان، لا يستطيع يمشي؟ لو كان الإنسان يتحصل في كل خطوة ريالًا ما أظن أحدًا يترك هذا! فأكثر الناس يغفل عن هذا، حتى صار الإنسان الآن يستحي من المشي!

إذا مشيت إلى المسجد تجد كل واحد يقف عندك يقول لك: اركب!

المقصود: أن كثيرًا من المسلمين يجهل هذا، والذي لا يجهله ليس له اهتمام فيه ولا رغبة، في الواقع، ومثله هذه الليلة، ليلة قيامها يعادل ألف شهر، كيف يفرَّط فيها؟!

على كل حال، هذه أمور يجعلها الله ﷻ فيمن يشاء من عباده؛ حتى يتحصل على خير كثير.

وبهذا يتبين الفرق بين العاملين في أمور قليلة يفارقون فيها أعمالًا كثيرة جدًّا لمن احتسبها، والمقصود: أن هذا يكون من الإيمان؛ ولهذا **قال: «إيمانًا واحتسابًا»**؛ يعني: مؤمنًا بالوعد الذي وُعد عليه، ومحتسبًا؛ يعني: أنه متعرض لهذا الأمر مخلِصًا.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦/ ٩٣)، وأبو داود في سننه (١/ ٢٥٩)، كتاب الطهارة، باب في الغسل للجمعة، ورقمه (٣٤٥)، وابن ماجه في سننه (٢/ ١٨٨)، كتاب إقامة الصلاة والسُّنَّة فيها، باب ما جاء في الغسل يوم الجمعة، ورقمه (١٠٨٧).

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: الجِهَادُ مِنَ الإِيمَانِ

٣٦ ـ حَدَّثَنَا حَرَمِيُّ بْنُ حَفْصٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَاحِدِ، قَالَ: حَدَّثَنَا عُمَارَةُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ بْنُ عَمْرِو بْنِ جَرِيرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**انْتَدَبَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا إِيمَانٌ بِي وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي: أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ، أَوْ أُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، وَلَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ!**».

الشَّرح

• **قوله**: «**بَابٌ: الجِهَادُ مِنَ الإِيمَانِ..**» البخاري رحمه الله تعالى يذكر أعمالًا بعينها، فيقول: إنها من الإيمان بعدما قال فيما سبق: باب من قال: إن الإيمان هو العمل. ولا شك أن الإيمان هو العمل، أو أنه يقتضي العمل؛ بل هو العمل نفسه، والنصوص في هذا كثيرة جدًّا، ومع كثرة النصوص وظهورها لمن هداه الله إليها لا يزال الناس يختلفون في هذه المسألة إلى اليوم!

ويقولون: هل العمل شرط صحة؟ أو نحو هذا، مع أن الشرط يكون قبل المشروط ولا يكون في نفس الأمر، والعلماء من السلف لا يختلفون في أن الإيمان قول وعمل واعتقاد، فهم مجمِعون على ذلك، كما حكى الشافعي ذلك، وذكره ابن عبد البر، وغيرهما من السلف.

والبخاري رحمه الله تعالى يقول: إنه لقي أكثر من خمسمائة عالم من الأمصار، كلهم يقولون هذا، وكتاب الله ﷻ في هذا واضح وبيِّن، ثم ما كان في نفس الشيء لا يكون شرطًا، وإنما يكون رُكنًا من أركانه، وقد قرروا هذا وأبْدَوه وأعادوه، وأظهروه لمن يريد الحق، فقالوا: لو أن إنسانًا أتى بأمرين

ولم يأت بالثالث، لا يحتَسَب أنه مؤمن؛ بل هو كافر، ومن أتى بالاعتقاد والقول ولم يأت بالعمل، فهو كافر، أو أتى بالعمل ولم يأت بالقول، فهو كافر، أو أتى بالاثنين وترك الثالث. فلا بد من اجتماعها حتى يُحكَم له بأنه مؤمن.

ومعلوم أن الكفار لو قالوا للنبي ﷺ: نحن نصَدِّقك، ونجزم بذلك، ونشهد لك بهذا، ولكن لا نصلي، ولا نزكي، ولا نصوم، ولا نحج، ولا نعمل الأعمال التي تأمرنا بها؛ بل نعاديك، ونعادي أصحابك، ومن اتبعك، ونحاول قتلهم! فما يمكن لعاقل أن يقول: إنهم مؤمنون! بل يقول: إنهم مجرمون كفار يستحقون جهنم.

ومن هؤلاء الذين يخالفون في هذا من يقول: الإيمان هو التصديق والمعرفة مع القول، وترك العمل لا يضر! يعني: إذا لم يصَلِّ ولم يزكِّ... إلى آخره، ما يضره، فيكون من أهل الجنة!

وهذا خلاف الشرع كله، والآيات التي يذكرها الله ﷻ في الإيمان يقرن بها مع الإيمان العمل الصالح: كثيرة جدًّا، كل ذلك يدل على أن العمل من الإيمان، والعمل الصالح هو: الذي يكون على وفق سُنَّة المصطفى ﷺ.

فهنا يقول: «**باب: الجهاد من الإيمان**»، والجهاد يكون جهادًا للنفس، والشيطان، والكَفَرة، والفَسَقة، وغير ذلك، قد أمر به ﷻ: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾ [الفرقان: ٥٢]؛ يعني: بالقرآن؛ بما أوحاه الله إليه، وذكر الجهاد في آيات كثيرة وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

وكذلك أمر المؤمنين بقتال المشركين إذا انتهت عهودهم وانسلخ الأشهُرُ الحرم، بقوله: ﴿وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: ٥]؛ يعني: تحريض عظيم على قتالهم، ومع ذلك يخالف من يخالف فيه!

والمقصود: أن **قوله**: «بَابٌ: **الجِهَادُ مِنَ الإِيمَانِ**» أن هذا التنويع على حسب النصوص التي يذكرها، وكلها أعمال؛ فعلى هذا نقول: إن الأعمال

التعبدية كلها داخلة في الإيمان، والإيمان ـ كما سبق ـ هو العمل، ولكن ليس هو عملًا بدون نية وعلم.

يبقى لماذا تعطف الأعمال على الإيمان؟ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥].

المرجئة قالوا: إن هذا يدل على المغايرة في العطف؛ أي: إن الأعمال غير الإيمان، والصحيح أنه ليس كذلك؛ بل على العكس من ذلك، يدل على أن العمل من الإيمان؛ فكثرة تكرار العطف يدل على الاهتمام به وأنه منه. وهذا كثير في كتاب الله؛ كقوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣] فغافر الذنب هو قابل التوب، كما أن العطف يختلف باختلاف سياقه؛ فقد يُعطَف الشيء على نفسه، وقد تذكر أوصافه فقط، كما قال ﷻ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ [الأعلى: ١ ـ ٤]، إلى آخر الآيات، كل هذه أوصاف فقط مع المغايرة، وقد يكون عطف الكل على البعض أو عطف البعض على الكل، كلها لأجل ذلك؛ إذن فليس العطف للمغايرة مطلقًا.

• **قوله: «انْتَدَبَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ»** الانتداب معناه: أنه ﷻ أظهر ذلك وأوجبه لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا إيمان وتصديق برسله **«إِيمَانٌ بِي وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي»** هذا لا بد منه في كل عمل، لا بد أن يكون العامل مؤمنًا بالله مصدقًا للرسل، هذا هو الأساس.

• **وقوله: «انتدب اللهُ لمن خرج في سبيله»**؛ يعني: أن الله ﷻ تكفَّل بذلك، وضَمِنَه لمن يخرج في سبيله، فهو أمر محقَّق لا يجوز التردد فيه.

• **وقوله: «لمن خرج في سبيله»** هذا تقييد أن يكون الخروج خروجًا في سبيل الله، لا يقصد أمرًا آخر غير إعلاء كلمة الله، وكفٌّ شياطين الجن والإنس عن الوقوف أمام مضيِّ الدعوة؛ دعوةِ الله ﷻ عبادَه، وهؤلاء الذين يقفون أمام الدعوة هم الذين يجاهدون في سبيل الشيطان، فهم أولياؤه.

• **قوله: «لا يُخرِجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي»** قيد هذا بالإيمان؛ أي: أن الخروج الذي يُخرجه ويدفعه إليه ويحمله عليه: هو الإيمان بالله ﷻ،

والإيمان من الكلمات الجامعة كما سبق؛ يعني: آمن بالله، وبما له من الصفات العليا والأسماء الحسنى، وعرف ذلك، ثم كذلك آمن بوعده الذي وعد الخارج في سبيله، فآمن من قلبه، لا تكذيب ولا انحراف؛ لأن الإيمان هيمن على قلبه؛ لهذا قال: «**إيمان بي وتصديق برسلي**»؛ لأن رسله جاؤوا بذلك، فهذا يدلنا على أن الخلق لا بد لهم من رسول يكون واسطة بينهم وبين ربهم، يأتيهم بأمره ونهيه، ووعده ووعيده. **والوساطة التي تكون بين الخلق وبين الرب نوعان:**

النوع الأول: وساطة باطلة، وهي الوساطة في العبادة، فهذه هي الشرك الذي ذكره الله ﷻ عن المشركين.

النوع الثاني: وساطة حق ولا بد منها، وهي تبليغ العباد أمر الله ونهيه وما وعدهم، وهذا لا بد أن يأتي بها الرسول.

ومن رحمة الله ﷻ أنه جعل الرسول من جنسهم، لا يأتي رسول إلى أمة إلا وهم يعرفون صِدقه وأمانته ونشأته النشأةَ الحسنة الجميلة، كما هو معلوم، والرسل هم خير البشر، وأقربهم من الله ﷻ؛ ولهذا **قال**: «**وتصديق برسلي**».

وهذا يدلنا على أن هذا الجهاد عام في الأمم السابقة.

• **قوله**: «**أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ**» الأجر: الذي يُجزى به يوم يفارق الدنيا، والغنيمة: ما يحصل له من الكافرين من أموالهم وما بأيديهم، ولكن هذه الغنيمة تكون حقًّا للمجاهدين كلهم، ولا بد من قسمتها، ولا يجوز أن يؤخَذ منها شيء قبل القسمة مهما كانت، وإن قلَّت.

وقد حذَّر الله ﷻ من أخذ شيء منها واختلاسه وإخفائه، وسماها غلولًا، وأن الغالَّ له النار، ومن يغلُلْ شيئًا يأتِ به يوم القيامة على رقبته، يحمله ويشهره، يشهر ذلك، إن كان حيوانًا فإنه يصيح، حتى ينبِّه الناس!

ولهذا قال ﷺ: «**لا أُلفيَنَّ أحدَكم يوم القيامة على رقبته شاةٌ لها ثغاء، على رقبته فرسٌ له حمحمة، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك**

شيئًا، قد أبلغتك، وعلى رقبته بعير له رُغاء، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، وعلى رقبته صامت، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، أو على رقبته رقاع تخفق، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك»[1]؛ يعني: يُومِئُ ويخبر الناس أن هذا الغلول، ولما رجع ﷺ من خيبر صار في وادي القرى، ومعه عبد له يقال له: مدعم، أهداه له أحد بني الضباب، فبينما هو يحطُّ رحل رسول الله ﷺ إذ جاءه سهم عائر، حتى أصاب ذلك العبد، فقال الناس: هنيئًا له الشهادة، فقال رسول الله ﷺ: **«بل، والذي نفسي بيده، إن الشَّملة التي أصابها يومَ خيبر من المغانم لم تُصِبْها المقاسِمُ: لتَشتَعِلُ عليه نارًا!»**[2].

الشملة يقول الراوي: عباءة تساوي خمسة دراهم! فصارت هذه مانعة من الشهادة، وموجبة له النار؛ أنها تلتهب عليه نارًا! وهكذا إذا كان الذي يقاتل إما لأجل الدنيا، أو لأجل نَصْر فلان أو فلان، أو ما أشبه ذلك، أو خالف أمر الله ﷻ؛ فإنه لا يكون شهيدًا؛ بل يكون من أهل النار. نسأل الله العافية.

وهذا من فضل الله؛ يعني: كونه يرجع «بما ناله من أجر أو غنيمة»، قال: **«أو غنيمة»**؛ يعني: قد يكون له غنيمة، وقد لا يكون له غنيمة، ويكون أكثر أجرًا، إن حصل له غنيمة يكون له أجرٌ أقل، كما جاء النص بذلك.

• **قوله: «أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ، أَوْ أُدْخِلَهُ الجَنَّةَ»** فيكون

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٧٤)، كتاب الجهاد والسير، باب الغلول، ورقمه (٣٠٧٣)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٤٦١)، كتاب الإمارة، باب غلظ تحريم الغلول، ورقمه (١٨٣١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب الغلول، ورقمه (٤٢٣٤)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٤٦١)، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم الغلول، ورقمه (١١٥).

الأجر والغنيمة جزاء عاجلًا، ويدخل الجنة إن مات أو قُتِل؛ إن مات أو قتل أدخله الله الجنة.

ثم قال ﷺ، يحرِّض على الجهاد في سبيل الله: «**وَلَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي**» وذلك أن من الأمة من لا يسعه في نظره وخُلُقه إلا اتِّباع الرسول، إذا وجده يعمل شيئًا لا بد أن يعمله؛ فخاف أن يشُقَّ على أمته، وهذا من رحمته صلوات الله وسلامه عليه، فصار يخرج أحيانًا، وأحيانًا لا يخرج، حتى يُقتدَى به؛ فهو القدوة.

• **وقوله: «مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ»** هذا من باب الترغيب في الجهاد، والسرايا التي يرسلها، سُمِّيَت سرية؛ لأنها قطعة من الجيش غالبًا أنها تسري في الليل وتكمن في النهار؛ حتى لا يعرف عنها شيء، فسُمِّيَت سرية؛ لأجل ذلك.

• **قوله: «وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ»**؛ وذلك لما فيه من الفضل، ومع هذا فالإيمان بالله أفضل منه، ولا يحصل هذا إلا للمؤمن؛ بل كل الأعمال الجزاءُ عليها مشروط بالإيمان؛ ولهذا سبق أنَّه لما سئل: أي العمل أفضل؟ قال: «**إيمان بالله**»، هذا على الإطلاق، وسبق أن معنى الإيمان بالله: أن يشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويعمل بذلك؛ يعمل بهذه الشهادة. وفي هذا إظهار فضائل الأعمال والتنويه بها؛ حتى يتسابق إليها الذين يرغبون في الدرجات العالية عند الله ﷻ.

وفي «الصحيحين» أنه ﷺ قال: «**إن في الجنة مائةَ درجة أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض!**»[1]، مائة درجة، كل درجة بينها وبين الأخرى مثل ما بين السماء والأرض، هذه المسافة! فالدرجة المقصود بها هنا المنزلة التي ينزلها ويكون فيها؛ وذلك لاختلاف نياتهم ومقاصدهم، وإيمانهم بالله ﷻ وبرسوله، تتفاوت

(١) تقدم تخريجه.

منازلهم، وإن كان العمل في الصورة واحدًا، وهذا في الأعمال كلها، وليس في الجهاد فقط.

• **قوله: «وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ»**؛ لما في ذلك من الفوز العظيم، كما في قصة عبد الله بن حرام والد جابر بن عبد الله: أن النبي ﷺ قال له: **«ألا أخبرك ما قال الله ﷻ لأبيك؟»** قلتُ: بلى، قال: **«ما كلم الله أحدًا إلا من وراء حجاب، وكلَّم أباك كِفاحًا! فقال: يا عبدي، تمَنَّ عليَّ أُعْطِك، قال: يا ربِّ، تحييني فأُقتَلُ فيك ثانية! قال: إنه سبق مني أنهم إليها لا يُرجَعون»**[1] **إذا مات لا يرجع الإنسان.**

وكذلك هم الشهداء يتمنون أنهم يُرجَعون حتى يقتلوا مرة أخرى؛ لما يرون من الفضل الذي نالوه من هذا، والجهاد في سبيل الله هو: أن يبذل جهده ويبذل ماله حتى تكون كلمة الله هي العالية، هي المسيطرة، هي الحاكمة، فمن كان بهذه الصفة فهو سبيل الله.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٥/ ٢٣٠)، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران، ورقمه (٣٠١٠). أخرجه ابن ماجه في سننه (٤/ ٨٣)، كتاب الجهاد، باب فضل الشهادة في سبيل الله، ورقمه (٢٨٠٠).

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: تَطَوُّعُ قِيَامِ رَمَضَانَ مِنَ الإِيمَانِ

٣٧ ـ **حَدَّثَنَا** إِسْمَاعِيلُ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»**.

الشَّرح

• **قوله: «بَابٌ: تَطَوُّعُ قِيَامِ رَمَضَانَ مِنَ الإِيمَانِ»**؛ يعني: أن التطوع أيضًا منه، هذا مقصوده، ليس الإيمان هو الواجبات فقط؛ بل المستحبات، ومعلوم أن العمل إما أن يكون واجبًا، وإما أن يكون مستحبًّا، وإما أن يكون عكس هذا؛ يعني: محرَّمًا أو مكروهًا، والعلماء يقسِّمون الأحكام إلى خمسة أقسام؛ هذه الأربعة، والخامس: المباح.

والكراهة المتأخرون قسَّموها إلى قسمين:

القسم الأول: كراهة تحريم.

القسم الثاني: كراهة تنزيه.

أما السلف لم يقسِّموا هذا؛ بل عندهم إذا قالوا: المكروه فالمقصود به المحرَّم، ولكن المحَرَّم يختلف، بعضه أعظم من بعض؛ ولهذا جاء هذا التقسيم.

وقيام رمضان ليس واجبًا، فلو تركه العبد لم يعاقَبْ عليه؛ أي: قيام ليالي رمضان. وإذا قيل: الليل فالمقصود به بعضه وليس كله، كما هو معلوم من دين الإسلام، فالإسلام لم يأت بالأغلال والأمور الشاقة كما وقع على اليهود وغيرهم؛ بل رسولنا ﷺ بُعِث بالحنيفية السمحة، كما سيأتينا ـ إن شاء الله ـ؛ لهذا **قال: «بَابٌ: تَطَوُّعُ قِيَامِ رَمَضَانَ مِنَ الإِيمَانِ»**؛ يعني: أن فعل المستحبات داخل في الإيمان، وإذا كان كذلك فالمكروه كذلك يدخل في

الإيمان؛ يعني: اجتنابه وتركه خوفًا من الله، يكون داخلًا في الإيمان، وأولى من هذا المحَرَّم، اجتنابه خوفًا من عقاب الله يكون داخلًا في الإيمان.

ثم هذا نص على رمضان، وغيره مثله، قيام السنة كلها، فلا يلزم أن يقوم الليل كله، لكنه يتطوع، ولا سيما في آخر الليل؛ وقت النزول الإلٰهي، فإن المؤمنين حقًّا الذين يريدون وجه الله، ويريدون الحظوة في فضله وكرمه وجوده، لا يفرطون في هذا.

لأن الله ﷻ كما أخبر المصطفى ﷺ ينزل إلى سماء الدنيا إذا بقي ثلثا الليل، فيقول: «**من يدعوني فأستجيبَ له، من يسألني فأعطيَه، من يستغفرني فأغفِرَ له**»[(١)]. وفي رواية لمسلم: «**حتى ينفَجِرَ الصبح**»[(٢)]، يعني: الفجر.

ونزوله ﷻ نزولٌ حقيقيٌّ يليق بجلاله وعظمته، وهو العلي الأعلى فوق كل شيء؛ لأن أفعاله لا تشبه الأفعال المعهودة لنا، تعالى وتقدس، وهي تليق بعظمته.

المقصود أن قوله: «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا**»: هذا مثل ما مضى في ليلة القدر «**مَنْ قَامَها إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**» وفي هذا أيضًا: «**من قام رمضان**»، والقيام لا يلزم أن يكون الليل كله كما تقدم، لكن يقوم بثلث الليل أو ربعه، وإلا حَسَب ما يستطيع، ويحرص على أن يكون مقتفيًا آثار الرسول ﷺ، ولكن نشاهد الآن بعض الشباب في القيام لا يزيد عن إحدى عشرة ركعة مع تخفيفها، ويقول: إن هذه هي سُنَّة! هذه السُّنَّة في العدد، ولكن ليست السُّنَّة في الصفة؛ لأن الرسول ﷺ كان إذا صلى إحدى عشرة ركعة يطيل القراءة، وربما قرأ في الركعة الواحدة سورة البقرة، وقد يقرأ سورة البقرة مع سورة آل عمران مع سورة النساء في ركعة واحدة!

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٣)، كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، ورقمه (١١٤٥)، وأخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٥٢٢)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، ورقمه (٧٥٨).

(٢) وأخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٥٢٢)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، ورقمه (٧٥٨).

يعني: لماذا نأخذ العدد ونترك الصفة؟! والصحابة رضوان الله عليهم لما رأوا أن هذا فيه مشقة، عدَّدوا وكانوا يصلون أربعًا وعشرين ركعة، مع الوتر يكون خمسًا وعشرين؛ لأن هذا أسهل عليهم، وليس هذا ممنوعًا لو زاد الصلاة، كما جاء في حديث أبي ذر ﷺ أنه سأل رسول الله ﷺ عن الصلاة فقال: «**خير موضوع، فمن شاء أكثر، ومن شاء أقل**»[١] هذا مقصود به صلاة التطوع، فاستزِدْ ما شئت.

فعن ربيعة بن كعب الأسلمي، وكان رجلًا يخدم رسول الله ﷺ: «قال: كنت أبيتُ مع رسول الله ﷺ، فأتيته بوَضوئه وحاجته، فقال لي: «**سل**» فقلت: أسألُك مرافقتَك في الجنة. قال: «**أوْ غيرَ ذلك**» قلت: هو ذاك. قال: «**فأعنِّي على نفسك بكثرة السجود**»[٢]. كثرة السجود؛ يعني: جاء مطلقًا بكثرة السجود، لماذا نحدد الصلاة بإحدى عشرة ركعة فقط ونترك البقية؟ مع أنها ركعات قليلة؛ يعني: في قراءتها وقيامها!

المقصود: أن المؤمن مطلوب منه أن يجتهد حسب استطاعته، ولا يقتصر على شيء، ثم تجد كثيرًا منهم يزهد في النوافل، سواء في نوافل النهار أو نوافل الليل، فيزهد في الذكر وفي غير ذلك، وهذا يدل على أن الإنسان عنده ضعف في الحرص على الخير، وعلى مجاورة الصالحين في الجنة، وهذا لا ينبغي!

• **فقوله هنا: «مَنْ قام رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا»** مثل ما قال في ليلة القدر: «**من قامها إيمانًا واحتسابًا**» فإنه يكون ذلك من الإيمان، كلها قال فيها الرسول ﷺ: «**إيمانًا**»، والإيمان هنا هو التصديق بوعد الله ﷻ، آمن بوعده وصدَّق به، واحتسبه؛ يعني: تعرض لهذا؛ فالاحتساب هو التعرض لهذا الفضل الذي ذُكر، وأن يكون ذلك خالصًا.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥/ ٤٣٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٣٥٣)، كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه، ورقمه (٤٨٩).

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: صَوْمُ رَمَضَانَ احْتِسَابًا مِنَ الإِيمَانِ

٣٨ ـ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَام، قَالَ: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُضَيْلٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**».

الشَّرح

يعني: هذا واجب، فرض لا بد منه، فأعقب التطوع بالفرض؛ ليبيِّن لنا أن الطاعة كلها من الإيمان، هذا مقصوده، سواء كانت الطاعة فرضًا على العبد واجبًا، أو كانت ليست بفريضة؛ بل يقوم بها يتعرض للفضل وزيادة الخير والدرجة.

والصوم فريضة على كل مستطيع، ومن لم يستطع فخُفِّف عنه بأن يصوم أيامًا أُخَرَ من غير رمضان؛ فضلًا من الله.

«**واحتسابًا**»؛ يعني: طلبًا للثواب الذي وعد الله عليه، والإيمان بذلك، فهو تصديقٌ بما جاء من الخبر في ذلك، وإيمان به بعثه على القيام بمقتضى هذا، فإذَن الإيمان يدخل فيه الواجب والمستحب كما سبق.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: الدِّينُ يُسْرٌ

وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللهِ الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ».

الشَّرح

• **قوله**: «بَابٌ: الدِّينُ يُسْرٌ»؛ يعني: أنه ميسَّر ومُسَهَّل، ولكن ليس على كل أحد، وإنما على من يسَّره الله عليه؛ لأن الأمر كله بيد الله، وهو الذي يتصرف في الكون كله، سواء كانت أعيانًا ظاهرة، أو معانيَ تتعلق بغيرها.

وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللهِ الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ»، الحنيفية؛ يعني: المائل عن الأديان كلها قصدًا وإرادة إلى إخلاصه وجَعْله لله وحده، هذا معنى الحنيفية.

والسَّمْحَة؛ يعني: سَمْحة في العمل، ولكن في العقيدة من أعظم الملل وأشدها، فهي في التوحيد أشد الملل، أما في العمل فهي أسهلها وأيسرها؛ بل كل هذا بتيسير الله ﷻ.

ولهذا لما قال معاذ: يا رسول الله: «دلَّني على عمل يدخلني الجنة؟» قال: «**لقد سألتَ عن عظيم، وإنه لسهل ميسور على من يسَّره الله عليه**»، وهي عبادة الله وحده؛ ولهذا قال: «**تعبد الله ولا تشرك به شيئًا**»[1]، فدخل في قوله: «**شيئًا**» الشرك كله؛ كبيرُه وصغيره، ودقيقه وجليله، وخفيُّه وظاهره، شِرْك النيات، شِرك المقاصد، شِرك الفعل، وهذا كثير جدًّا، وقد لا يتخلص منه إلا القلة من الناس.

هذا «باب» يعني: كون الدين أشد الأديان في التوحيد، أما في العمل فهو سهل، ميسر؛ ولهذا قُيد كله بالاستطاعة.

وقول النبي ﷺ: «أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللهِ الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ» اليسر أنه سهلٌ

---

(١) تقدم تخريجه.

ميسر، ليس فيه صعوبة، وليس فيه ـ حقيقةً ـ شيء من العنت والمشقة على الإنسان؛ بل الإنسان إذا انقاد إلى هذا يجد أن فيه لذة، وفيه ـ بالحقيقة ـ راحة للنفس والقلب؛ لهذا تجد بعض الناس منشرح الصدر للأعمال التي يقوم بها، وإذا فاته شيء منها تأسى وحزن، صار عنده من هذا توبة ورجوع إلى هذا الشيء حتى يستدركه.

ولهذا يقولون: تسمية هذه الأعمال تكليفًا لا وجه لها؛ لأنها ليست تكليفًا؛ بل هي ميسورة سهلة، ليس فيها كلفة، فهو يسَّره الله ﷻ؛ ولهذا قال ﷺ: «**وإنه لسهلٌ ميسور، ولكِنْ على من يسَّره الله عليه**»[1] بعض الناس يكون شاقًّا عليه.

• **قوله: «الحنيفية»**: الحنف يعني: الميل عما لا يكون موافقًا، قصدًا وإرادة، فهي ميل مقصود إلى الإخلاص والصدق مع الله ﷻ، والسَّمْح هو السهل؛ يعني: هي سمحة سهلة، فهي في الأعمال سمحة سهلة من أيسر الشرائع وأسهلها، ولكنها في العقيدة والتوحيد شديدة.

(١) تقدم تخريجه.

٣٩ ـ **حَدَّثَنَا** عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ مُطَهَّرٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ عَلِيٍّ، عَنْ مَعْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ الغِفَارِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ المَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**».

الشرح

• **قول النبي ﷺ**: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ**» «**يُسْر**» هنا مصدر؛ يعني: قد يسره الله، فهو ميسَّر، والميسَّر هو: السهل الذي يُعمل بسهولةٍ.

• **وقوله**: «**وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ**»، المشادَّة هي المغالبة؛ يعني: كونه يريد ألا يدَعَ شيئًا، أو يبالغ في العمل يريد أن يأتيَ عليه كله، أو أنه يأتي بأكثر من ذلك، فما يستطيع.

وكونه يغلبه؛ يعني: لا يستطيع أن يأتيَ بهذا مستمرًّا إلى آخر حياته، لا بد أن يفتُرَ أو يعجز أو يملَّ فيَترُك. فمثلًا لو أخذ على نفسه أن يصوم يومًا ويدع يومًا، فإنه قد لا يستطيع؛ يعني: يشق عليه، وقد يضعف؛ ولهذا ينبغي للإنسان أن يأخذ الشيء الذي ليس فيه كلفة عليه؛ حتى يكون مستمرًّا عليه.

ولهذا كان الرسول ﷺ ينهى عن مثل ذلك ويقول: «**خُذْ من العمل ما تطيق**»[(١)]، وسئل النبي ﷺ: «أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «**أدومها وإن قلَّ**»[(٢)] فأخبرنا أن خير العمل أدومه وإن قلَّ.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٣٩)، كتاب الصوم، باب صوم شعبان، ورقمه (١٩٧٠)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٨١١)، كتاب الصيام، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان رقم (٧٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٩٨)، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، ورقمه (٦٤٦٥)، وأخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٥٤١)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، ورقمه (٧٨٢).

• **وقوله**: «**فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا**»، التسديد: هو إصابة السهم الهدف، سدِّدوا عليه حتى يصيبه؛ فالتسديد هنا المقصود الإصابة؛ إصابة الحق، إصابة الأمر الذي جاء به الرسول ﷺ.

والمقاربة: أن يَقرُب من الإصابة؛ لأنه قد يعجِز، فيجتهد حتى يقرُبَ منه؛ يعني: قاربوا، اقتَصِروا على الشيء الذي يكون سهلًا عليكم، لا تعملوا شيئًا تَملون منه ثم تتركونه؛ فإن هذا مذموم.

• **وقوله**: «**وَأَبْشِرُوا**»، البَشَرة: هي الجلد الظاهر للإنسان، وذلك أن الإنسان إذا أُخبر بما يسُرُّه، ظهر ذلك على بَشَرة وجهه، وإذا أُخبر بما يسوؤه ظهر ذلك أيضًا على بَشَرة وجهه، فأُخِذت البِشارة من هذا.

فالبشارة إذن هي: الإخبار بما يسُرُّ، وقد تستعمل بالعكس؛ من باب التهكُّم والسخرية، كما قال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ [النساء: ١٣٨] يبشَّرون بماذا؟ بعذابٍ أليمٍ! العذابُ الأليم يبشَّرُ به؟! هذا من باب التهكُّم.

• وفيه وجوب الإيمان بالجزاء، كأنه أمسكه بيديه إذا عمل.

قوله: «**وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ**» الغَدوةُ: الذَّهاب في أول النهار، والرَّوحةُ: في آخره؛ يعني: استعينوا في العمل في هذه الأمور في أول النهار؛ يكون الإنسان عنده نشاط وعنده فراغ، فيعمل الشيءَ الذي يرتبه لنفسه؛ إما صلاةً، أو قراءة، أو ذكرًا، أو ما أشبه ذلك.

والرَّوحةُ: ما كان بعد الظهر؛ فالسير بعد الظهر إلى غروب الشمس يسمَّى رواحًا، والذي بعد صلاة الفجر وأول النهار يسمى غُدُوًّا، وقد أمر الله ﷻ أن يُسَبَّح بالعَشيِّ والإبكارِ.

• **وقوله**: «**وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**» الدُّلْجةُ: هي المَسير آخر الليل، أدلج يعني: إذا سار آخر الليل.

وقد جاء الأمر بذلك، وأن الأرض تُطوى في هذا؛ يعني: آخر الليل؛ يعني: أنكم تعملون في هذه الأوقات، أول النهار وآخر النهار، وتأخذون شيئًا من آخر الليل؛ حتى تصيبوا المقصود.

وهذا معنى الاستعانة هنا؛ يعني: ينبغي له أن يَرفُق بنفسه، ولا يَحمِل عليها الأمور التي قد تعجِز عنها، ثم يترك العمل، فنفسه كأنها راحلة، إذا راعاها وحفظ لها ما به صحَّتُها استقامت وسار سيرًا يوصله إلى مراده، أمَّا إذا حمل عليها فقد تنقطع، ويعجِز، مثل ما جاء في بعض المراسيل، عن محمد بن المنكدر يرفَعُه: «**إنَّ هذا الدِّينَ متينٌ، فأوغِلْ فيه برفقٍ، ولا تُبَغِّضْ إلى نفسك عبادةَ الله؛ فإنَّ المُنبَتَّ لا أرضًا قَطَع، ولا ظهرًا أبقى**»[1]. وهذا عامٌّ في جميع الأعمال، أما الواجبات فهي محدَّدة وميسَّرة؛ ولهذا جعل من الصلاة التي يجب على العبد أن يقوم بها وقتًا محددًا، وهو قليل بالنسبة لليوم الأربع وعشرين ساعة؛ يعني: يمكن تأخذ من الأربع وعشرين ساعة خمسًا وعشرين دقيقة فقط.

هذه تكفيك في أداء الفرائض، وهذه بالنسبة إذا ناسَبْتها إلى أربع وعشرين ساعة قليلةٌ جدًّا، فالواجب هو القيام بهذا على هذا الوجه الأكمل؛ لأن الصلاة الواحدة قد تستغرق خمس دقائق، وأكثر ما تستغرق عشر دقائق، فهذه سهلة وميسورة جدًّا، وكذلك بقية الأعمال على هذا.

فالرسول ﷺ يرشدنا إلى ما فيه نفعنا وخيرنا، ويحذرنا عن الأمور التي فيها قواطع وقوادح، وصدود وكلول عن العمل، والشيطان حريص على الإنسان؛ لأنه يجعله ما بين مُفرِّط ومُفْرِط.

ثم في هذا الإرشادُ إلى العمل الذي يكون مستمرًّا، والاستعانة بهذه الأمور التي ذكرها ﷺ، ولكن ليس المقصودُ بهذا العباداتِ المعيَّنةَ بمحدد، مثل قوله ﷺ في الصلوات: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨].

هذه أوقات الصلاة، والصلاة كلها قُيِّدت بالشمس، يعني: أوقاتها، وهي من أوضح الواضحات، ودُلوكها هو ميلها عن وسط السماء، فحدد

---

(١) شرح السنة، للبغوي (٤/ ٥١)، والزهد والرقائق، لابن المبارك (١/ ٤١٥) رقم (١١٧٨).

الأوقات بهذا، وبيَّنها لنا رسول الله ﷺ، فهذه لا تدخل في الغَدوة والرَّوحة، وإن كان صلاة الفجر للغداة، والرَّواح فيه صلاة العصر وصلاة المغرب والعشاء، فإذَن استغرق هذا الصلوات كلها، بقي الشيء الذي يضاف إلى هذا زيادةً في العمل ورفعةً في الدرجات، فهو الذي قيل فيه: «**وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ**».

يعني: الدين يغلبه بذلك؛ لأنه لا يستطيع أن يستمرَّ إذا كان شدَّد على نفسه وحمَلَها على ما لا تطيقه، فلا بد أن يَكِلَّ ويعجِز ويترك العمل، وهذا لا ينبغي أن يُعمَل ثم يُترَك؛ لهذا نصح ﷺ عبدَ الله بن عمرو؛ لأنه كان عنده رغبة في الصوم وفي العمل، فكان يصوم الدهرَ كله؛ يعني: كل الأيام، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ نهاه.

فقال: «**صُمْ من الشهر ثلاثة أيام**»، قال: أطيق أكثرَ من ذلك، فما زال حتى قال: «**صُمْ يومًا وأفطِرْ يومًا**»[(١)]. وفي رواية: فقال النبي ﷺ: «**لا أفضل من ذلك**»[(٢)]، ثم صار عبد الله بن عمرو فيما بعدُ يتمنى أنه قَبِلَ قول الرسول ﷺ.

لأن الإنسان إذا كبر ضَعُف، وهم لا يريدون أن يتركوا عملًا أخذوه عن رسول الله ﷺ، وقد قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمرو: «**لا تكُنْ مِثلَ فلان، كان يقوم الليل، فترك قيام الليل**»[(٣)] هذا ما ينبغي؛ لأن هذا رغبة عن الخير، والرغبة عن الخير ليست علامة خير؛ بل هي علامة شر.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٤٠)، كتاب الصوم، باب صوم يوم وإفطار يوم، ورقمه (١٩٧٨)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٨١٢)، كتاب الصوم، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به، ورقمه (١١٥٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٤٠)، كتاب الصوم، باب صوم الدهر، ورقمه (١٩٧٦)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٨١٢)، كتاب الصوم، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به، ورقمه (١١٥٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٤)، كتاب التهجد، باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه، ورقمه (١١٥٢).

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: الصَّلَاةُ مِنَ الإِيمَانِ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ يَعْنِي: صَلَاتَكُمْ عِنْدَ البَيْتِ.

الشَّرح

لا يخرج عن الإيمان شيء من الأعمال التي تُفعل لأجل الثواب، أو تُترَك خوفًا من العقاب، كلها داخلة في الإيمان، وإن كان فيه خلاف، بعضه خلاف باطل لا ينبغي أن يُلتفت إليه، وبعضه خلاف له وجه من النظر؛ لتعلقه بشيء من الأدلة، ومعلوم أن اختلاف الناس كثير جدًّا، فلا يزالون مختلفين إلا من رحمه الله، وأنهم خُلقوا لهذا، وإلا فإن الإنسان لَيَعجب كيف يختلفون في شيء قد بُيِّن ووُضِّح؟! ولا عبرة للمخالفة فيه.

فالخلاف كله شر، لا يأتي بخير، وليس هناك خلاف يكون رحمة؛ لأن الخلاف لا بد أن يكون له أثر في النفوس وفي السلوك الذي يكون بين الناس؛ فكل من خالفك قد يكون عندك حزازات بالنسبة إليه، لماذا يخالف؟ ثم هذا يدعو إلى المقاطعة وإلى المعاداة، وإلى أمور لا تحسن؛ ولهذا الصحابةُ كانوا يحذرون من هذا كثيرًا.

لما قيل لعبد الله بن مسعود وهو في مِنًى: إن أمير المؤمنين أتمَّ الصلاةَ؛ يعني: عثمان رضي الله عنه، أنكرها، وقال: «فلَوَدِدتُ أنَّ لي من أربع ركعاتٍ ركعتين متقبَّلتين. قال الأعمش: فحدَّثني معاوية بن قُرة عن أشياخه أن عبد الله صلى أربعًا، قال: فقيل له: عِبتَ على عثمان، ثمَّ صليتَ أربعًا! قال: الخِلافُ شرٌّ»[1]، فهم يكرهون الخلاف أشد الكراهة؛ لأنه يبعث على حزازات، ويَؤُول إلى المعاداة وإلى المقاطعات، والواقع يدل على هذا.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣/٣٢٨)، كتاب المناسك، باب الصلاة بمنى، ورقمه (١٩٦٠).

تجد الآن مثلًا كثيرًا من الناس؛ بل حتى طلبة العلم، عندهم تحزُّبات، كل فريق يريد أن ينتصر على الفريق الآخر، فهذا لا بد أن ينتج عنه نفور، أقل شيء نفور كل واحد من الآخر، أو معاداة أو مقاطعة، وما في القلوب قد يكون أعظم من هذا.

• **قوله: بَابٌ: الصَّلَاةُ مِنَ الإِيمَانِ، وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾** [البقرة: ١٤٣].

يقول النووي رَحِمَهُ اللَّهُ، وغيره: أجمع العلماء على أن المقصود بالإيمان هنا: الصلاة؛ يعني: يُضِيعَ إيمانَكم: الصلاة، فإذَن هذا نص واضح في أن الصلاة إيمان؛ ولهذا قال: يعني صلاتَكم إلى بيت المقدس.

ولهذا لما ذكر ذلك في نفس الحديث، ذكر السبب في هذا، وذِكرُ السبب يبيِّن المراد، وهو يُعِين على فهم المقصود من الخبر.

• **قوله: «يَعْنِي: صَلَاتَكُمْ عِنْدَ البَيْتِ»**، قال: عند البيت، ولم يقل: قِبَلَ بيت المقدس؛ لأن الحديث فيه هذا، والرسول ﷺ كان يحِبُّ أن يوافق أهلَ الكتاب؛ لعله يكون ذلك تأليفًا، فيدخلون في الإسلام، وكان هذا في بداية الأمر، ولكنهم أهل عناد وأهل كِبر، خصوصًا اليهود، حتى ذَكَر الله عنهم أشياء من أعجب ما يكون، في كونهم يأبون الانقياد، ولما كان كذلك، خالفهم وأمر بمخالفتهم.

فذكر أنَّه ﷺ رفع الجبل فوق رؤوسهم وقال: خذوا الكتاب الذي أُمِرتُم به، وإلا سقط عليكم الجبل، فعنادهم على أنبيائهم كثير. نسأل الله العافية. لا يزال هذا الخُلُق فيهم.

٤٠ ـ **حَدَّثَنَا** عَمْرُو بْنُ خَالِدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ، عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ أَوَّلَ مَا قَدِمَ المَدِينَةَ نَزَلَ عَلَى أَجْدَادِهِ ـ أَوْ قَالَ: أَخْوَالِهِ ـ مِنَ الأَنْصَارِ، وَأَنَّهُ «صَلَّى قِبَلَ بَيْتِ المَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ البَيْتِ، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَّاهَا صَلَاةَ العَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ».

فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صَلَّى مَعَهُ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ مَسْجِدٍ وَهُمْ رَاكِعُونَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ بِاللهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ البَيْتِ، وَكَانَتِ اليَهُودُ قَدْ أَعْجَبَهُمْ إِذْ كَانَ يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ المَقْدِسِ، وَأَهْلُ الكِتَابِ، فَلَمَّا وَلَّى وَجْهَهُ قِبَلَ البَيْتِ، أَنْكَرُوا ذَلِكَ.

قَالَ زُهَيْرٌ: حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ، عَنِ البَرَاءِ فِي حَدِيثِهِ هَذَا: أَنَّهُ مَاتَ عَلَى القِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ: رِجَالٌ، وَقُتِلُوا، فَلَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].

الشَّرح

• **قوله: «كَانَ أَوَّلَ مَا قَدِمَ المَدِينَةَ نَزَلَ عَلَى أَجْدَادِهِ»** أجداده بنو النجار؛ لأن جده تزوج منهم، فهم أجداده من قِبَل أمه، صلوات الله وسلامه عليه.

• **قوله: أَوْ قَالَ: أَخْوَالِهِ مِنَ الأَنْصَارِ، وَأَنَّهُ «صَلَّى قِبَلَ بَيْتِ المَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ البَيْتِ»**؛ يعني: الكعبة.

كما ذكر الله ﷻ ذلك في قوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤] إلى آخر الآيات، قد وطَّأ لهذا قبل هذا، وقال

قبل هذا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] ثم ذكر قصة إبراهيم وبنائه البيت؛ تعظيمًا له، ثم بعد ذلك ذكر وجوب الإيمان بالله وبرسله، وأن كل رسول يأتي بشرع يجب أن يؤمن به، ولا يجوز التفرقة بينهم، ثم ذكر تحويل القبلة، وأكَّد بمؤكِّدات، وكرر ذلك، ثم ذكر أن من السفهاء من ينكر توليتَهم إلى قِبَل البيت، والسفهاء: الذين لا يؤمنون بما جاء عن الله ﷻ ويتَّبعونه، وكل من لم يؤمن ويتبعه فهو سفيه، السفه هو: قلة العقل، وخِفَّة النفس، والابتعاد عن المَنْجى، والانحراف عنه، سواء كان في الحاضر أو في الآجل.

فكانت صلاة العصر أول صلاة صلاها، **يقول: «وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَّاهَا صَلَاةَ العَصْرِ وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ»**؛ يعني: بعد تحويل القبلة، وكان في تحويلها امتحان وابتلاء لكثير من الناس.

فكان النبي ﷺ ينظر كثيرًا ويدير نظره؛ لعل الله أن يصرفه إلى القبلة التي يرضاها، أما لما كان في مكة فكان يصلي يجعل البيت بينه وبين بيت المقدس، ويصلي إليه، فكانت هذه قبلته قبل أن يهاجر، ولما هاجر كان لا يمكن هذا، فصار يستدبره، يصلي قِبَل بيت المقدس، كل ذلك يريد أن يتألَّف أهل الكتاب، ثم لما رأى عِنادهم وكِبْرهم صار يخالفهم في كل شيء، ويأمر بمخالفتهم.

كما في قصة صيام عاشوراء، وكذلك تغيير الشيب؛ أنهم لا يغيِّرون، فغَيِّروا، وكذلك في قصة الحائض، إذا حاضت المرأة عندهم يجتنبونها ولا يجالسونها في البيت، ولا يَدَعونها تباشر شيئًا من المأكولات وغيره، ولا يزال هذا عندهم، فأمر الرسولُ ﷺ أن يُصنع كل شيء إلا الجماع مع المرأة، وهي طاهرة، ليس فيها ما يدَّعِيه هؤلاء.

والمقصود: أنه كان يخالفهم، فذكر هذا الحديث يقول، فحُوِّلت القبلة، وكان في تحويلها امتحان لكثير من الناس، وقد ذكر الله ذلك ووطَّأ له قبل ذكره؛ قال قبل ذلك: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

فالمقصود: أنه لما حُوِّلت القبلة كان أول صلاة كما في هذا الحديث صلاة العصر صلَّاها إلى الكعبة، فخرج رجل ممن صلى معه، فمرَّ على أهل قُباء وهم راكِعون إلى بيت المقدس، فَقَالَ: «**أَشْهَدُ بِاللهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ**» فاستداروا وهم راكعون، انظر كيف ـ يعني ـ عملوا بخبرِ واحدٍ؟ وامتثلوا وبنوا على صلاتهم السابقة؟ الصلاة بعضها إلى بيت المقدس، وبعضها إلى الكعبة، ولم يعيدوها!

وهذا يدل على أن الإنسان لا يلزمه الأمر حتى يَبلُغَه، وإذا كان قد عمل على خلاف ذلك أنه لا يعيد عمله؛ لأن عمله معتبر حتى يأتيه العلم، وقبل العلم لا يكون مؤاخَذًا، وكذلك هذا يدل على إبطال مذهب أهل الكلام وغيرهم الذين يقولون: إنه لا يعمل بأخبار الآحاد إلا في العمليات، وهذا تفرقة باطلة؛ الإسلام ليس فيه تفريق بين العقيدة وبين العمل، ما ثبت فيه العمل ثبتت فيه العقيدة، وما ثبت فيه العقيدة يكون من العمل.

فهؤلاء يقولون: العقائد يجب أن تكون بأخبار يقينية، أما العمل فبالأخبار الظنية لا بأس! وهذه تفرقة جاؤوا بها هم، أما أهل السُّنَّة فلا فَرْقَ بينهم، لا فرق عندهم بين هذا وهذا.

• **قوله: فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾** [البقرة: ١٤٣]؛ يعني: **صلاتكم قِبَل بيت المقدس**، فهذا يعَيِّن أن المقصود بالبيت؛ يعني: صلاتكم عند البيت، كما يقول البخاري: إنها الصلاة التي تكون إلى بيت المقدس، وهذا واضح.

فقوله ﷺ في هذا: كان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت، إلى آخره، المقصود بهذا كله ما بيَّنه في آخر الحديث، يقول: إنه مات قوم قبل تحويل القبلة، فما ندرِي ما نقول؛ يعني: في الصلاة هذه، وهذا يدلنا على أن الشرع أنه بيد الله، وأنه إذا نُسخ أمر كان يعمل به؛ أنَّ هذا لا يَنقُص من الأجر؛ بل هم على أجرهم.

وبهذا أيضًا يتبيَّن أن الإنسان مكلَّف بما وصل إليه من الحق، وإن كان بقي شيء لم يُشرَع أو لم يُذكَر، وأنه لا لوم عليه ولا نقص في ذلك، ومن

ذلك قوله كما سيأتي: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣] الذين ماتوا قبل إكمال هذا الدين يقول: لا نقص في دينهم ولا في إيمانهم؛ بل هم على الكمال؛ لأنهم قاموا بما كُلفوا، ولو جاءهم ذلك لقاموا به.

والنسخ أنكره اليهود، مع أنه موجود في التوراة، ولكنهم أصحاب عناد وكبر، وقالوا: إن النسخ هو بداءٌ؛ يعني: بدا له شيء لم يكن معلومًا، وهذا لا يجوز أن يكون بالنسبة لله ﷻ! وليس كذلك؛ فيه امتحان، وفيه ابتلاء، وفيه نِعم، وفيه حِكم لله ﷻ؛ ولهذا قال: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦].

فالله له الحكم كله، وهو الذي يأمر وينهى، وهو الذي إذا شاء ﷻ غيَّر الأمر الذي أمر به بأمر آخر، ولكن يكون أفضَلَ وخيرًا للمأمور؛ ولهذا كان ﷺ لمَّا قَدِم المدينة كان يصلي إلى بيت المقدس؛ مراعاة وتأليفًا لليهود؛ لعلهم يُسلمون، ولكنهم أصحاب عناد وكبر وحسد؛ حسدوا المسلمين، وحسدوا الرسول ﷺ، لماذا لم يكن من بني إسرائيل، ما كان من ذرية يعقوب عليه السلام؟ ولما كان من العرب حسدوهم وحسدوه، وقالوا: ليس هذا هو، مع أنهم في الأصل جاؤوا إلى المدينة ينتظرون خروجه، وإلا ليست المدينة مساكنهم في الأصل، جاؤوا لأجل ذلك، فلما خرج كان كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩] وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم!

بل قال عبد الله بن سلام الذي هو خيرهم وأفضلهم؛ لأنه آمن بالله ﷻ: والله إننا لنعرفه أكثر من معرفتنا لأبنائنا؛ لأن أحدنا يخرج من بيته، فما يدري ماذا تصنع زوجته، أما هو فلا ريب ولا شك فيه! وهكذا هم يعرفونه كما أخبر الله ﷻ عنهم، ومع ذلك كفروا وأبوا متابعته؛ لأنه هو الرسول الحق، ولا يزالون على شرهم إلى اليوم إلا من هداه الله، فقد يُهدَى منهم من يُهدَى.

والنصارى مثلهم أو أشَرُّ؛ فمن النصارى من هو أشر منهم، وهم الذين قاموا في وجه المسلمين يقاتلونهم إلى اليوم؛ بل اليوم صاروا أشد مما سبق، صاروا يتآمرون على المسلمين بالأمور الظاهرة وبالأمور الخفية التي يكيدون بها المسلمين والإسلام، يخفونها ويعرفون كيف يستغلونها في صرف المسلمين

عن الحق، وإضعافهم وإذلالهم؛ حتى لا يكون عندهم قوة أو قتالٌ لهم.

فالمقصود بهذا كله: أن العمل إيمان؛ فالصلاة عمل خاص، هو داخل فيما سبق، والصلاة تشتمل على أقوال وأفعال؛ أقوال باللسان، وأفعال بالجوارح؛ من القيام، ومن القراءة، ومن التوجه إلى الله ﷻ، ومن عَمَلِ القلب وحضوره بين يدي الله، وخشوعه، وخوفه، وما أشبه ذلك؛ ففي الصلاة معاني الدين كله، وهي عمل؛ لهذا **قال:** ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ يعني: أجر صلاتكم التي صليتموها إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة؛ يعني: في هذا الوقت الذي هو ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر، فصار نصًّا على أن العمل يسمَّى إيمانًا، فهو من الإيمان.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بابُ: حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ

٤١ ـ قَالَ مَالِكٌ: أَخْبَرَنِي زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ أَنَّ عَطَاءَ بْنَ يَسَارٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا أَسْلَمَ العَبْدُ فَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، يُكَفِّرُ اللهُ عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ كَانَ زَلَفَهَا، وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ القِصَاصُ: الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إِلَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْهَا**».

الشَّرح

• **قوله**: «**بَابُ: حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ**»؛ يعني: أنه من الإيمان، وحُسنُ إسلامه يدخل فيه فعله، ويدخل فيه قوله، ويدخل فيه نيته وقصده، فهو جامع للأعمال التي تصدر منه كلها، فيكون ذلك إسلامًا.

• **قوله**: «**بَابُ: حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ**»؛ يعني: حُسنُه: أنه يكون محسِنًا، وهذا أمر ثالث غير ما مضى أن حسن الإسلام من الدين، وأنه داخل في الإيمان، والإحسان هو أن يأتي به على أكمل وجه، حسَب استطاعته، فحسن الإسلام بهذا؛ ولهذا في حديث جبريل عليه السلام أنه جعل هذا مرتبة غير مرتبة الإسلام والإيمان، فجعل المراتب ثلاثًا: الإسلام، والإيمان، والإحسان.

وجعل **الإحسان على قسمين**:

القسم الأول: عالٍ جدًّا.

القسم الثاني: دونه.

قال: «**الإحسان أن تعبدَ الله كأنك تراه**»، هذه أعلى مراتب الإحسان، ومعلوم أن الإنسان عَبَدَ ربه وكأنه يشاهده، لا يدخر بوُسعه إحسان العمل، يأتي بكل ما يستطيع، فإذا لم يصل إلى هذه المرتبة مرتبةِ المشاهدة القلبية كأنه يشاهده، وإن كانت هذه المشاهدة في القلب، ينتقل إلى ما هو دونها، وهو مرتبة العلم، «**فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

يعني: تعلمُ أنه يشاهدك ويراقبك، وأنك بمرأى من الله ﷻ، فهذا أيضًا من الإحسان، فهنا يقول: «إِذَا أَسْلَمَ العَبْدُ فَحَسُنَ إِسْلَامُهُ» مقصوده: أنه حسَّنه؛ أي: قام بأمر الله وجاء بما يستطيع من تكميله وإتمامه مع الإخلاص والصدق والاجتهاد في هذا.

• **قوله:** «يُكَفِّرُ اللهُ عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ كَانَ زَلَفَهَا» زلفها يعني: مضت، فكل سيئة مضت له، تُكفَّر عنه.

• **وقوله:** «وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ القِصَاصُ» القصاص؛ يعني: بين الحسنات والسيئات؛ فالحَسَنَةُ تكون بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا فقط.

ولكن المقصود بالقِصاص هنا: الموازنة بين الحسنات والسيئات، فهل الآحاد تغلب العشرات؟ وليست عشرات فقط، قد تكون سبعمائة! السيئة واحدة، والحسنة قد تصل إلى سبعمائة ضعف، وقد تصل إلى أكثر من ذلك.

لهذا قال: «القِصَاصُ: الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا فقط إِلَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْهَا»؛ يعني: أن السيئة أيضًا قد تَبطُل نهائيًّا، قد يتجاوز الله عنها ولا يكون هناك سيئة، فهي على طريق العفو، فإذَن الحسنات مستيقَنة وموجودة ومحفوظة، أما السيئات فهي إذا كانت محفوظة فهي واحدة، وقد يعفو الله عنها نهائيًّا.

والمقصود بإحسان الإسلام، هو: يأتي بالأعمال على الوجه المطلوب الكامل، وهذا من الإيمان، كما أن من حُسن الإسلام ألَّا يكون مسيئًا في أعماله، تاركًا لما وجب عليه، مرتكبًا للمحرمات، وقد يفهم من هذا أن من كان كذلك أنه لا يُجازى بمثله، ولا يكون له ذلك.

فلا بد من الإسلام والاستسلام لله وطاعته، واتباع رسوله، وطلب ما عند الله ﷻ بالاحتساب والتعرض لفضل الله. وقال: من الإسلام؛ لأنه عنده - مثل ما مضى - الإسلام والإيمان شيء واحد.

• **فقوله:** «يُكَفِّرُ اللهُ عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ كَانَ زَلَفَهَا»، «زلفها»؛ يعني: مضت

في عمره الذي كان يؤاخَذ فيه، وكان بعد ذلك القِصاص: المُقاصَّة والمُحاصَّة بين الحسنات والسيئات. الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، أما وَالسَّيِّئَةُ فبِمِثْلِهَا فقط، إِلَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْهَا. أما الحسنة فهي مضمونة؛ إما بعشر أمثالها، وإما بسبعمائة مِثْل، أو أكثر حسَب إرادة الله ﷻ، أما السيئة فلا يُجزَى إلا مِثلَها، وقد يتجاوز الله عنها ويعفو؛ لهذا قال: «**إلا أن يتجاوز عنها**»، وهذا من رحمة الله ﷻ وفضله.

٤٢ ـ **حَدَّثَنَا** إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ: فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِهَا**».

الشَّرح

كل هذا فضل من الله: أنه لا يُكتَب للإنسان بالسيئة إلا واحدة فقط، وقد تمحى، أما الحسنات فلا تمحى؛ بل تضاعَف، والمضاعفة كلها فضل من الله ﷻ، وكل ذلك من الإيمان، فهل بقي شيء؟!

ما بقي شيء من الأمور التي كُلِّفْنا بها إلا وهو داخل في الإيمان.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَدْوَمُهُ

٤٣ ـ **حَدَّثَنَا** مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ هِشَامٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ، قَالَ: «**مَنْ هَذِهِ؟**» قَالَتْ: فُلَانَةُ، تَذْكُرُ مِنْ صَلَاتِهَا، قَالَ: «**مَهْ! عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَاللهِ لَا يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا**» وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَامَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ.

الشَّرْح

• **قوله: «بَابٌ: أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَدْوَمُهُ»**؛ يعني: الذي يداوم عليه صاحبه، وفي هذا فيه إشارة إلى أن بعض الأعمال أحب إلى الله من بعض، وأن هذا ليس بالكثرة، وإنما هو بالصفة أو الاستمرار، وهذا معناه: أن الدين له أبعاض، وله أجزاء، وله صفات بعضها يختلف عن بعض، كل هذا يدل على أن العمل إيمان، وأن الإيمان يكون كاملًا ويكون ناقصًا، وبعضه يكون أحب إلى الله من بعض؛ لأنه الدين المقصود به الأعمال، كما هو واضح من الحديث.

• **قوله: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ، قَالَ: «مَنْ هَذِهِ؟» قَالَتْ: فُلَانَةُ، تَذْكُرُ مِنْ صَلَاتِهَا..»** جاء في «صحيح مسلم» أن هذه المرأة اسمها: الحولاء بنت تويت، وأن عائشة قالت عنها: زعموا أنها لا تنام الليل[1]!

• **قوله: «.. قَالَتْ: فُلَانَةُ، تَذْكُرُ مِنْ صَلَاتِهَا..»** أن هذه المرأة ذكرت من صلاتها ومن اجتهادها، فأنكر ذلك الرسول ﷺ، وقال: «**عليكم**»؛ يعني: بالرفق وبالسهل الذي تطيقونه، وكلمة «مه» هذه يعني: كلمة زجر، يقول:

(١) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب من نعس في صلاته، حديث رقم (٧٨٥).

اتركوا هذا الأمرَ. «**عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَاللهِ لَا يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا**».

• **وقوله** ﷺ: «مه»، هذا زجر لعائشة، يحتمل أن المزجور عنه المدح في الوجه؛ لأن هذا أمر منهيٌّ عنه، ولا يجوز أن يُمدح الإنسان في وجهه؛ لأن هذا فيه غرور في الواقع، وفيه فتنة؛ لأن النفس مجبولة على حب الرفعة والحظوة عند الناس؛ لهذا تجد الإنسان الذي يألف هذا إذا لم يُمدَح ولو بالكذب، فإنه لا يقوم بما يجب عليه، وهذا محرَّم على من يكون بهذه الصفة؛ فإنه لا يجوز. ولا يُعتَرَض على هذا بقول يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: ٥٥].

لأنهم ما كانوا يعرفون هذا عنه، فأراد أن يبيِّن ذلك للحاجة، هكذا إذا احتاج الإنسان إلى هذا الأمر، ولا يريد بهذا الترفع على الناس؛ فإنه لا بأس به ـ إن شاء الله ـ.

ويحتمل أنه ليس هذا المقصود، يحتمل أنه زجر عن هذا العمل الذي ذُكِرَ من أنها لا تنام بالليل، وهو الظاهر من الحديث؛ ولهذا **قال**: «**عليكم بما تطيقون**»، هذا كأنه يُعَيِّن أن هذا هو المراد: عليكم بما تطيقون من العمل، والطاقة: هي فعل الشيء بدون كُلفة ومشقة.

• **قوله**: «**واللهِ لا يمَلُّ الله حتى تمَلُّوا**» وهذه الكلمة «الملل» معناها: السآمة من الشيء، وإذا سئم الإنسان من الشيء تركه، فمعناه: أنكم إذا داومتم على هذه الشدة تسأمون وتعجِزون وتتركون العمل، وهذا لا ينبغي؛ أن يترك عملًا صالحًا بعدما فعَلَه.

ينبغي على العبد أن يزداد خيرًا كلما تمادى به العمر، كل يوم يكون أحسن من الذي قبله، ولا يجوز العكس، فإن هذا إن انعكست الأمور معناه: أنه يتأخر، وربما تمادى التأخر حتى صار هذا تقدمًا إلى السفل أو إلى النار! قد قال بعض العلماء: من كان يومه أسوأ من أمسِه فإنه يتقرَّب إلى النار.

المقصود: أن الإنسان إذا سئم من الشيء ومل منه، فإنه يكرهه، أو يَثقُل عليه، فلا يستطيع أن يستمر فيه، وهذا أمر مذموم لا يجوز للمسلم أن

يفعل ذلك، لا سيما إذا كان يتقرب بهذا الأمر إلى الله ﷻ، هذا يحمل نفسه على الشيء الذي يكون فيه سهولة وقصد؛ حتى لا يَمَلَّ.

• **وقوله: «فوالله لا يمَلُّ الله حتى تمَلُّوا»** بعض الناس يقول: إن هذا من صفات الله، وهذا في الحقيقة نقص، والله له الكمال، وإن قالوا: إنَّ ملل الله غير ملل الإنسان، هذا تخرُّص، وليس ذلك بصحيح، ولكن هذا في المقابلة؛ مقابلة الشيء بالشيء، مثل ما قال الله ﷻ: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]. الله لا ينسى، ولكنه يتركهم، ولا ينظر إليهم النظرَ الذي فيه رحمة، وقد جاء في رواية رواها بَقِيُّ بن مَخلدٍ أنه قال: «إنَّ الله لا يَمَلُّ من الثواب حتى تمَلُّوا من العمل»[(١)]، وهذا يعَيِّن المعنى، وأن المعنى: أنه لا يترك ثوابَكم حتى تتركوا العمل، ونظير هذا ما جاء في الحديث الذي في «الصحيحين» أيضًا أن العبد لا يزال يتقرَّب إلى الله بالطاعات كما قال الله ﷻ: **«إذا تقرَّب عبدي مني شبرًا تقرَّبت منه ذراعًا، وإذا تقرَّب مني ذراعًا تقرَّبتُ منه باعًا ـ أو بوعًا ـ وإذا أتاني يمشي أتيته هرولةً»**[(٢)] إلى آخره.

فمنهم من يُثبِت الهرولة لله والمشي! وهذا خلاف نص الحديث نفسه؛ لأنهم يتَّفقون على أن الإنسان ما يتقرَّب إلى الله بالأشبار والأذرُع والمسافات، وإنما يتقرب إليه بالطاعة، فإذا كان كذلك فالمقابل مثله، إذا تقرَّب إلى الله بطاعةٍ تقَرَّب الله إليه بالإجابة والإثابة أكثَرَ من ذلك، الرسول ﷺ ما يذكر شيئًا إلا ويذكر ما يبيِّنه ويوضِّحه.

والواجب في مثل هذه الأمور أن نأخذ القاعدة التي هي: **الكمال المطلق لله من كل وجه، وأن الله لا يوصف بشيء من النقص، تعالى الله وتقدس**، ثم الواجب على طالب العلم أن يتفهم مراد المتكلم، وهذا يتبين

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ٣٥٩)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٢٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٥٧)، كتاب التوحيد، باب ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه، ورقمه (٧٥٣٦)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٦١)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب الحث على ذكر الله تعالى، ورقمه (٢٦٧٥).

بالسياق والقرائن؛ بسياق الكلام، وقرائن الأحوال، وغيرها، فإذا تبين مراد المتكلم فهذا هو الظاهر، ولا يكون في ذلك تأويل؛ لأن المقصود فهم الكلام.

المقصود أن قوله: «**عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ؛ فَوَاللهِ لَا يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا**» وقد اشتهر عند كثير من الناس هذا الحديث؛ لتعلُّقِه بفعل الله ﷻ في قوله: لا يمل الله، هل الله ﷻ يوصف بأنه يَمَلُّ؟

في الحقيقة أن هذا ليس من باب الصفات؛ لأن هذا من باب المقابلة باللفظ، ومعنى: تملوا؛ يعني: أنه لا يترك إثابتكم حتى تتركوا العمل. هذا معناها.

ومثل ذلك الحديث الآخر: «**إذا تقرَّب العبد إليَّ شِبرًا تقرَّبتُ إليه ذراعًا، وإذا تقرَّب مني ذراعًا تقرَّبت منه باعًا، وإذا أتاني مشيًا أتيته هرولةً**»[1] هل الله يوصف بالمشي والهرولة والتقرب بالأشبار والأذرع؟!

لو مثلًا سُئل الإنسان: هل العبد يتقرَّب إلى الله بالركض وبالمشي، أو بالطاعة؟

لقال: بالطاعة، فكيف يكون هذا بالنسبة للعبد على ظاهره، لا يمكن إلا أن يكون بالطاعة، لا بالهرولة ولا بالمشي ولا بالركض، بالاتفاق، ولم يقل أحد: إنه بالخُطا والمشي، اتفقوا على أنه التقرب بالطاعة، ثم إذا جاؤوا بالمقابل الذي يكون لله قالوا: هذا يجب أن نجعله على ظاهره! هذه تفرقة في الواقع؛ تفرقة بين متماثلين.

فإذا كان تقرُّب العبد إلى الله بالطاعة، فتقرُّب الله إلى العبد بالإثابة والإجابة، هذا هو الذي يدل عليه كلام رسول الله ﷺ، فلا يكون هذا من باب الصفات، فمعنى الحديث: أن الله لا يترك إثابتكم وإجابتكم حتى تتركوا العمل، وهذا ظاهر أنه مراد الرسول ﷺ، ولكن المقصود هنا أن الله يحب من العمل ما داوم عليه صاحبه.

---

(١) تقدم تخريجه.

وهذا يدل على أن الأعمال التي تكون سهلة على الإنسان ويداوم عليها؛ أنها أحب إلى الله. والمداومة على الشيء وإن كان قليلًا فإنه يكون كثيرًا، وهكذا كان رسول الله ﷺ إذا عمل عملًا داوم عليه؛ لهذا لما شُغل مرةً عن الركعتين أو الأربع التي بعد الظهر، صلاها بعد العصر، وقيل له: أنصليهما؟ قال: «لا»، ثم إذا فعل شيئًا داوم عليه.

• **قوله: «وكان أحبَّ الدِّينِ إليه ما داوم عليه صاحبه»** الذي يكون أحبَّ إلى النبي ﷺ فهو أحب إلى الله، وأَحَبُّ: أفعل تفضيل؛ يعني: أن هناك شيئًا محبوبًا، ولكن هذا أفضل، ما داوم عليه صاحبه، وعلى هذا نقرأ كثيرًا في الكتب التي تذكر التراجم وما يفعله الناس: أن فلانًا كان لا ينام الليل، وكان يصلي ألف ركعة، وكان وكان.. إلى آخره، فمثل هذا لا يجوز؛ لأن هذا خلاف الحق، ثم يذكرونه على سبيل المدح والثناء!

والواجب النظر إلى ما قاله الرسول ﷺ؛ ولهذا زجرها عن هذا قال: «مه»؛ يعني: لا تفعلي هذا الشيء؛ لأن هذا مكروه لله، وبهذا يتبين لنا أن الدين يختلف؛ يعني: الأعمال؛ منها ما هو محبوب إلى الله أكثر..

وأن العبد إذا عمل عملًا داوم عليه؛ ولهذا قال ﷺ لعبد الله بن عمرو: **«لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل»**[1].

ومعنى هذا: أنه يجب أن يحذر منه، فإذا فعل الإنسان عملًا ينبغي له أن يداوم عليه؛ ولهذا يكون في الابتداء عملًا سهلًا يستطيع أن يداوم عليه، ونَفسُ الإنسانِ مَطيَّتُه التي يسير عليها إلى ربه، ينبغي ألا يوغِلَ في الإضرار بها؛ فإنه إذا ضَرَّ بها عجزت، فليراعِ ذلك وليأخُذْ من الأمور التي يستمر عليها، وهذا هو المحبوب إلى الله.

(١) تقدم تخريجه.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ: زِيَادَةِ الإِيمَانِ وَنُقْصَانِهِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف: ١٣]، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، وَقَالَ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فَإِذَا تَرَكَ شَيْئًا مِنَ الكَمَالِ فَهُوَ نَاقِصٌ.

الشَّرْح

الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ ينوّع الأدلة ويسوقها ويكرر ذلك؛ حتى يكون هذا أبلغ في الاستدلال، وفي زيادة المعلومات، وغير ذلك.

• **قوله: «بَابُ: زِيَادَةِ الإِيمَانِ وَنُقْصَانِهِ»** إذا كان الإيمان يزيد وينقُص، فهو عمل، ولو كان شيئًا ثابتًا لم يَنقُص، مع أن الاعتقاد نفسَه يزيد وينقُص، والعلم كذلك يزيد وينقُص، والنقصان يكون بالنسيان، أو بالتجاهل والترك، وغير ذلك؛ فأما الزيادة فقد ورد التنصيص عليها في مواضع كثيرة من كتاب الله ﷻ.

ويقصد بالترجمة بيان: الدليل على زيادته ونقصانه

• **قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾** [الكهف: ١٣] الذين اهتدوا زادهم الله هدًى، هذه نزلت في أصحاب الكهف؛ الفتيةِ الذين هداهم الله فزادهم الله هدًى، صرح بزيادة الهدى. وزيادةُ الهدى زيادة إيمان.

• **وقوله: وقال تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾** [المدثر: ٣١] فإذَن الهدى والإيمان شيء واحد، وإذا آمن العبد زاده الله إيمانًا، وزيادة الإيمان كما سبق تكون بالأعمال، وقد ورد هذا في آيات عدة من كتاب الله ﷻ؛ قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢] وهذا ظاهر بأن هذا في الأعمال، تلاوة الآيات وسماعها هذا عمل، وزيادة الإيمان يكون بالعلم وبالعمل، والعلم

أولًا، يعلم ثم يعمل، فيزداد إيمانًا، وهذا هو الذي رُوي عن الصحابة؛ قال أحدهم: «اجلس بنا نؤمِنْ ساعة»؛ يعني: أنهم يذكرون الله ويتدارسون كتاب الله ويتفهمونه، فيكون هذا زيادةً في الإيمان.

وإذا تُرك ذلك صار هذا نَقْصَ الإيمان، وهذا كثير، وقد اتفق السلف على هذا ولم يختلفوا فيه، وإنما الذي منع من هذا المُرجِئةُ، والمرجئة ليسوا من أهل العلم، ولا من أهل الإيمان، ولا من أهل متابعة الحق، وإنما يتَّبعون أهواءهم وما رسموه لأنفسهم بعقولهم، وهذا ما يكون عليه أهل البدع غالبًا، فقالوا: إن الإيمان شيء واحد لا يزيد ولا يَنقُص، قالوا: ولو كان يزيد وينقص لذهب، ولا ما بقي منه شيء. وقد جاء عن السلف: أن الإيمان قد يذهب ولا يبقى منه شيء، وقد يَضعُف فلا يقوى على منع الإنسان من اقتراف المعاصي، كما ثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نُهبةً ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها، وهو مؤمن**»[1].

والتوبة معروضة لمن يتوب، وليس معنى ذلك: أنه خرج من الإيمان كليًا ودخل في الكفر كما تقوله الخوارج. وأهل البدع والضلال قد يتقابلون؛ فالمُرجِئة تقابل الخوارج، فهؤلاء يقولون: لا يضر ترك العمل، وهؤلاء يقولون: ترك العمل كفر. متقابلون تمامًا، والحق دائمًا أو غالبًا يكون بين باطلين، كما هو معلوم.

فعلى هذا؛ فإن زيادة الإيمان أمر متَّفَق عليه بين السلف، أما خلاف المرجئة والخوارج فلا يعتبر خلافًا؛ لأنهم **أولًا**: اتصفوا بكل جهل، **وثانيًا**: أنهم لا يريدون الحق وإنما يريدون شيئًا رسموه لأنفسهم واتبعوه؛ لهذا قالوا: إن الشيء إذا نقص ذهب، ومن المعلوم أن الذي يقبل النقص يقبل الزيادة.

ومن ذلك أيضًا الاستثناء في الإيمان كما مر أنهم يقولون: هذا شك، من يستثني في إيمانه، يكفر! فهم يجزمون يقولون: نحن مؤمنون ونحن من

---

(١) تقدم تخريجه.

أهل الجنة، فمن آمن فهو من أهل الجنة ولو لم يُصَلِّ، ولم يزكِّ... إلى آخره! هذا في غلاتهم، ثم الباطل يتدرج.

ويستدل للنقص بقوله ﷻ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣]. يقال: إنه قبل الكمال كان ناقصًا، ولكن هذا النقص ليس بالنسبة للعاملين الذين عملوا قبل نزول هذه الآيات وماتوا على ذلك، فهم كاملو الإيمان؛ لأنهم عملوا بما كُلفوا به، ولو جاءهم شيء زائد لعملوا به، فكماله زيادة الأوامر والنواهي والأعمال التي يؤمرون بها.

وفي هذه الآية أيضًا دليل على وجوب التوقف مع النصوص، وأن الذي يأتي بأمر زائد يأتي ببِدع، وأن الدين هو ما جاء به الرسول ﷺ فقط، وما كان غير مُبَلَّغ من الرسول مما بلَّغه أمته فهو من البدع والضلالات، هذه مع قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

فالذي ما بلَّغه الرسول ﷺ ليس من الدين، و﴿ٱلْيَوْمَ﴾ هذا يوم مُعَيَّن، وهو يوم عرفة في السنة العاشرة من الهجرة، وهو في آخر حياة النبي ﷺ، عاش بعد هذا اليوم ما يَقرُب من الاثنين وثمانين يومًا فقط، ثم توفَّاه الله ﷻ بعد كمال الدين، وهذه الآية يقولون: هي آخر ما نزل من القرآن. لكن نزل بعدها قوله ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١] وهذه هي آخر سورة نزلت، والله أعلم؛ لأن فيها إشارة إلى انتهاء عمره ﷺ، وانتقاله إلى جوار ربه تعالى وتقدس، فإذَن الدين يكون كاملًا بالنسبة للعامل، ويكون ناقصًا؛ فدلت الآية على نقصانه.

ومما يدل على هذا النقصان أيضًا قوله ﷺ للنساء: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لُبٍّ من إحداكن؛ أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي ما تصلي، وتُفطر في رمضان، فهذا نقصان الدين**»[1].

---

(١) تقدم تخريجه.

وهي غير مؤاخَذة، ولكن لا تكون مثل الذي يصلي؛ يعني: لا تتساوى التي ما تصلي مع التي تصلي، هذا هو النقصان، ولا يلزم أنها تؤاخذ بذلك؛ ولهذا قال: «**إذا ترك شيئًا من الكمال فإنَّه ناقص**»؛ يعني: هذا وجه الاستشهاد بالآية: ﴿**ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى**﴾ [المائدة: ٣].

جاء عن الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: أهاب أن أقول بالنقص، أما الزيادة فظاهرة، ولكن هذا واضح؛ فإن الذي يزيد قَبْلَ الزيادة يكون ناقصًا، وهذا أمر واضح، إذَن الدين ذو أجزاء وأنواع وأعمال، من كَمَّل هذه الأجزاء وجاء به فدينه يكون كاملًا، ومن نقص شيئًا فهو ناقص الدين، هذا أمر ظاهر جدًّا، وفيه الرد على المخالفين في هذا.

• **قوله: «فَإِذَا تَرَكَ شَيْئًا مِنَ الكَمَالِ فَهُوَ نَاقِصٌ»**؛ يعني: قبل أن يكمل يكون ناقصًا، ولما كَمَل تمَّ.

ومعنى هذا: أن فعل الأوامر وترك النواهي: من الدين، من الإيمان؛ فالدين جاء بالأمر والنهي، فإذا أمر بشيء وفُعل كان هذا زيادة، وقبل أن يُفعَل هذا الشيء وقبل الأمر يكون متطلبًا للزيادة، فهو لم يكمُل بعد، وإن كان بالنسبة للعاملين بما كُلِّفوا به يكون إيمانهم كاملًا؛ لأنهم جاؤوا بما كُلفوا به.

٤٤ ـ حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: حَدَّثَنَا هِشَامٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ**».

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: قَالَ أَبَانُ: حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، حَدَّثَنَا أَنَسٌ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**مِنْ إِيمَانٍ**» مَكَانَ «**مِنْ خَيْرٍ**».

الشرح

سبق الكلام في هذا، وقلنا: إن الإنسان قد تتوارد عليه خصومه على أعماله فتتوزَّعها وينتهي عمله ولا يبقى إلا الإيمان الذي في قلبه، فيُلقى في النار؛ لأن الذي يترك الأعمال ما قام بالأمر الذي ينبغي له، فهو في الواقع استحق العذاب، وأن الإيمان الذي في القلب لا يؤخذ منه للخصوم؛ إذ لو كان أُخذ إيمانه لخُلِّد في النار، وهذا لا يُشكِل على من عرف الأحاديث في هذا.

وبعض الناس يستشكل هذا، يقول: معنى ذلك أن الذي يقول: لا إله إلا الله يكفيه ذلك أنه ينجو من النار، يقول: هذا يدل على ذلك، كما جاء في «الصحيح»: عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ، قال: «**أتدرون ما المفلسُ؟**» قالوا: المفلِسُ فينا من لا درهمَ له ولا متاعَ، فقالَ: «**إنَّ المفلسَ منْ أمَّتِي يأتي يومَ القيامةِ بصلاةٍ، وصيامٍ، وزكاةٍ، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مالَ هذا، وسفكَ دمَ هذا، وضَرب هذا، فيُعطَى هذا من حسناتهِ، وهذا من حسناتِهِ، فإن فنِيَتْ حسناتُهُ قبل أن يُقْضَى ما عليه أُخذَ من خطاياهُمْ فطُرِحتْ عليه، ثمَّ طُرِحَ في النَّارِ**»[1].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٨١)، باب تحريم الظلم.

ويختلف الأمر باختلاف كثرة الحقوق وقِلَّتها، والله ﷻ يخبر أن من ثقُلت موازينه فهو في عيشة راضية، ومن خفَّت موازينه فأمُّه هاوية، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ [القارعة: ٦ ـ ٩] والموازين بين الحسنات والسيئات، وهذا ما بقيت له حسنات حتى توازَن مع السيئات، فتكون أمه الهاوية يهوي فيها، ولكنه كان مؤمنًا.

غير أن السبب الذي ينجو به ذهب، فلا بد أن يلقى جزاءه، فيوضع في النار؛ حتى يكون يأخذ ما يستحقه من العذاب، ثم يخرج، وهذا يدل على التفاضل أيضًا، فمن كان في قلبه وزن بُرة ليس كمن في قلبه وزن ذرَّة؛ البُرَّة: يعني: حبَّة البُرِّ، وهي أكبر من الذَّرَّة.

• **وقوله:** «**من خير**»؛ يعني: من إيمان، وهذا نص في أن بعض أهل الإسلام يدخلون النار، وقد تواترت الأحاديث في هذا، وأن كثيرًا منهم يدخل النار، ثم يخرج منها.

يعني كما سبق؛ ولهذا قد يعذَّب في القبر، وقد يعذَّب أيضًا في الموقِف، فإن لم يكف هذا عُذِّب في النار، وقد أثبتت النصوص بأن عذاب القبر سببه المخالفات، وارتكاب المعاصي، هذه أمور يجب على الإنسان أن يحذر منها، والعبد ضعيف، والقبر فيه حياة، ما يكون جثة هامدة لا يحس بشيء؛ بل هو يحيا في القبر!

وهذه الحياة حياة غيبية لا نعرف حقيقتها، ولكنها حياة كما أخبر الرسول ﷺ بذلك في أحاديث كثيرة، وربنا ﷻ أخبرنا بهذا، لما قال ﷻ في آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر: ٤٦].

إذَن هذا نص بأنهم في البرزخ يُعْرَضون على النار بُكرة وعَشِيًّا، وعَرْضُهم عذابُهم يعذَّبون به، وجاءت النصوص الواضحة في السُّنَّة بهذا؛ ولهذا كان إنكار هذا من الضلال.

• **وقوله:** «**من قال: لا إله إلا الله**» هل يُتصور أن هذا مجرد القول فقط

بدون علم ومعرفة؟! هذا لا ينفع. هذا يكون مثل الهَذَيان الذي يصدر من السكران، أو من المجنون الذي لا يعقل ما يقول، إنما يقول ذلك مع معرفة المعنى، والعمل بهذا؛ ولهذا إذا قال الكافر: «لا إله إلا الله» وجب الكفُّ عنه حتى يتبين مِن عَمَلِه هل هو صادق أو غير صادق؟ فإذا تبيَّن أنه غير صادق فهو كافر.

يعني: هذا يتبين بعمله، كونه يصلي أو لا يصلي، وفيه أن الناس أيضًا يختلفون في فهم قول: «لا إله إلا الله» والعمل بها؛ لهذا قال في الأُولى: في قلبه «بُرَّة». ثم في الثانية قال: «ذَرَّة»، وهذا مقصود البخاري من هذا الحديث، وبه يتبيَّن التفاوت بين القائلين، وهذا معناه فيه زيادة وفيه نقص، وهو ظاهر بيِّن.

المقصود: أن هذا يدل على تفاوتهم في الإيمان، ويدل على أن التفاوت في القلب أيضًا، فهذا واضح في النقصان والزيادة بالنسبة للعاملين وليست بالنسبة للدين، الدين كامل، ولكن بالنسبة للعامل يزيد وينقص.

٤٥ ـ **حَدَّثَنَا** الحَسَنُ بْنُ الصَّبَّاحِ، سَمِعَ جَعْفَرَ بْنَ عَوْنٍ، حَدَّثَنَا أَبُو العُمَيْسِ، أَخْبَرَنَا قَيْسُ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، أَنَّ رَجُلًا مِنَ اليَهُودِ قَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تقرؤونها، لَوْ عَلَيْنَا ـ مَعْشَرَ اليَهُودِ ـ نَزَلَتْ لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ اليَوْمَ عِيدًا. قَالَ: أَيُّ آيَةٍ؟ قَالَ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] قَالَ عُمَرُ: قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ اليَوْمَ، وَالمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ.

الشَّرح

• **قوله: «آيةٌ في كتابكم تقرؤونها»**؛ يعني: برَّأ نفسه أنه ليس لهم، والقرآن نزل لكل من في الأرض، ولكنَّ اليهود يرون أنه ليس عليهم أُنزل! ويقولون: إن كتابنا التوراة فقط، التوراة قد نسخها الله ﷻ، حتى قال ﷺ: **«والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًّا، ما وسعه إلا أن يتَّبعني»**[1]، فكيف بآحاد الناس؟!

• **قوله: «قَالَ عُمَرُ: قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ اليَوْمَ، وَالمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ»**. عمر رضي الله عنه يعرف عنادهم وتكبرهم، فقال له: نحن نعرف اليوم والمكان؛ المكان عيد، واليوم عيد، ولا يزال عندنا عيدًا؛ لأنه يوم عرفة ويوم جمعة، فيوم عرفة عيد، ويوم الجمعة عيد للمسلمين، فنحن ما تركنا هذا ولا نتركه.

• **قوله: «وَالمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ»**؛ يعني: أنها نزلت في عيدين؛ عيدين للمسلمين، ليس عيدًا واحدًا: عيد مكاني، وعيد زماني، الجمعة عيد الأسبوع، وعرفة عيد الوقوف، وهذا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣/٣٤٩)، وابن أبي شيبة (٢٦٤٢١).

يدلنا على أن اليهود يعرفون الحق ولكنهم لا يتَّبعونه، ويظهر أنه يقصد بهذا الكلام القَدْح في المسلمين؛ لأنهم ينزل عليهم مثل هذا ولا يعظِّمونه ويتَّخذون ذلك اليوم عيدًا؛ فاليهود اتخذوا اليوم الذي نجا فيه موسى وغَرِق فيه فرعون عيدًا، وهو يوم العاشر من محرَّم، وكانوا يصومون أيضًا؛ تعظيمًا.

والمقصود بهذا معرفة الآية وما دلت عليه، ليس كلام اليهودي، فمقصود البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذه الآية نزلت في آخر عهد النبي ﷺ، وهذا وجه الكمال، وذلك أن الأوامر والنَّواهي والإخبارات التي يجب أن تُعتقَد ويؤمَن بها، وكذلك أمور الآخرة وما يكون لله من أوصاف وأسماء: قد انتهت بنزول هذه الآية؛ لأن نزول القرآن انتهى؛ حيث كَمَل الدين.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: الزَّكَاةُ مِنَ الإِسْلَامِ

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥].

الشَّرح

• **قوله**: «بَابٌ: الزَّكَاةُ مِنَ الإِسْلَامِ»؛ يعني: من الإيمان كما سبق؛ لأنه كما قلنا: إن الإسلام والإيمان عنده سواء.

• وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥].

يعني: أن الدين الذي أُمروا به هو عبادة الله وحده، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وهذا هو الدين القيم الذي سمَّاه الله دينًا، وهو الإسلام والإيمان، والأعمال هي إيمان، ومن لم يعمل لا يكون مؤمنًا.

أي: جعل إقامة الصلاة، وعبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة: كله دينًا.

• **وقوله**: ﴿ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾؛ يعني: الدين القائم الذي جاءت به الرسل من عند الله ﷻ، فهو دين كله، والدين هو الإسلام.

٤٦ ـ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، عَنْ عَمِّهِ أَبِي سُهَيْلِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللهِ يَقُولُ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرَ الرَّأْسِ، يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ وَلَا يُفْقَهُ مَا يَقُولُ، حَتَّى دَنَا، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ**، فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟

قَالَ: **لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ**، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **وَصِيَامُ رَمَضَانَ**. قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ قَالَ: **لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ**. قَالَ: وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ **الزَّكَاةَ**، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ **قَالَ: لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ**. قَالَ: فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: واللهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلَا أَنْقُصُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ»**.

الشَّرح

ذكر حديث الرجل الذي جاء من نجد **يقول**: «**ثائرَ الرأس**» لأنَّه تجشَّم السفر، «**وثائر الرأس**»؛ يعني: رأسُه غير مُسرَّح ولا مغسول.

• **قوله**: «**يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ وَلَا يُفْقَهُ مَا يَقُولُ..**» لأنه رجل كبير، **يقول**: «**فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الإِسْلَامِ**»، **فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ**: «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ**» بعد أن قال له: تعبدُ الله ولا تشرك به شيئًا، وفي هذا دليل على أنه لا يجب على المسلم في اليوم والليلة إلا خمس صلوات.

لا يجب الوتر ولا تجب تحية المسجد ولا غير ذلك من الزائد على الصلوات الخمس، ثم استثنى **قال**: «**إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ**»؛ يعني: التطوع أن يأتي بما لا يلزمه، وإنما هو تبرع؛ طلبًا لزيادة الأجر، وهذا في كل العبادات؛ الصلاة وغيرها، ثم الصوم، والزكاة. الصوم فيه تطوع، والزكاة فيها تطوع، وكل عبادة فيها تطوع، سمِّي تطوعًا؛ لأنه يفعل باختياره، وإذا فعله فإن له عند الله ﷻ أجرًا.

فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ».

التطوع هو الإتيان بالشيء الذي لا يلزم، وإنما هو تبرع، والتطوع يكون للإنسان نفسه.

• **قال: «وصيام رمضان»**، وبعض العلماء يكره أن يقال رمضان، ولا كراهة فيه.

• **وقوله: «فأدبر الرجل وَهُوَ يَقُولُ: وَاللهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلَا أَنْقُصُ..»**، ولم يذكر الحج؛ لأن هذا قبل فرضية الحج، وحَلِفُه بأنه لا يزيد ولا ينقص؛ يعني: أنه يتمسك بما قاله له رسول الله ﷺ من الفرائض، فإذا جاءت فريضة بعد هذا فإنه يلتزمها.

• **وقوله: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ»** في رواية أنه ذكر له شرائع الإسلام؛ يعني: إن صدق دخل الجنة؛ لأن الفلاح هو دخول الجنة، وفي رواية في غير هذه **«أفلح ـ وأبيه ـ إن صدق»**[1]، وهذا حلف بغير الله، وقد أشكل هذا على كثير من الشرَّاح، والصواب في هذا: أن هذا قبل تحريم الحلف بغير الله؛ لأنه كان أوَّلًا جائزًا، كانوا يحلفون بآبائهم حتى جاء تحريمه.

أما الجوابات التي ذكرها بعض الشراح، مثل النووي رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره ـ فهي لا تستقيم؛ حيث قالوا: إن هذا ليس على وجه الجد، وإنما خرج مخرج الغالب الذي كانوا يتعاطونه سابقًا فلم يرده، وهذا لا يصح؛ لأنه لا يجوز الحلف بغير الله، جدًّا أو هازلًا، أو مريدًا أو غير مريد، فهو من الشرك بالله!

وأجاب بعضهم بأن الحديث فيه غلط، فالأصل هو هذا: «أفلح ـ والله ـ إن صدق»، وغيَّره بعض الرواة! وهذا أيضًا لا يصح؛ لأن هذا اتهام للرواة بأنهم يغيِّرون الكلام، وفيه فتح باب للزندقة، وكذلك قولهم: إن هذا من لغو اليمين، هذا أيضًا لا يصح. **فالجواب الصحيح هو ما قلنا من أن هذا منسوخ**، يدل على ذلك ما جاء عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يحلف بأبيه، فأدركه الرسول ﷺ، فقال: **«إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، ومن كان حالفًا فليحلِفْ بالله**

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٤١)، كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام، ورقمه (١١).

أو ليصمُتْ»[١]؛ فدل على أن الأمر باجتناب هذا كان متأخرًا.

وقد جاء في «سنن النسائي» أن يهوديًا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تنددون، وإنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئتَ، وتقولون: والكعبة، «فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، ويقولون: ما شاء الله، ثم شئتَ»[٢] وما أشبه ذلك من الأحاديث، وهذا الذي فسره العلماء وقالوا: إنه هو الصحيح.

المقصود: أن الدين فيه شيء واجب، وفيه شيء مستحب، وأن الإنسان إذا اقتصر على الواجب فهو من أهل الجنة، ومعلوم أن الذي يقتصر على الفريضة لا يكون مثل الذي يأتي بالفريضة ويأتي بأمور تطوعية يتقرب بها إلى الله؛ فإنه يزداد درجة أو درجات، وهذا معناه الزيادة والنقص؛ زيادة الدين ونقصه، وهو ظاهر في هذا.

وفيه: أن الذي يُعَذَّب عليه الإنسان ترك الواجب، والواجب لا بد أن يأتي به على وجه الكمال، لا ينقص من ذلك شيئًا.

والنقص يكون بعين الشيء؛ بتركه، ويكون بصفته، والصفة لا يخلو إنسان من نقصها؛ لهذا كان من رحمة الله ﷻ أنه يكمل النقص بالتطوع، إذا كان نقص من صلاته كُمِّلت من صلاة التطوع، وإذا كان نقص من زكاته كُمِّل نقصه من صدقة التطوع وهكذا، فهذا فضل من الله.

والمقصود: أن هذا مثل ما مضى من أن الدين يزيد وينقص، وأن من جاء به كاملًا ـ يعني: بالواجبات ـ أنه من الناجين من عذاب الله في الدنيا والآخرة، وكذلك إذا نقص منه فهو مُعَرَّض للمؤاخذة، إن لم يعفُ الله ﷻ؛ لأنه يعفو عمَّن يشاء؛ ولهذا جعل الذنوب كلها تحت المشيئة، إلا الشرك؛ فإنه لا يغفره لصاحبه إن مات عليه؛ فلا بد أن يعذَّب.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٣٢)، كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم، ورقمه (٦٦٤٦)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٢٦٧)، كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، ورقمه (١٦٤٦).

(٢) أخرجه النسائي، كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بالكعبة، ورقمه (٣٧٧٣).

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: اتِّبَاعُ الجَنَائِزِ مِنَ الإِيمَانِ

٤٧ ـ **حَدَّثَنَا** أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَلِيٍّ المَنْجُوفِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا رَوْحٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنِ الحَسَنِ، وَمُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنِ اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، وَكَانَ مَعَهُ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا وَيَفْرُغَ مِنْ دَفْنِهَا؛ فَإِنَّهُ يَرْجِعُ مِنَ الأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ، كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ؛ فَإِنَّهُ يَرْجِعُ بِقِيرَاطٍ**».

تَابَعَهُ عُثْمَانُ المُؤَذِّنُ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ نَحْوَهُ.

الشَّرح

• **قوله**: «**بَابٌ: اتِّبَاعُ الجَنَائِزِ مِنَ الإِيمَانِ**»؛ يعني: اتباع الجنائز تطوعًا، والذي قبله الشهادتان، والصلاة، والزكاة، والصوم وغيره: أمر حتم واجب على العبد، فمعنى ذلك: أن الدين كله إسلام وإيمان، وهذا مقصود البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لهذا يذكر الواجب ويذكر التطوع.

• **قوله**: «**بَابٌ: اتِّبَاعُ الجَنَائِزِ مِنَ الإِيمَانِ**» الحقيقة أن كل عبادة من العبادات التي شرعها الله ﷻ وشرعها رسوله ﷺ: هي من الإيمان، فهذا من أبلغ الأدلة على أن الأعمال إيمان، وهو دليل قاطع من أدلة الشرع، وهي المعتبرة.

ففيه الردُّ على الذين يقولون: إن الإيمان هو مجرد العلم والقول، وليست الأعمال داخلة فيه، وهذا قول المرجئة الذين ضلَّلهم أهلُ الحق وأتباعُه، وحكموا بأنهم ضالون؛ يعني: أخطؤوا الصواب.

• **قوله**: «**مَنِ اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا..**». وهذا احتراز من جنازة الكافر أو الذمي؛ لأن اتباعها تشييع له، فإنه لا تُحضَر جنازته ولا يُغَسَّل، ولا يدفن مع المسلمين.

• **وقوله**: في هذا: «**وكان معه**»؛ يعني: مع الجنازة، «**حتى يصلَّى عليها ويَفرُغ من دفنها، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ مِنَ الأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ..**» القيراط: هو النصيب، وهو الجزء؛ لأنه غير محدَّد، وبيَّنه في هذا، قال: إن القيراط مثل جبل أُحُد.

فالقيراط، كما اصطلح عليه علماء الحساب في الفرائض وغيرها، على شيء معين: هو جزء من أربع وعشرين جزءًا تخرج في المجاهيل من الأسهم، وهذا اصطلاح، وليس هذا المراد، المراد بالقيراط: النصيب أو الجزء، وقد قيده هنا بأنه مثل أُحُد، فهو غير المصطلح عليه من القراريط.

وقد يطلق القيراط على شيء من العملة التي يتعاطاها الناس، على حسب الاصطلاحات التي تطلق عليها.

• **قوله**: «**كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ**» والقيراط هكذا حدَّده؛ قال: مثل جبل أُحُد، هذا غير معروف للناس، والقراريط تختلف باختلاف ما توصلوا إليه وتعورف عليه بين المخاطبين.

وكذلك القيراط الذي جاء فيمن يقتني كلبًا.

عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**من اقتنى كلبًا، ليس بكلب ماشية، أو ضارية؛ نَقَص كلَّ يوم من عمله قيراط**»[1] وفي رواية: «**قيراطان**»[2]، هذا أيضًا شيء يرجع فيه إلى ما أراده الشارع ﷺ.

والمقصود: بهذا هو كما سبق: أن الأمور التطوعية والتي ليست فرضًا؛ داخلة في مسمى الدين والإسلام والإيمان.

• **قوله**: «**مَنِ اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا..**» هذا نحو ما سبق، فيه

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في إناء أحدكم، ورقمه (٣٣٢٥)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب الأمر بقتل الكلاب، ورقمه (١٥٧٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد، باب من اقتنى كلبًا، ورقمه (٥٤٨٠)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب الأمر بقتل الكلاب، ورقمه (١٥٧٤).

الدليل على التجزئة، والدليل على نقص الإيمان، وأن الناس يكون بعضهم كامل الإيمان، وبعضهم يكون ناقصًا، وأن النقص لا يكون موجبًا للخروج منه، فعلى هذا قد يكون في قلب الإنسان إيمان، وقد يكون فيه ما يضاده كما سبق، وهو لِمَا غَلَب عليه من ذلك، قد يزيد هذا وقد يزيد الآخر فيغلِب.

فهذه المسألة فيها خلاف بين أهل السُّنَّة وأهل البِدَع، ليس بين أهل السُّنَّة، ومعلوم أن خلاف هؤلاء غير معتبر ولا قيمة له؛ لأنهم خالفوا النصوص؛ نصوصَ الكتاب والسُّنَّة. والنص الواجب أن يُتحاكَم إليه هو نص كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

أما الأمور الأخرى التي تتعلق بالحديث فهي كثيرة يمكن تُستنتج منه فوائد عدة، ولكن هذا هو المقصود؛ ولهذا سيذكر البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ هذه النصوص في أماكن أُخَرَ من الكتاب، كما هي طريقته.

والمقصود أن هذا عمل فيه النية، وفيه المشي، وفيه الصلاة، وفيه المُشاركة بالحَمل إذا أمكن، وكذلك فيه مُشاركة في الدفن، كله عمل؛ فهو إيمان.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ: خَوْفِ المُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ: «مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذِّبًا»، وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: «أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ!». وَيُذْكَرُ عَنِ الحَسَنِ: «مَا خَافَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا أَمِنَهُ إِلَّا مُنَافِقٌ». وَمَا يُحْذَرُ مِنَ الإِصْرَارِ عَلَى النِّفَاقِ وَالعِصْيَانِ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥].

الشَّرح

• **قوله: «بَابُ: خَوْفِ المُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشعر»** خوف المؤمن من حبوط عمله؛ يعني: الفرق بين المؤمن وبين المنافق، ويدخل في هذا المبتدع، والذي لا يريد اتباع الحق.

• **قال: بَابُ خَوْفِ المُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ.**

الخوف من الله تعالى: من الدين، من الإيمان.

والخوف ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: خوف يسمونه خوفًا طبيعيًّا، مثل: خوف الإنسان من السَّبُع، ومن الحية، أو من شيء يسقط عليه، هذا لا لوم فيه على الإنسان، قد قال الله ﷻ في قصة موسى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١].

القسم الثاني: خوف السِّرِّ، أو الخوف الغيبي، وهذا لا يجوز إلا من الله ﷻ، فجعله لمخلوق كأن يخاف الجن، أو يخاف مخلوقًا ليس عنده؛ إمَّا ميتًا أو غائبًا أو ما أشبه ذلك، ويقول: إنه له سر، وله اطلاع يطلع على

ما في القلوب، أو ما أشبه ذلك! فهذا من الشرك، الذي لا يجوز أن يكون المؤمن عنده شيء من هذا.

بل هذا كله ينبغي أن يكون من الله؛ لأن الله غيب، مع أنه تعالى مطَّلع على كل شيء، لا يخفى عليه شيء؛ فهو مع العبد أينما كان، كما قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] يعلم ما في ضميره، ويسمع كلامه، ويرى مكانه؛ ولهذا أينما كنت ودعوت ربك فهو معك.

والمقصود: أن هذا من المراقبة، والخوف يكون عامًّا، ويكون خاصًّا، وكله عبادة؛ يعني: الخوف الغيبي السري، فلا يجوز أن يكون منه شيء لمخلوق، فمن جعله لمخلوق فقد وقع في المخالفة وفي الشرك.

ثم ذكر بعض الأقوال، «**وقال إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ**» تابعي من أفضل التابعين، وكان فقيرًا مُدقِعًا قاصرًا نفسه على التعليم، يعلِّم في بيته وفي غيره.

«كان إبراهيم التميمي يقيم الشهر والشهرين لا يأكل شيئاً، وخرج يمتار لأهله طعامًا فلم يقدر عليه، فمر بسهلة حمراء فأخذ منها، ثم رجع إلى أهله ففتحها فإذا هي حنطة حمراء، فكان إذا زرع منها تخرج السنبلة من أصلها إلى فرعها حبًا متراكبًا»[1].

وهذا من فضل الله ﷻ، ومن كرامة الأولياء، **والكرامة تكون لشيئين**:

- إما لحاجة العبد.

- وإما لنُصرة الدين، ولا تكون لإظهارها، الذي يقول: انظروا إنِّي لي كرامات!

هذه من أحوال الشياطين، وقد تكون ابتلاء، وله غير هذا رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومع هذا يقول إبراهيم التيمي: «**مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذِّبًا**»؛ يعني: أن القول يكون أبلغ من العمل وأكثر، وهذا هو

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية (ص١٦٥).

الغالب، وكل الناس هكذا إلا ما قَلَّ، يقول قولًا، وفعله دون هذا، وهذا من ورَعِهم، ومن خوفهم رحمهم الله.

هكذا المؤمن يقول قولًا، ويخاف أنه يخالف قوله، والعمل أصعب من القول، ومقصوده بهذا: أن العبد يجب أن يكون قوله موافقًا لعمله، وإلا يُخشى أن يكون داخلًا في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢، ٣]، وكذلك يقول ﷻ: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: ٢]. فعلى المؤمن أن يخاف أن يقع في ذنب وهو لا يَقدُره قَدْرَه؛ فيحبط عملُه.

• **قوله: وقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: «أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ»**؛ وذلك أن العبد يقول ويصف الخير ويأمر به، وقد لا يأتي بما قال ولا ما وصف، فيخاف من ذلك، وهذا يدل على قوة الإيمان وشدة التمسك به؛ كونهم يخافون أن يقعوا في مخالفة أمر الله.

وهذا النفاق الذي يخافونه هو النفاق العملي فقط، أما النفاق الاعتقادي فهم بعيدون عنه كل البعد.

• **وقوله: «كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل!»** وهذا فيه الرد على المرجئة الذين يقولون: الإيمان كله سواء، إيمان الفاسق كإيمان جبريل، وإيمان محمد ﷺ، وإيمان الملائكة! وهذا من أعظم الكذب والجرأة على الله ﷻ!

واعتمادهم في هذا على آرائهم الفاسدة أنهم يقولون: الإيمان شيء واحد وهو التصديق، والقول بأن الإيمان واحد: الذي لا يقبل الزيادة ولا النقص، هذا من الضلال بل: من الجهل الفظيع، وقد سبق الرد على هذا.

المقصود: أنه ذكر أن ابن أبي مليكة أدرك العدد الكثير من الصحابة، وأنهم كلهم يخافون النفاق.

ومقصوده رحمه الله الرد على المرجئة الذين يقولون: الإيمان شيء واحد،

إيمان الفاسق كإيمان النبي والمَلَك وغير ذلك! وهذا منكر من القول وزورٌ، هو في الواقع يقوله من لا يعرف الإيمان، ولا يعرف الإسلام. نسأل الله العافية. وأصحاب الجرأة على الله وعلى دينه وعلى القول بلا علم: هؤلاء سيلقَون جزاءهم؛ ولهذا جعلوا الإيمان شيئًا واحدًا، يقولون: إذا ذهب بعضه ذهب كله، وهو لا يزيد ولا ينقص... إلى آخره، وكله كلام باطل، ويدل على قِدَم الإرجاء؛ حيث ظهر في زمن الصحابة.

• **قوله: «عَنِ الحَسَنِ»**؛ يعني: الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: **«مَا خَافَهُ»** الضمير هنا ما خافه يرجع إلى النفاق؛ يعني: ما خاف النفاق **«إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا أَمِنَهُ إِلَّا مُنَافِقٌ»**؛ يعني: هذا المؤمن عليه أن يخاف ويحذر، ومن خاف من الشيء راقبه واجتنب أسبابه.

ولا يُقصَد بالنفاقِ النفاقُ الاعتقادي، ولكن هم يُطلقون هذا على كون الإنسان تتغير أحواله، فمثلًا قد يكون في حال عنده خوف، وعنده إنابة لله، وعنده انكسار في قلبه ومعرفة، وفي حالة يكون على خلاف هذا؛ فالصحابة يخافون أن يكون هذا نوعًا من النفاق، فكانوا يخافون من هذه الأمور؛ ولهذا جاء في قصة حنظلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه جاء إلى النبي ﷺ يقول: نافق حنظلةُ يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: **«وما ذاك؟»** قلت: يا رسول الله نكون عندك، تذكِّرنا بالنار والجنة، حتى كأنَّا رأيَ عين، فإذا خرجنا من عندك عافَسْنا الأزواج والأولاد والضَّيعات، نسينا كثيرًا، فقال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده، لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكةُ على فرُشِكم وفي طرُقِكم، ولكنْ يا حنظلة ساعة وساعة»**[1]، وهذا الذي كانوا يخافونه، أما النفاق الذي هو إبطان الكفر وإظهار الإيمان فهذا لا يخافونه؛ لأن هذا ترك لأمر الله، ومعنى ذلك أن خوف الإنسان من التقصير: من

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/٢١٠٦)، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة، وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا، ورقمه (٢٧٥٠).

الإيمان، فكذلك زيادته بالعلم، والرجاء، والمعرفة، يكون أيضًا من الإيمان، وهذا ظاهر في أن الإيمان يزيد وينقص، وأنه أجزاء؛ يعني: منه ما يكون متعلقًا بالقلب، مثل: الخوف والرجاء والإنابة والخشية، ومنه ما يكون بفعل الجوارح، ولا بد أن يكون القلب سبق إليه هذا، ومنه أيضًا ما يختلف؛ يعني: شيء يكون بالقول، وشيء يكون بعمل البدن، وشيء يكون ببذل الخير وإسعاد الغير، وغير ذلك، كل هذا من الدين.

فإذا كان يتفاوت في مثل هذا فهو أيضًا يزيد وينقص، عند بعض الناس يزيد عن الآخر بالعمل، يكون أكثر منه عملًا، وبعضهم يزيد بالعلم، وبعضهم أيضًا يزيد بالتصديق، نفس التصديق والقبول والانقياد والإذعان وغير ذلك، كل هذا يدل على التفاوت بين الناس في امتثال الأمر الذي أُمروا به، ولكنَّ كثيرًا منهم لا يمتثل، يأخذ البعض ويترك البعض، والأصل ثابت لا يزول؛ لأن الأصل هو الدخول في الإسلام بقول: لا إله إلا الله، والتألُّه لرب العالمين ﷻ، وترك الشرك رأسًا، ثم العمل الذي يترتب على هذا، العمل يتفاوت فيه العباد ولا إشكال في ذلك، وهو أمر ظاهر لا ينكره إلا مكابر أو جاهل جهلًا مركبًا.

فهذا مقصود البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب أنه «**بَابُ خَوْفِ المُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ**»، وقد قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: ١، ٢].

هذا مجرد رفع الصوت قد يحبط العمل، والإنسان لا يشعر؛ لأن هذا فيه عدمُ مراعاةِ الأدب مع الرسول ﷺ، ومراعاةِ التقدير، قد يحبط للإنسان عمله وهو لا يدري ولا يشعر، إذا فقد مراعاة ذلك، فرَفْعُ الصوت عند النبي ﷺ من الذنوب التي قد تُحبط العمل، وهذا باقٍ؛ لا يجوز رفع الصوت عند قبر النبي ﷺ ولا في مسجده؛ لأنه من رفع صوته بهذه الطريقة قد يحبط عمله وهو لا يشعر!

ولهذا كان عمر ﷺ يؤدب من يرفعُ صوته في المسجد؛ سمع رجلين رفعا صوتهما استدعاهما وقال: من أنتما، أو من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، قال: «لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما؛ ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ؟!»[1].

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ التقدُّم: إذا قدم رأيه أو قدَّم هواه، هذا من هذا القبيل، والمقصود: أن الواجب على المؤمن أنه يراعي إيمانه، ويراعي أمر الله وأمر رسوله؛ حتى لا يذهب إيمانه، ولا يشعر بذلك، وقد يكون متساهلًا، يقول: هذا أمر سهل لا يضر، وهذا من عدم الشعور أيضًا؛ أنه لا يشعر!

فهو ظاهر بما أراد البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الأمر، وكل هذا أيضًا يدل على ما سبق أن العمل إيمان، وأن هذا لا يخلو أن يكون عملًا بالبدن، وأنه يزيد وينقص، وأن الناس يتفاوتون فيه؛ فالخائف يحتاط ويتجنب الأسباب التي فيها المحظور في هذا، ليس كالآمن.

• **قوله: «وَمَا يُحْذَرُ مِنَ الإِصْرَارِ عَلَى النِّفَاقِ وَالعِصْيَانِ»**؛ يعني: النفاق العملي، كأن يقول قولًا على خلاف ما يفعله، أو يتجرأ على شيء من الخيانة، والخيانة تكون بالدين، وتكون بين العباد، أو غير ذلك؛ فهو من الأمور التي قد تكون محبطة للعمل.

أما العصيان فهو أعم يدخل فيه المعاصي الكبيرة والصغيرة وغيرها.

وقد قال الله ﷻ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ [الحجرات: ٧].

فجعل الأمور المحظورة **ثلاثة أقسام**:

القسم الأول: الكفر.

القسم الثاني: الفسوق.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب رفع الصوت في المسجد رقم (٤٧٠).

القسم الثالث: العصيان.

فدل على التفرقة بينها؛ بعضها يكون كبيرًا، وبعضها يُكَفَّر باجتناب الكبير.

• **قوله**: «وَمَا يُحْذَرُ مِنَ الإِصْرَارِ عَلَى النِّفَاقِ وَالعِصْيَانِ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ»، هذا يكون لمن يتصور الأمور على غير ما هي، مثل ما يقوله المرجئة؛ فإن هذا حري بأنهم يموتون بلا توبة، وهكذا أصحاب البدع، وهذا معنى قول العلماء: صاحب البدعة لا يتوب؛ لأنه يرى أن بدعته دين، فلا يترك دينه، وهذا من غرور الشيطان، ومن عقاب الله ﷻ. نسأل الله العافية.

• **قوله**: «مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ» التوبة هي الرجوع إلى الإيمان والتوحيد، أو الرجوع إلى الله دائمًا، وشأن المؤمن أن يكون مكرِّرًا للتوبة مما يعلمه ومما لا يعلمه؛ لأنه قد يفعل أشياء لا يعلمها وتكون ذنوبًا، فيتوب ويستغفر، والله ﷻ يحب التوابين، «التوابين»؛ يعني: كثيري التوبة، كثيري تكرارها. ومحبة الله ﷻ أمرها عظيم، إذا أحب الله ﷻ عبدًا فإنه يكون له حظوة وحظ عظيم بمحبة ﷻ، فهو ييسِّر أمره ويسَهِّله، ويغفر له.

• **قال**: لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥]. عدم الإصرار على المعصية شرط في حصول المغفرة، وهؤلاء هم الذين تكون لهم الجنة التي عرضها السمٰوات والأرض.

وإذا قرنت الذنوب مع السيئات؛ فالسيئات تفسَّر بالصغائر، والذنوب بالكبائر، وهذا جاء في عدة آيات من كتاب الله تعالى.

٤٨ ـ **حَدَّثَنَا** مُحَمَّدُ بْنُ عَرْعَرَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ زُبَيْدٍ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا وَائِلٍ عَنْ المُرْجِئَةِ، فَقَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»**.

الشَّرح

السباب المقصود به الشَّتم، وقد تدخل الملاحاة فيه، وغيرها.

• **قوله: «حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ»**؛ يعني: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

• **قوله: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»** الفاسق هو: الخارج عن الطاعة، هذا في الأصل، والفسوق اسم لهذه الأعمال؛ لأنه مصدر؛ فسَقَ يفسُق فُسوقًا، فهو جاء بالفسوق. فالفاسق خرج عن الاستقامة المطلوبة.

• **وقوله: «قِتَالُه كُفْرٌ»**. هذا أيضًا يدل على أن الكفر يتفاوت؛ لأن الرسول ﷺ عبّر بالفسوق مقابل السب، وعبَّر بالكفر في مقابل القتال، وفرقٌ بين السب والقتال، وفرق بين الفسوق والكفر.

والفسوق أيضًا يتفاوت، وقد يطلق الفسوق على المعاصي فقط، وقد يطلق على الكفر أيضًا، كما قال في إبليس: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]؛ يعني: كَفَر، وأصل الفسوق: الخروج من الطاعة؛ ولهذا سمى الفأرة؛ فاسقة أو فواسق؛ لأنها خرجت عن المألوف الذي هو مثل أجناسِها، والكفر كذلك، قد يكون كفرًا مخرِجًا من الدين، وقد يكون كفرًا غير مُخرِج من الدين، فسمى قتال المسلم كفرًا، وجاء هذا في أحاديث كثيرة، **«لا ترجعوا بعدي كفَّارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»**[1].

يعني: وكذلك سمَّى بعض الأعمال أنها كفر، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٣٥)، كتاب العلم، باب الإنصات للعلماء، ورقمه (١٢١)، وأخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٨١)، كتاب الإيمان، باب: لا ترجعوا بعدي كفارًا، ورقمه (٦٥).

فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٤، ٤٥، ٤٧]، فدل على التفاوت في هذا كله، ولكن هذا من الجانبين؛ من جانب الإيمان، وجانب ضده، كله يكون أجزاء، متفاوتًا يزيد وينقص، والمقصود به الذين يتحلَّون بذلك ويتَّصفون به.

وفي حديث آخر، وفيه: «**المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده**»[1] فهذا لا يدل على حصر المسلم بهذا؛ فقد يكون مسلمًا، ولكن ما يَسلَمُ المسلمون من لسانه ولا من يده، وهو مسلم، ولا يكون مثل الذي سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، وهذا كثير؛ يعني: ما يخرج من الإيمان.

فالمقصود بهذا التفاوت في الفعل، والتفاوت في المأمور به، والتفاوت في العامل الذي يعمل به، وكذلك هذا يدل على ما ذهب إليه أهل السُّنَّة؛ أن الإيمان يتكوّن من أمور ثلاثة: من قول، وعقيدة، وعمل، وأنه أجزاء، قد يكون الإنسان عنده كثير منه، وقد يكون عنده القليل، وقد يستكمله، وإن ترك بعضه لا يقتضي ذلك خروجه من الدين.

فالإنسان لا يخرج من الدين إلا بترك ما دخل به، وقد دخل في الدين بقول: «لا إله إلا الله» والعمل، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وغيره، فإذا ترك هذا يكون قد خرج من الدين، أما أنه يترك الصفة، أو يترك الجنس، أو ما أشبه ذلك؛ فلا يجوز أن يقال: خرج من الدين؛ بل هو ناقص الدين، وناقص الدين ما خرج منه؛ ولهذا يوجد الفسوق، وتوجد المعاصي الكثيرة. والتوبةُ معروضة لكل من خالف.

• **قوله: «وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»** هذا قد يكون أكبر وقد يكون أصغر، فإذَن الأعمال تتنوع، بعضها يكون إيمانًا، وبعضها يكون كفرًا وفسوقًا؛ فاجتناب الأعمال وتوقيه، وكذلك الابتعاد عن الكفر: من الإيمان، وهو عمل من العمل، وفعله كذلك عمل يكون منافيًا لكمال الإيمان أو للإيمان، والكفر يكون منافيًا للإيمان، والفسوق يكون منافيًا لكماله الواجب الذي به ينجو العبد، وهذا وجه الرد على المرجئة، وقد يكون الكفر كفرًا دون كُفر.

---

(١) تقدم في متن الكتاب.

٤٩ ـ أَخْبَرَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ حُمَيْدٍ، حَدَّثَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ يُخْبِرُ بِلَيْلَةِ القَدْرِ، فَتَلَاحَى رَجُلَانِ مِنَ المُسْلِمِينَ فَقَالَ: «**إِنِّي خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ القَدْرِ، وَإِنَّهُ تَلَاحَى فُلَانٌ وَفُلَانٌ، فَرُفِعَتْ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ، التَمِسُوهَا فِي السَّبْعِ وَالتِّسْعِ وَالخَمْسِ**».

الشَّرح

كما سبق أن قيام الليل وقيام رمضان من الإيمان، كذلك صيامه، وكذلك تحري ليلة القدر من الإيمان، كما قال ﷺ: «**من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا، غُفِر له ما تقدم من ذنبه**»[1] وفي هذا تعيين لها، فخرج ليخبر الصحابة بليلة القدر «**فَتَلَاحَى فُلَانٌ وَفُلَانٌ، فَرُفِعَتْ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ**».

• **قوله**: «**فتلاحى**»؛ يعني: من الملاحاة التي هي المغالبة في الجدال، كل واحد يريد أن يغلب الآخر، تسمى ملاحاة، تلاحى فلان وفلان، وهو أمر مذموم، يعني: هذا من المعاصي.

• **قوله**: «**فَرُفِعَتْ**»: المعنى رُفِع العلم بها، وإلا هي لم ترفع، هي باقية إلى قيام الساعة، لكن تعيُّنها، رُفع التعيين.

• **قال**: «**التَمِسُوهَا فِي السَّبْعِ وَالتِّسْعِ وَالخَمْسِ**»؛ يعني: في الأوتار من العشر الأوسط، كان النبي ﷺ يتحراها أولًا في العشر الأُوَل، ثم في العشر الوسط من الشهر، ثم في العشر الأخيرة، ثم استقر أمره أخيرًا على أنها في العشر الأواخر، وقال: «**من كان متحريًا لها فليتحرَّها في العشر الأواخر؛ في أوتارها**»[2] أوتارها؛ يعني: فِي إحدى وعشرين، أو ثلاث وعشرين، أو خمس

---

(١) تقدم في متن الكتاب.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/٤٦)، كتاب فضل ليلة القدر، باب التماس ليلة القدر في السبع الأواخر، ورقمه (٢٠٢٧)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٢/٨٢٣)، =

وعشرين، أو سبْعٍ وعشرين، أو تسع وعشرين، هذه أوتار، والشهر قد يكون كاملًا وقد يكون ناقصًا، فإذا نقص اختلف.

يعني: يختلف، وقد يُنظر إلى أول عشر وإلى آخرها، فعلى هذا ما يكون الإنسان محتاطًا فيها إلا إذا قام العشر كلها ـ كل العشر ـ، وقد زعم بعض العلماء أنها تتنقل، سنة تكون في إحدى وعشرين، وسنة تكون في خمس وعشرين، وهكذا، ولكن هذا يحتاج إلى دليل.

وعلى كل حال، يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «التفسير»: الأقوال فيها كثيرة، وقد ذكر ما يقرب من أكثر من ثلاثين قولًا، هذا اختلاف، والحافظ ابن حجر زاد على ذلك وجاء بما يقرب من أربعين قولًا فيها، كل هذا يدل على عدم الاتفاق فيها، ولكن حديث الرسول ﷺ واضح، وقد جاء أنه ﷺ قال: **«أرى رؤياكم قد تواطأت، في السبع الأواخر»**[1]، والله أعلم.

وفي «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «رأيت أني أسجد في ماء وطين، فمن كان اعتكف مع رسول الله ﷺ، فليرجِعْ»، فرجعنا وما نرى في السماء قزعة، فجاءت سحابة فمطرت حتى سال سقف المسجد، وكان من جريد النخل، وأقيمت الصلاة، فرأيت رسول الله ﷺ يسجد في الماء والطين، حتى رأيت أثر الطين في جبهته»[2].

يسجد على الأرض وإن كان فيها طين وماء؛ ولهذا كان يجزم أبو سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنها إحدى وعشرين، والله أعلم، ولكن الاجتهاد هو الذي ينبغي للعبد أن يتحراها.

= كتاب الصيام، باب استحباب صيام ستة من شوال، ورقمه (١١٦٥).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/٤٦)، كتاب فضل ليلة القدر، باب التماس ليلة القدر في السبع الأواخر، ورقمه (٢٠١٥)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٢/٨٢٣)، كتاب الصيام، باب استحباب صيام ستة من شوال، ورقمه (١١٦٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/٤٦)، كتاب فضل ليلة القدر، باب التماس ليلة القدر في السبع الأواخر، ورقمه (٢٠٢٧)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب استحباب صيام ستة من شوال، ورقمه (١١٦٧).

• **وقوله: «عسى أن يكون خيرًا لكم»**؛ يعني: أن تجتهدوا في العشر كلها، فيكون خيرًا، ما دام ما عُيِّنت فيقتضي ذلك الاجتهاد، فيتحصل الإنسان على أجر كثير؛ لأنه لا يضيع عند الله عمل؛ بل كلما استطاع أن يزيد فهو أفضل.

والمقصود من هذا: أن العمل من الإيمان، وأنه يزيد وينقص؛ فالتحري لهذا طلبًا للخير إيمان، وقيامها ليس واجبًا، فهو تطوع، ولو تركها إنسان ما يكون آثمًا بهذا؛ لأن هذا كله من التطوع؛ يعني: يأتي به متطوعًا يطلب الرفعة عند الله، وزيادة الدرجة والخير، أهل الجنة يتقاسمون الجنة بالأعمال ويدخلونها برحمة الله، يدخلون الجنة برحمة الله ويتقاسمونها بأعمالهم، ومعلوم أن الأعمال تتفاوت كثيرًا.

بعض الكفار يكون رأسًا في الكفر، داعية إليه، ويكون صادًّا عن الحق ومحاربًا له، وبعضهم مسالم، لا يكون هذا مثل هذا، فرعون ليس مثل آحاد الناس؛ أشر الخلق، وهكذا يتفاوتون بالعمل، ومثله الفسوق يتفاوت، كل الأعمال هكذا.

وليلة القدر هي خير من ألف شهر، وطلبها أمر ينبغي ألا يُستهان به؛ لأنه من وافقها ودعا ربه فإنه يستجاب له، ويكون عمله في هذه الليلة مثل لو عمل ألف شهر، وهذا الألف شهر عمر كامل!

فينبغي ألا يُتساهل في ذلك، وأن تُطلب، ويجتهد الإنسان في العشر كلها، فإذا اجتهد في العشر كلها فقد أصاب ليلة القدر باليقين، خلاف من كان يتحرى، يجوز أنها تفوته.

وعلى كل حال المقصود في هذه الأمور: أنها كلها عمل وكلها إيمان، ففيها إثبات الحق وفيها رد الباطل على الذين يقولون بخلاف الحق.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ: سُؤَالِ جِبْرِيلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الإِيمَانِ، وَالإِسْلَامِ، وَالإِحْسَانِ، وَعِلْمِ السَّاعَةِ، وَبَيَانِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ

ثُمَّ قَالَ: «جَاءَ جِبْرِيلُ عليه السلام يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ» فَجَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ دِينًا، وَمَا بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ لِوَفْدِ عَبْدِ القَيْسِ مِنَ الإِيمَانِ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

الشَّرح

• **قوله:** «.. **وعلم الساعة**» جعل معرفة مجيء الساعة من الدِّينِ؛ لأنه من العلم الذي جاء به الرسول ﷺ وعلَّمنا إياه، فكله دين، الدين الذي يكون الإنسان مثابًا على فعله ومعاقَبًا على تركه إذا كان واجبًا.

• **قوله:** «**وَمَا بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ لِوَفْدِ عَبْدِ القَيْسِ مِنَ الإِيمَانِ..**» الذي بيَّنه لوفد عبد القيس أنه قال: «**آمُرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ**»، وَقَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ؟**» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْغَنَائِمِ الْخُمُسَ**»[1] جعل هذه الأمور الظاهرة هي الإيمان.

وهذا كما سبق أن الإسلام إذا ذُكر وحده دخل فيه الإيمان كله، الدين كله يدخل فيه، وإذا ذُكر الإيمان وحده كذلك، يدخل فيه الدين كله، وبهذا تتفق الأحاديث، وليس بينها خلاف.

والدين هو الذي يدين به العبد امتثالًا للأمر واجتنابًا للنهي، والذي يُدان له هو الله ﷻ.

وسمِّيَ دينًا؛ لأنه يتعبد ويتدين به العبد، ويجعله عمدة له يعتمد عليه في

(١) تقدم تخريجه.

تحصيل النجاة من العذاب في الدنيا والآخرة، وكذلك الحصول على السعادة، ولا يمكن نجاة من عذاب الله في الدنيا والآخرة ولا حصول سعادة إلا بالدين الذي جاء به الرسول ﷺ، والعبد خُلق متدينًا، ولكنه إذا لم يكن متدينًا بما جاء به الرسول ﷺ تديَّن بغيره من البِدَع وما يجد عليه أهل بلده أو أهل بيته، أو الآباء وغير ذلك، وهذا ضلال كما هو معلوم، هذا شيء واضح لا يحتاج إلى شرح وبيان.

«**عبد القيس**» كانوا في الشرق الجنوبي من الجزيرة العربية، وكان بينهم وبين الرسول ﷺ كفَّار كثير، فلا يستطيعون المجيء إلى المدينة إلا في الأشهر الحرم، وكان المشركون يعظِّمون الأشهر الحرم، فلا يقاتلون فيها، ولا يتعدَّون فيها على أحد ـ بخلاف المسلمين اليوم! ـ فقالوا له: قل لنا قولًا نعمل به ونأمر من بعدنا، فقال: «**آمُرُكم بخَمسٍ: آمركم بالإيمان، أتدرون ما الإيمان؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وأن محمدًا رسول الله، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ**»، حتى قال: «**وَأن تؤدوا الخُمُسَ مِنَ المَغْنَمِ**»، جعله من الإيمان، هذا دليل البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، أشار إليه بقوله: **لوفد عبد القيس**.

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] أيضًا، هذا يستدل به على أن حديث جبريل عليه السلام يقصد به: أن الإسلام والإيمان شيء واحد، كما سبق أنه إذا ذُكر الإسلام وحده دخل فيه الإيمان، وإذا ذُكر الإيمان وحده دخل فيه الإسلام، فلا يكون هناك مخالفة بين النصوص تستدعي أننا نقدِّم هذا ونؤخر هذا، الواجب الجمع بين النصوص.

• **وقوله** رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]؛ يعني: أنه يتعين على العبد أن يأخذ ما جاء به النبي ﷺ ويتعبد به، وإذا كان نهيًا وتركًا يجتنبه، ولا طريق إلى النجاة إلا بهذا، ومن أتى بدين غير هذا فهو مردود.

وعلى هذا يتبين أن الأديان الأخرى التي هي اليهودية والنصرانية وغيرها وإن كانت سابقًا صحيحة، فهي الآن لا تجدي ولا تنفع، ومن تديَّن بها فهو ضال هالك ومصيره إلى النار، لا يقال كما يقول بعض الناس: الأديان

السماوية كلها حق، حق إذا لم تُنسَخ، فهي حق في الواقع، لكن إذا نُسِخَت، التمسُّكُ بها ضلال، فلا بد أن يأخُذَ الدِّين الناسخ الذي نسخ، واليهود عندهم النسخ ممتنع لا يصح؛ ولهذا يقولون: نحن متمسكون بالتوراة التي جاء بها موسى!

أما النصارى فعندهم كبارهم ينسخون دينهم لهم، فيوجد لهم ما يتديَّنون به، فهو بعكس اليهود، وكله ضلال مبين.

٥٠ ـ **حَدَّثَنَا** مُسَدَّدٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، أَخْبَرَنَا أَبُو حَيَّانَ التَّيْمِيُّ، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «**الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ**». قَالَ: مَا الإِسْلَامُ؟ قَالَ: «**الإِسْلَامُ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ**». قَالَ: مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

قَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «**مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ البُهْمُ فِي البُنْيَانِ، فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ**»، ثُمَّ تَلَا النَّبِيُّ ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] الآيَةَ، ثُمَّ أَدْبَرَ فَقَالَ: «**رُدُّوهُ**» فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ: «**هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ**».

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: جَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنَ الإِيمَانِ.

الشَّرح

هذا الحديث الذي هو حديث أبي هريرة ﷺ: عند البخاري، أما عند مسلم فهو عن عمر ﷺ يعني: فيه تفاوت في الألفاظ، وفيه التقديم والتأخير، ولكن المعنى المقصود به ظاهر، هذا السبب؛ أن البخاري يرى أن الإيمان هو الإسلام، والإسلام هو الإيمان، ولا فرق بينهما، وهذا يدل على خلاف ذلك، وسبق الكلام في هذا، وأنهما إذا اجتمعا فسِّر كل واحد بما يناسبه، وإذا جاء أحدهما مفردًا دخل فيه الآخر، وبهذا تجتمع النصوص كلها، ولا يكون بينها اختلاف.

البخاري رَحِمَهُ اللهُ بوَّب على هذا بـ«**سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان**

والإسلام والإحسان وعلم الساعة» وبيان النبي ﷺ له، **ثم قال: «جاء جبريل يعلِّمكم دينكم»**، فجعل ذلك كله دينًا، وبيَّن النبي ﷺ لوفد عبد القيس ما الإيمان، وذكر الإيمان بالقَدَر، وهو: أن تعلم أن الله قدَّر كل شيء. التقدير معناه: العلم به وكتابته، ثم مشيئته وخلقه ﷻ، وفسر الإيمان بقول: لا إله إلا الله، فقال: أتدرون ما الإيمان؟ قول لا إله إلا الله، كما قال... إلى آخره.

يقول رحمه الله تعالى: إن هذا كله شيء واحد، هذا مقصوده، لكن من المعلوم أن هذا فيه تفاوت بين الأقوال والأعمال والاعتقادات، وأنها كلها داخلة في هذا، فمثلًا الإخبار عن الساعة واعتقاد مجيئها وأنها لا بد أن تأتي لإخبار الله ﷻ بذلك، وكونها علمها عند الله ﷻ، أيضًا هذا من الإيمان بالله، وكذلك معرفة علاماتها وأشراطها من الإيمان.

• **قوله: «عن الإيمان والإسلام والإحسان»**؛ يعني مقصوده: أن هذا كله شيء واحد، **«وعلم الساعة، وبيان النبي ﷺ، ثم قال: «جاء جبريل يعلمكم دينكم»**، **«فجعل ذلك كله دينًا..»** يعني: أنه شيء واحد؛ الإيمان والإسلام والإحسان شيء واحد، وهذا لا يتأتى مع النصوص التي فرقت بين هذا وهذا، كما تقدَّم، ولكنه رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: يدل على هذا حديث وفد عبد القيس.

• **قوله: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزًا»** بارزًا؛ يعني: ظاهرًا إما في المجلس أو في غيره، ليس في بيته؛ فالبروز هو الظهور، وعدم الخُفية والتخفي.

• **قوله: «بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ»**، وكل يوم يَبرُز لهم يعلِّمهم، وهذه حياته ﷺ، كما قال الله ﷻ له: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨]؛ يعني: ينزه الله ﷻ عن الشرك، و﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِى﴾ هذه إشارة إلى حياته كلها ﷺ، وإلى دعوته.

﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِى﴾؛ يعني: السبيل الذي أسلكه في يومي وليلتي وفي وقتي كله، إما أعبد ربي ويكون ذلك سُنَّة تؤخذ عني ويُقتدى بها وتُتَّبَع، وهذا أمر لازم، وإما أن أدعوَ بالقول والفعل أو الجهاد أو غير ذلك، هو ما جاء لبناء القصور، ولا لزرع الأرض، ولا لتحصيل التجارات، ولا للمناصب التي تُرفَع الأبصار إليه من أجلها، هذا كله بعيد هو عنه ﷺ.

ولهذا كان يقعد مع الصبي، ومع المرأة، ومع الضعيف، ويركب الحمار، ويجلس بين أصحابه، وينهى أن يسيروا خلفه، ويقول: إن هذا من الفتنة! فهو ﷺ يعلم الخير كله، وما ترك خيرًا إلَّا دلنا عليه وأمرنا به، ولا شرًّا إلا حذرنا منه، قبضه الله، وقد أكمل الله له الطريق السوي الذي لا يسع أحدًا إلا اتباعه، ومن لم يتبعه فهو ضال.

• **قوله: «فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ»»**، الله ﷻ غيب لا يُرى ولا يشاهده أحد في الدنيا.

الإيمان به بالأخبار التي يخبر بها عن نفسه، أو يخبر بها رسوله ﷺ، وإن كانت الدلائل القائمة من المخلوقات وغيرها تدل على أنه هو الخالق المتصرف بلا شك، ولكن لا يكفي هذا؛ بل يجب أن نؤمن بأسمائه وصفاته، وكذلك حقه الذي يوجبه علينا، والإيمان به العلم والعمل.

• **قوله: «فَقَالَ: مَا الإِيمَانُ؟»** هذا سؤال عن الإيمان، **قَالَ: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ»** وفسَّر الإيمان بالإيمان نفسه، الإيمان معناه: القبول والتسليم والتصديق الجازم الذي لا يعتريه شك ولا ارتياب، تؤمن بالله؛ لأن الله لا يشاهَد، وليس له مثيل يقاس عليه. تعالى الله وتقدس.

تؤمن بالله عن طريق النظر في أفعاله ومخلوقاته، وكذلك عن الأخبار التي يخبر بها الرسول ﷺ، ويخبر بها هو عن نفسه بأنه سميع عليم، وبأنه ﷻ على كل شيء قدير، وبأنه لا يخفى عليه شيء، وبأنه ﷻ له سمع وبصر وله يدانِ تليق بعظمته وجلاله، تعالى ربنا وتقدس عن النظير والمثيل؛ لهذا يقول: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

فإذَن له يد يَقبِضُ بها، وله أصابع ﷻ، وكل ذلك خاص به، لا تشبه هذه الصفات أوصاف المخلوقين، كما يزعمه أهل الكلام الفاسد الباطل، الذين يقولون: إن هذه جوارح، ولا يجوز أن نأخذ بظاهرها؛ حتى لا نكون مشبِّهين، وذلك أنهم ما فهموا من اليد ومن الرِّجل ومن العين إلا ما يفهمونه من أنفسهم، فسموها جوارح! وقالوا: إننا إذا أخذنا بظاهرها وقعنا في التشبيه!

وهذا الذي أرداهم، هذه العقيدة التي أردَتْهم وصدتهم عن الحق، فأوجبوا ما يسمونه تأويلًا، وهو في الواقع تحريف لأوصاف الله ﷻ وبُعْد عن الحق، قالوا: إن هذا واجب، أو أوجبوا التفويض الذي هو الجهل، يعني يقول: نفوِّض هذا إلى الله، لا نعرفه ولا يعرفه أحد، وهذا أشرُّ من الأول وأبعد عن الحق، مع أن كلها شر، وكلها ضلال.

• **قوله**: «**ملائكته**» الملائكة بمعنى: الرسول، والأَلُوكة هي الرسالة؛ يعني: تؤمن بأنهم عباد الله لا يعصونه فيما أمرهم.

الإيمان بالملائكة على نوعين:

النوع الأول: نؤمن بمن ذُكِرَ لنا اسمه؛ مثل: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، بعينه واسمه.

النوع الثاني: الذين لم يُذكَروا لنا نؤمن بما ذكر الله ﷻ من وظائفهم؛ كالذين كُلفوا بحفظ الأعمال، والذين كُلِّفوا بقبض الأرواح، ونفخ الروح في بطن الأم، وكذلك الذين جعلهم الله في السماء يتعبدون، السماء مملوءة بهم، كما قال ﷺ: «**أطَّتِ السماء، وحق لها أن تئطَّ! ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله!**»[(١)]. والأطيط: هو صوت الرَّحلِ من الحمل الثقيل.

وفي حديث الإسراء: «**فرُفِعَ لي البيت المعمور، فسألت جبريل، فقال: هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم!**»[(٢)]؛ لأنه لا تتهيأ لهم الفرصة، فلا يستطيع إلا مرة

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥/ ٤٠٥)، وأخرجه الترمذي في سننه (٤/ ٥٥٦)، كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا**»، ورقمه (٢٣١٢)، وأخرجه ابن ماجه في سننه (٥/ ٢٨٣)، أبواب الزهد، باب الحزن والبكاء، ورقمه (٤١٩٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٠٩)، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ورقمه (٣٢٠٧)، وأخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١٤٦)، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، ورقمه (١٦٢).

واحدة؛ لكثرة الملائكة! وهو جعل البيت المعمور في السماء لتعبد الملائكة كالبيت الذي جعله الله ﷻ في مكة؛ ليتعبد فيه المؤمنون بالطواف والقيام وغير ذلك.

• **وقوله**: «**بلقائه**» هذا اللقاء كما يقول أهل السُّنَّة: كل لقاء في الكتاب والسُّنَّة يتضمن الرؤية والمعاينة، فلقاء الله هو الجزاء وفيه المعاينة، وقد يكون فيه المقابلة، وقد ثبت في «الصحيحين» من حديث عَدِيِّ بن حاتم رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**واعلموا**» وهذا أمر بالعلم مما يكون تأكيدًا، «**ما منكم من أحد إلا وسيكلِّمه الله يوم القيامة، ليس بين الله وبينه ترجمان، ثم ينظر فلا يرى شيئًا قدامه، ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة**»[1]. هذا أمر يجب علينا أن نعتقده، كل واحد يستعد لكلام الله، وأقول: إن المتكلمين ينكرون اللقاء وينكرون الكلام، يقولون: كيف نلاقيه؟ الملاقاة معناها يجب أن تكون المشاهدة هذه زيادة جسم؛ لأنها تكون ببصرك، ولا بد أن يصطدم بجسم، وإلا ما ترى شيئًا.

وهذا كله من باب التشكيك عندهم الذي هو قياس رب العالمين على المُشاهَد عندهم، وهو الذي أضلهم، نقول لهم: ألستم تعبدون الله بالدعاء والسجود والركوع؟ هل يسمعكم أو لا يسمعكم؟ إذا قلتم: لا يسمعنا ولا يشاهدنا، فهذا إنكارًا لله ﷻ، وكُفر بالله، وإن قلتم: إنه يسمعنا ويعلم مكاننا، قلنا: إن الأرض مملوءة من أشباهكم الذين يعبدون الله، وكلهم قد يقومون في آن واحد يسألون الله ويعبدونه في وقت واحد، وكلهم يستمع الله إليهم، هل تعقلون شيئًا من هذا للمخلوقين؟

أبدًا، المخلوق إذا اشتغل بشيء لا يستطيع أن يشتغل بشيء آخر غيره،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١١٢)، كتاب الرقاق، باب: من نوقش الحساب عُذب، ورقمه (٦٥٣٩)، ومسلم في صحيحه (٢/ ٧٠٣)، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، ورقمه (١٠١٦).

وأبلغ من هذا يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين ويحاسبهم في آن واحد، كل واحد يظن أنه يحاسَب وحده، وهو يحاسب الكل! هل تعقلون شيئًا نظيرًا لهذا؟ لا يمكن.

إذَن أفعال الله خاصة به، لا يجوز أن يكون أحد من الخلق يلحق به، تعالى الله وتقدس، هو ليس بحاجة إلى مثل هذه الأشياء؛ لأن التأويل انتشر في الكتب وفي القنوات وفي كلام الناس، تأويل صفات الله من الذين يريدون أن يضلوا الناس ويضلوا المسلمين.

والمسلمون فُطِروا على الحق، عوام المسلمين فطرهم الله على أن الله يسمع ويعلم ويتكلم، وله مكان هو عرشه، فهو فوق عرشه مستوٍ عليه، ولكن هؤلاء يريدون أن يخرجوهم مما فطرهم الله عليه إلى الضلال.

فنقول: نحن بحاجة إلى مثل هذا، ولا يقال: لا داعٍ لهذه الأشياء. بل لها داع، وهي مهمة جدًّا، فلقاؤه ﷻ يتضمن معاينته، ويتضمن أيضًا جزاءَ يحاسب الإنسان، وهذا قد يكون عند الموت وبعده.

• **وقوله**: «**وَبِلِقَائِهِ**»؛ يعني: بلقاء الله؛ أي: أن الإنسان إذا مات فسوف يلقى الله ويحاسبه، وهذا كثير في النصوص؛ نصوص القرآن، وفي غيرها، والعلماء يقولون: هذا يتضمن المعاينة، كل لقاء في الكتاب والسُّنَّة يقولون: يتضمن الرؤيةَ؛ رؤيةَ الله ﷻ، فهو دليل عليها.

• **وقوله**: «**وَرُسُلِهِ**» هذا معطوف على **قوله**: «**تؤمن بالله**»؛ يعني: وتؤمن برسله، الرسل الذين أرسلهم الله ﷻ لعباده، والإيمان بهم كالإيمان بالملائكة جملة وتفصيلًا، والتفصيل أن تؤمن بالذين ذُكِروا مفصَّلًا بأسمائهم أو أوصافهم ووظائفهم التي ذُكِرَت لنا.

أما الإجمال فتؤمن بأنهم عبيد لله أرسلهم برسالته إلى الأمم من بني آدم والجن والإنس، وأن من أطاعهم سعد في الدنيا والآخرة، ومن عصاهم فهو الشقي الطريد المبعَد عن الله ﷻ.

• **قوله**: «**وتؤمن بالبعث**» البعث: أصله الإثارة في اللغة، والبعث في

البعير: إذا أثرْتَه من مَبرَكه، بعثت الصيد: إذا أَطَرْته من مَكمَنه، والمقصود به: إحياء الموتى بعدما كانوا ترابًا، وإخراجهم من قبورهم أحياء وقد كانوا ترابًا متفرقًا، وقد يكون أيضًا منهم من أكلته السباع والطيور، ومنهم من أحرقته النار، وغير ذلك، فيجمع أجزاءهم، ويحييهم كما كانوا في الدنيا، بحيث أن كل من له حق يعرف مَن أخَذَ حَقَّه فيتعلق به ويطالبه. وهذا كثير من الناس ما كانوا يؤمنون به؛ ولهذا نص عليه، هذا تفسير الإيمان، وقد أشمل أشياء كثيرة جدًّا.

• **قال: «ما الإسلام؟»** في هذا الحديث قدَّم الإيمان على الإسلام، وفي حديث عمر قدَّم الإيمان، وكل هذا يدل إمَّا على أن هذه المسألة تعددت، جاء جبريل عدة مرات، وإما أن يكون هذا تصرفًا من الراوي.

قال: مَا الإِسْلَامُ؟ قَالَ: «الإِسْلَامُ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا». «تَعْبُدَ اللهَ» مثل قوله: أن تشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله، يساويها تمامًا.

• **قوله: «وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ»** سبق أن قلنا: إن كل موضع من الكتاب والسُّنَّة ذُكِرت الصلاة فيه بلفظ الإقامة، تقيم، ليس فيها: «تصَلُّوا»؛ مما يدل على الاهتمام بهذا، فأمر الصلاة يجب أن يُهتَم به، ومع الأسف كثير من المسلمين صارت الصلاة عندهم خفيفة لا يهتمون بها، وتجده إما ينقرها نقرًا، وإما يكون غافلًا فيها ساهيًا، يشتغل فكره في أمور خارج الصلاة بعيدة، وقد قال المصطفى ﷺ: **«إذا قام أحدكم للصلاة فإنه يناجي ربه؛ فلا يلتفتْ»**[1].

والالتفات قد يكون بالبدن، وقد يكون بالقلب، وهو أعظم من الالتفات بالبدن. الالتفات بالبدن إذا كان بجملة البدن بطلت الصلاة؛ لأن من شرط الصلاة أن تكون مستقبِلًا للقبلة في جميع الصلاة، فإذا انحرف ببدنه، قد انحرف عن القبلة، تكون صلاته باطلة، أما الالتفات بالرقبة وبالرأس، فهو كما جاء في حديث عائشة: **«هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة**

(١) تقدم تخريجه.

العبد»[1]؛ يعني: يَنقُصها، ولكن لا تَبطُل.

وأما التفات القلب فشأنه عظيم؛ فقد يُحرَم الإنسان من أن تُكتَب له؛ لأنه لا يكتب للإنسان من صلاته إلا ما حضرها قلبه، ويجب أن يتأمل العبد هذا الخطاب الكريم، فيناجي ربه، فالمناجاة هي الحديث في السر بين الاثنين، من يحظى بمثل هذا، يناجي ربه؟! وهذا يجب أن يكون له قدر عند المؤمن، مغتبطًا به.

فإذا ناجيت ربَّك فقدِّم حاجاتك ومهماتك، وضعها بين يديه، واسأله إياها، وسوف تتحصل عليها إذا كان الإيمان بهذا جازمًا ويقينًا. على كل حال خطابات الرسول ﷺ يجب أن نفهمها.

• **وقوله: «وتؤديَ الزكاة»**، قال هنا: «وَتُؤَدِّيَ»، الأداء: هو أن يقوم بما وجب عليه فيها، يؤديها؛ يعني: يضعها في موضعها الذي أمر الله ﷻ أن توضَع، وقد تولى ﷻ قسمة الزكاة، قال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة: ٦٠] وهم ثمانية أصناف، وإذا أعطاها لأمير أو الوالي الذي يطلبها برئَ منها، وصار هو المسؤول عنها.

• **قوله: «الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ»**؛ لئلا يدخل فيها التطوع، والتطوع لا يلزم أن يكون للثمانية، حتى لو أعطيت غنيًّا، لكان الإنسان مثابًا على ذلك، «وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ»؛ لأن الزكاة تطلق على الصدقة، وتطلق على الفريضة؛ لهذا قال: المفروضة.

• **قوله: «وَتَصُومَ رَمَضَانَ»** فجعل الإسلام غير الإيمان، مثل ما في حديث عمر، ولكن هنا بدأ بالإيمان، وفي حديث عمر بدأ بالإسلام، ففيه اختلاف.

• **قوله: «وَتَصُومَ رَمَضَانَ»** سبق الكلام في الصوم أنه معناه في اللغة: الإمساك.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٥٠)، كتاب صلاة الجماعة والإمامة، باب الالتفات في الصلاة، ورقمه (٧٥١).

• **قوله: «الإحسان أن تعبدَ الله كأنك تراه»**؛ يعني: هذا مقام عالٍ جدًّا، الذي يعبد الله بالمشاهدة ما يدَّخر وُسعًا في تحسين العمل وإقامته؛ لهذا سمِّي هذا إحسانًا، يحسِّن العمل ويقيمه كما أُمر، فلا يدَّخر شيئًا عنده من ذلك.

على هذا يكون الإحسان هو الإتيان بالعمل على أكمل الوجوه وأتمِّها، أحسَنَ: إذا جاء به كاملًا تامًّا، **وقوله: «تعبد الله كأنك تراه»** هذه درجة عالية، ثم قال: **«فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**؛ يعني: إذا ما استطعت هذه الدرجة تكون في الدرجة الأخرى، وهي أن تعبده على العلم اليقيني؛ أنه يشاهدك ويراك، هذا أيضًا إحسان، ولكن الأُولى أكمل؛ لهذا قالوا: **الإحسان درجتان**.

إحداهما: الإحسان، هو تحسين العمل وتزيينه حسب الإمكان؛ ولهذا سمي إحسانًا.

والثانية: أن تقوم بالعمل بأحسن وجه وأتمه، وهذا لا يتأتى لكل أحد، فهي مرتبة عالية؛ ولهذا قال: **«أن تعبد الله كأنك تراه»**، ومن المعلوم أن الإنسان إذا عبد ربه على المشاهدة أنه لا يدَّخر وُسعًا في تحسين العمل، ومنه التأمل والحضور، والخشوع والذل والخوف، كله يشتمل على هذا، فإن لم تكن على هذه الصفة فانتَقِلْ إلى الصفة الأخرى، وهي العلم؛ ولهذا قال: **«إن لم تكن تراه فإنه يراك»**؛ يعني: اعبُدْه على أنه يشاهدك ويراك، والأُولى أكمل.

• **قوله: «متى الساعة؟»** هذه سؤال عن الوقت، متى مجيئها؟ والساعة: المقصود بها النفخ في الصور، هي الساعة، إذا نفخ فيه هلك كل حي؛ بل الجبال تزول من أماكنها وتصبح كأنها سراب وهباء منثور! يعني: تُرَجُّ الأرض رجًّا، وتُبَسُّ الجبال بسًّا من شدة النفخ، وكذا السماء تمور مَورًا، فأمرها شديد جدًّا، وهذه النفخة التي تجعل الجبل كثيبًا، هل يقوم لها شيء؟! لا يمكن أن يوجد حيٌّ مع هذا؛ ولهذا يموت كل حي!

وسميت الساعة ساعةً؛ لأنها تقع في لحظة، مثلما قال الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

وبها نهاية هذه الحياة؛ نهاية الدنيا وبدء اليوم الآخر، واليوم الآخر يوم واحد لا نهاية له، ليس فيه ليل.

• **قوله: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»**؛ يعني: كلانا لا يعلمها؛ لأن الله أخفاها، هذا كأنه يقول: تساوى علمي وعلمك فيها وعلم الخلق كلهم، فكلهم لا يعلمون شيئًا منها؛ لهذا عدل إلى الإخبار بعلاماتها.

• **قوله: «وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا»**. الأشراط: العلامات، الشرط هو العلامة.

«إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا» «ربها». في حديث عمر ﷺ: «رَبَّتَها»، والرَّبُّ: هو المالك الذي يملك الشيء ويتصرف فيه. ومعنى ذلك: أن هذا عبارة عن كثرة الفتوح، وجلب الإماء والغلمان من بلاد الكفر من الكافرين، وهذا هو الكفر أصل الرِّق والعبودية، وإلا فالخلق كلهم بنو آدم خُلقوا أحرارًا، إلا من كفر بالله ﷻ؛ فإنه يعاقب بأن المؤمنين إذا قاتلوهم واستولوا عليهم صاروا عبيدًا لهم يبيعونهم أو يستخدمونهم. وإذا جاء مثلًا أحد المجاهدين بنصيبه من الغنيمة بنت أو امرأة، يجوز له أن يجعلها سُرِّيَّة له؛ يعني: يطؤها، فربَّما حملت، فإذا حملت وولدت لا يجوز بيعها، تصبح كأنَّها حرة؛ لأن ولدها كأنه أعقتها؛ ولهذا سمِّيَ رَبَّها؛ لأنه كأنه سيدها الذي أعتقها، هذا المعنى المقصود هنا **بقوله: «أن تلد الأَمَةُ رَبَّتَها أو رَبَّها»**. هذا هو الظاهر، وفيه كلام كثير للعلماء، منهم من يقول: هذا عبارة عن فشو الجهل، وذهاب العلم، فيتعاملون بالمعاملات المحرمة، ومنها بيع أمهات الأولاد، فبيع أمهات الأولاد هذا من المحرمات، لا يجوز، لا تباع.

«وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ البُهْمُ فِي البُنْيَانِ» إذا تطاولوا؛ يعني: يتفاخرون، كل واحد يريد أن يكون بناؤه أحسن من الآخر، **قوله: «وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ البُهْمُ فِي البُنْيَانِ»** هذه من علاماتها، وهذا واقع الآن؛ كل هذه وقعت.

اختلفوا في «البُهْم» هل هي صفة للناس الذين يتطاولون في البنيان، أو أنها صفة للإبل؟ يعني: البهائم التي لا تتكلم، والظاهر أنه الثاني.

والمقصود بهذا العرب الذين كانوا في البادية يعيشون مع إبلهم وغنمهم ويرعونها فكانت معيشتهم في هذا فقط، وكانوا يتطلبون مواقع القَطْر والنبات يرعون فيها، يومًا في هذا ويومًا آخر في مكان آخر، يقول: إذا رأيتَهم قد

سكنوا المدن وصاروا يتطاولون في البنيان؛ يعني: يتفاخرون، كل واحد يريد أن يكون بيته أجمل من الآخر وأحسن، فهذا التطاول، وهذا من علامات الساعة، وقد وقع كلا الأمرين، فالآن لا تجد في البوادي من كان سابقًا يرعى الإبل وينمِّيها، صاروا كلهم في المدن.

التمادي في البناء منهي عنه؛ لهذا كانت بيوت رسول الله ﷺ إذا رَفَعْتَ يدك تتناول السقف!

هذا الذي وقع فلننتظر الساعة؛ فإنها ليست بعيدة، فهذا من علاماتها، **والعلامات قسَّمها العلماء إلى ثلاثة أقسام:**

القسم الأول: علامات بعيدة مثل بعثة النبي ﷺ، وانشقاق القمر، وقد ذكره الله، كما قال ﷻ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١].

القسم الثاني: علامات متوسطة، وقد ذكر منها أشياء كثيرة، وهي التي ظهرت وما زالت لم تنتهِ بعد.

القسم الثالث: علامات كبيرة؛ يعني: تلي الساعة، قريبة من الساعة، وأولها خروج الدجال، ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام، وكذلك المهدي، وهذه الثلاث في آن واحد؛ الدجال يخرج على المهدي، فينزل عيسى فيقتله، ثم تتابع الآيات الكبيرة، وإذا جاءت الآيات الكبيرة لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنَت من قَبلُ أو كسَبَت في إيمانها خيرًا.

ثم ذكر الآية **قال: في خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ، ثُمَّ تَلَا النَّبِيُّ ﷺ**: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤] فجعلها من مفاتيح الغيب، هذه يقولون: من مفاتح علم الغيب، وإذا كان علم الغيب له مفاتح، فله خزائن، وإذا كانت المفاتح لا يعلمها إلا الله؛ فالخزائن من باب أولى.

• **وقوله**: «في خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ»؛ يعني: أن علم الساعة دخل في الخَمس، ومجيئها لا يعلمه أحد؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ

﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]، يقول المفسرون: إنها أُخفِيَت، لا أحد يعلمها، فما معنى أكاد أخفيها؟ قالوا: معناه أكاد أخفيها عن نفسي لو أمكن هذا، هذا مبالغة في الإخفاء.

ولهذا قال الله ﷻ: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧] الذين يحددون الأوقات ويقولون: إنه بقي كذا وكذا، هذا خطأ.

• **قوله: «هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ»**. قال البخاري رحمه الله: **«فجَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنَ الإِيمَانِ»** ومن الدين كله الذي هو الإيمان والإسلام والإحسان، ومعرفة بعض أشراط الساعة؛ كل ذلك من الإيمان، فدل على أن الإيمان يتجزأ، وإذا كان يتجزأ فيزيد وينقُص، ودل على أن بعضه أكمل من بعض.

• **قوله: «ثُمَّ أَدْبَرَ»**؛ يعني: هذا الرجل قام وذهب؛ لهذا ـ والله أعلم ـ الصحابة كانوا على جانب عظيم من تقدير الرسول ﷺ وتعظيمه، فكانوا يهابون أن يسألوه، فجاء جبريل يعلِّمهم من أجل ذلك؛ ولهذا فإن الإنسان إذا كان يحتاج إلى شيء يتعلمه من دينه يجب أن يسأل، ولا يمنعه لا حياء ولا تقدير؛ بل يتعين عليه أن يسأل كما عُلِّمنا في مثل هذا، وكل هذه الأشياء التي ذُكِرت: من الدين، فهي داخلة في الإيمان، وهي إيمان وإسلام ودين، ففيها الرد على أهل الباطل الذين يُخرجون الأعمال عن مسمَّى الإيمان.

٥١ ـ حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ حَمْزَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ صَالِحٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ ﷺ أَخْبَرَهُ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، أَنَّ هِرَقْلَ قَالَ لَهُ: سَأَلْتُكَ هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القُلُوبَ، لَا يَسْخَطُهُ أَحَدٌ.

الشَّرح

• **وقوله: «حين تخالط بشاشته القلوب، لا يسخطه أحد»** هل كلام هرقل يكون دليلًا؟

لا يكون دليلًا، ولكن الدليل قول ابن عباس، ذكره وصار يرويه وأقروه على ذلك؛ لأنه موافق للحق، فهذا وجه الاستدلال به، وليس بنفس الكلام.

قَالَ لَهُ: «سَأَلْتُكَ هَلْ يَزِيدُونَ فَزَعَمْتَ أَنْ نعمْ»؛ يعني: أن الإيمان إذا علمه الإنسان حقيقة ما يحيد عنه ولا ينبغي غيره، لكن هذا بتوفيق الله، فأهله يزيدون ولا ينقصون، النقص معناه: أنه يغضب منه ويسخطه ولا يريده، فيكرهه، وهذا قد يقع، ولكنه نادر.

وإذا باشر الإيمان القلوب فإنه لا يسخطه أحد؛ لأنه مرضيٌّ محبوب، ولكن الأمر إلى الله، فإن القلوب بين إصبَعَين من أصابع الرحمٰن يقلِّبها كيف يشاء؛ ولهذا لا يجوز للإنسان أن يجزم ويقطع بأنه في الجنة.

وإنما يقول: أرجو أن أستمر على الهدى وعلى الخير وألا يُنزع مني ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨].

المقصود: أن الإيمان يزيد في نفسه ويزيد أهله، وهذا من العمل، وكذلك أنه لا يسخطه من تحلى به ولا يكرهه، وأنه كذلك إذا وصل الإيمان إلى القلب فإنه يؤثر على الإنسان في سلوكه وفي علمه، وفي تعامله مع الناس، يصبح يراقب ربه ويخافه، ويحرص على الأمور التي تعود عليه بالخير، ويحذر من الأمور التي تخدش دينه أو تنقصه، فهذا تغير وأعمال، والأعمال من الدين كلها.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ: فَضْلِ مَنِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ

٥٢ ـ **حَدَّثَنَا** أَبُو نُعَيْم، حَدَّثَنَا زَكَرِيَّاءُ، عَنْ عَامِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**الحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى المُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**».

الشَّرح

الاستبراء هو: الحرص على ألا يخالط الدين شيء من غيره، أو من ضده، ولا بد أن يكون هذا بالعلم والعمل؛ لأن الدين هو دين الله، وليس بالرأي ولا بالتعارف والوراثة، فيلزم من ذلك العلم أولًا: أن يُعلَم الدين، والسبب في هذا ـ والله أعلم ـ أن نصوص الشرع جاءت جوامع وكليات؛ كليات يدخل تحتها أمور كثيرة، وأعمال الناس وأفعالهم لا حصر لها.

فالحوادث التي تحدث بأعمالهم وأفعالهم كثيرة جدًا، وكلها إذا أُرجعت إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله لا بد أن يكون الحكم موجودًا فيهما، ولكن ما كلٌّ يعرف هذا، وإنما يعرف ذلك العلماء، فتبقى كثيرٌ من الأمور فيها اشتباه، هل هي من الحلال أو من الحرام؟

والاستبراء هو: الاحتياط؛ أن يحتاط الإنسان، ويترك الشيء الذي فيه ارتياب أو فيه شك: هل هو حلال أو حرام؟ فيبتعد عنه خوفًا من الوقوع في الحرام، وكذلك منه الأفعال؛ أن يفعل الشيء الذي قد يشتبه عليه: هل هو واجب أو غير واجب؟ فيفعله احتياطًا، وهذا باب واسع، والحديث أصل في

هذا؛ لأن الحديث له معانٍ كثيرة، فهو من جوامع الكلم، وكَلِمُ النبي ﷺ الذي يُعجز، ولكِنْ كل هذا من الدين، وقد يكون واجبًا، وقد لا يكون واجبًا، لا المتروك ولا المفعول؛ يعني: قد يكون تركه واجبًا، وقد يكون مباحًا، وكذلك الفعل.

• **قوله**: «**الحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ..**» الأوامر والنواهي التي جاءت بيِّنة واضحة؛ فالحلال بيِّن والحرام بيِّن، وبهذا يجب أن يكتفى به لمن أراد الخلاص والنجاة، فإنه يقتصر على البيِّن، وهذا أيضًا يدلنا على أنه لا بد من المتقابلينِ؛ يعني: لا بد من تحليل الحلال، وتحريم الحرام، لا يقول: أنا أبحث عن الحلال فقط؛ بل لا بد أن تعتقد تحريم الحرام وتجتنبه؛ لأن هذا من الدين، فهذا البيِّن الواضح، وبين هذه الأمور أشياء تخفى على كثير من الناس، لكن العلماء يعرفونه؛ لأنهم يرجعونه إلى النصوص وإلى كليات الدين، ويستنتجون منها أن هذا حلال أو حرام؛ ولهذا قال: «**على كثير من الناس**» وليس على كل الناس، وقوله: «**مُشَبَّهَاتٌ**» و«**مشتبهات**»، ويجوز كسر الباء وفتحها، وقوله: «**لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ**»؛ يعني: يدل على أن الناس كلهم مكلفون بعلمها، ولكن قد لا يصلون إلى هذا، فإن لم يصل إلى هذا يتعين عليه أن يجتنب الذي فيه شك: هل هذا من الحلال أو من الحرام؟ حتى يبرأ دينه ويصير خالصًا، لا خلط فيه.

والدين إذا خالطه الحرام قد يُرَد، وهذا عام في الأفعال وفي المأكولات والملبوسات وغيرها، وقد كان بعض الذين يتورعون يجتنبون أشياء لا يستطيع الناس تركها، أحدهم بقي في البصرة أربعين سنة لم يأكل التمر؛ لأنه قيل فيه كذا وكذا! وأحدهم بقي في مكة ثلاثين سنة لا يأكل اللحم؛ لأنه يُجلَب من قبيلة كانوا لا يُوَرِّثون البنات! فمثل هذا قد لا يستطاع.

ومن الأمور المشتَبَه فيها ما يدخل في باب المعاملات من البيع والشراء الذي إما يكون للاقتناء، أو للاستعمال أو للأكل أو لغير ذلك، يجتنبه، مثل إذا كان إنسان يعرف أن ماله من الربا: هل تحرم معاملته؟ لا تَحرُم، ولكن من باب الورع تُجتنب.

وكإنسان أيضًا دعاك إلى طعام علمت أنه قد يتعاطى شيئًا محرمًا، هل يجب عليك ألا تأكل ولا تستجيب؟ ليس واجبًا هذا، ولكن من الورع ألا تستجيب، وإلا الرسول ﷺ استجاب لدعوة يهودي، واليهود كانوا يتعاملون بالربا كثيرًا؛ يعني: إذا ما عرفت ذلك بعينه فإنه يجوز، ولكن يبقى ترك هذا من باب الورع والاستبراء؛ لأن الاستبراء للدين مطلوب.

وكذلك استبراء العِرْض قد يقع الإنسان في شيء فيه اتهام، فيتكلم فيه الناس، كأن يقف يكلم امرأة أو ما أشبه ذلك في مكان عام يراه الناس، فهذا مَدعاة للشك والريب، وهذه أمور ينبغي اجتنابها، والأمثلة على هذا كثيرة؛ فلهذا قال: من اجتنب المشتبهات فقد استبرأ لدينه وعِرْضه، وهذا أصل عظيم في الإسلام يجب أن يعتنى به.

ولهذا عَدُّوا هذا الحديث ثلث الدين، وبعضهم عدَّه ربعه، أو من الجوامع؛ جوامع الكلام العظيمة التي يدخل فيها أشياء كثيرة جدًّا، ثم **قال**: «**ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام؛ كالراعي يرعى حول الحمى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ**»؛ يعني: يوشك أن يدخله، يوشك؛ يعني: يَقرُب أنه يدخله. ولكل مالك حِمًى، الملوك يحمون أراضِيَ لهم خاصة، فمن دخلها عاقبوه، وكذلك حماها الذي حولها؛ لأنه يقول: هذا من أسباب الدخول فيها؛ ولهذا أُخذ من هذا تحريم الوسائل التي توصِل إلى المحرَّمات، وبعضهم يقول: يؤخذ منه سدُّ الذرائع، وهذا يؤخذ من هذا ومن غيره؛ لأنها أصل عظيم في هذا الباب.

• **وقوله**: «**أَلَا إِنَّ حِمَى اللهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ**»؛ يعني: محارمه التي حرَّمها؛ فالمحارم قد يكون حولها أشياء مشتبهة، فإذا اجتنبها العبد «**استبرأ لدينه وعرضه**»، وهذه الأشياء قد يكون تحريمها قطعيًّا، وقد يكون أمرها عظيمًا، فيجب أن تُجتنب.

لهذا قالوا مثلًا: لو أن رجلًا علم أن له أختًا من الرضاعة في هذا البلد، ولكن ما يعرف أين هي ولا بيتها، يقولون: لا يجوز أن يتزوج من هذا البلد؛ خوفًا من أن يقع في الحرام، بخلاف ما إذا كان علم أن بعض الذين

يبيعون ويشترون في هذا البلد يتعاملون بالمحرَّمات ويتعاطونها من الربا وغيره، فهذا يتحرَّى ولا إثم عليه، بخلاف الأوَّل؛ فإنه يَحرُم عليه ذلك.

والمقصود: أن الأمور تختلف في هذا، ثم ذكر أن صلاح الإنسان وتقاه يتعلق بالقلب، إذا صلح القلب صلحت الأعمال كلها؛ لهذا **قال**: «**أَلَا إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**».

المضغة: قطعة لحم، والقلب: هو الذي يوزع الدم في الجسم كله، ولكن المقصود أن معرفة الحق من الباطل ثم اجتنابه: إنما تكون من القلب، كما ذكر الله ﷻ أنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، فإذا عَمِيَ القلب عَمِيَ البدن كله، وفسد العمل كله، وإذا صلَح القلب صلَح كل شيء، فالقلب كأنه ملك الأعضاء، كما بيَّن المصطفى ﷺ ذلك، وله صلة في الدماغ.

وعلى هذا يتعيَّن على المؤمن أن يجتهد في صلاح قلبه، وصلاح القلب يكون في مراعاة أمر الله، واللجوء إليه، والتفكر في مخلوقات الله، وفي المآل، يفكر في مآله، ويفكر في حياته، فالحياة سوف تنتهي، ثم إذا انتهت ماذا يكون؟! إما عذاب وإما نجاة، فيجتهد في هذا، ويتدبر كلام الله.

ثم فيه أمور ظاهرة تؤثر في فساد القلب، مثل كثرة الكلام، ومثل كثرة الفضولات كلها؛ فضولات النوم، وفضولات الاختلاط، وكذلك إطلاق البصر على النظر في الأمور التي تسبب فساد القلب؛ كأكل الحرام ونحوه، كما في «صحيح مسلم» حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] **ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعَثَ أغبر، يمدُّ يديه إلى السماء: يا ربِّ، يا ربِّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي**

بالحرام، فأنَّى يستجاب لذلك؟!»[١].

أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين بالأكل من الطيبات، وترك المحرمات، وهذا من الوعد؛ ولهذا ترانا كثيرًا ما ندعو ونجتهد بالدعاء، فلا يستجاب لنا؛ بسبب اختلاط الأمور وأكل الحرام. نسأل الله السلامة. فالذي يأكل الحرام يُفسِد عمله، ويفسد قلبه، وهذا له صلة كبيرة بالعمل؛ فلهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يجتهدون غاية الاجتهاد في اجتناب هذا.

فعن زيد بن أرقم، قال: «كان لأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه مملوك يُغِلُّ عليه فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة، فقال له المملوك: ما لك كنت تسألُني كل ليلة، ولم تسألنِّي الليلة؟ قال: حملني على ذلك الجوعُ، من أين جئتَ بهذا؟ قال: مررتُ بقوم في الجاهلية فرقيت لهم، فوعدوني، فلما أن كان اليوم مررت بهم فإذا عرسٌ لهم، فأعطوني، قال: إن كدت أن تهلكني، فأدخل يده في حلقه فجعل يتقيأ، وجعَلَت لا تخرج. فقيل له: إن هذه لا تخرج إلا بالماء، فدعا بطست من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها. فقيل له: يرحمك الله؛ كل هذا من أجل هذه اللقمة! قال: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها! سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به**»؛ فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة»»[٢]؛ لأن الجسد الذي يتغذى بالحرام النار أولى به.

ويُذكَر في الحديث أن سعد بن أبي وقاص قال للنبي ﷺ: ادعُ الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال له النبي ﷺ: «**يا سعدُ، أطِبْ مطعمك تكنْ مستجاب الدعوة**»[٣]، وكان السلف إذا دعا أحدهم يجاب؛ لأنهم نقوا أمورهم.

وعلى كل حال فالإنسان مسؤول عن نفسه، وعن أعماله؛ فعليه أن يجتهد؛ لأن الأمر له، سوف يقوم بين يدي الله ويحاسبه.

المقصود: أنه يجب على العبد أن يستبرئ لدينه وعرضه؛ **فقوله**:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٠٣)، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، ورقمه (١٠١٥).

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٣١).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٦/ ٣١١).

«**الحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ**»؛ يعني: الذي نص عليه قد بُيِّن ووُضِّح، وبَيْن الحلال والحرام أمورٌ مشتبهة: هل هي من الحلال أو من الحرام؟ فهذه الأمور إذا اجتنبها العبد فقد برئت ذمته وخلَّص نفسه من الوقوع في الحرام، وهذا من الدين، يعني: طلب البراءة من الدين، ولا يكون هذا واجبًا إلا إذا علم الإنسان أن هذا حرام، فيجب اجتنابه، وإذا علم أنه حلال فله فعله، وليس لازمًا أن يفعل، إلا إذا كان مأمورًا به أمرَ إيجاب.

فالمقصود: أن وجود كليات وأمور من الشرع قد تشتبه على بعض الناس، فإذا ترك العبد هذه المتشابهات دل على حرصه على دينه، وعلى حرصه على رضا ربه واتباع نبيّه، فيكون هذا أكمل ممن لم يفعل ذلك، ثم إن الله له حمًى، وحماه محارمه التي حرمها ـ والحمى معناه: المنع من هذه الأشياء، والمنع صار أمرًا دينيًا ـ ومنع منها، وخلى بين الإنسان وبين أمانته وديانته، فإذا كان أمينًا والإيمان غلب عليه، فإنه يكفيه هذا في المنع، أما إذا كان دون ذلك فسيُقدِم على فعل المحرمات، والمصير إلى الله هو الذي يحاسب ﷻ، وكذلك العمل قد يحجم الإنسان عنه، وقد يقدم عليه؛ خوفًا من الله ﷻ، والمصير إلى الله.

• **قوله: «لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى»** الملوك يحمون أماكن معينة عن الرعي أو الصيد فيها، أو التملك فيها، وما أشبه ذلك، فمعلوم أنهم يعاقبون من يخالف هذا، والله ﷻ يعاقب من وقع في حماه، ولكن العقاب يكون غالبًا فيما بعدُ، ثم إن الإنسان إذا صار قريبًا من الحمى قد يغفل فيقع فيه.

• **قوله: «يوشك أن يرتعَ فيه»** يوشك: يَقرُب، ومعنى هذا: أن العبد ينبغي له أن يبتعد عن الأمور التي يخاف أن تكون محرمة، حتى لا يواقعها، فيكون أسلم له، ثم بيَّن أن مصير الأمور في الإنسان إلى القلب، إذا كان القلب حيًا سليمًا فإنه سيراقب هذه الأمور وتكون الأفعال تبعًا له، ثم مَثَّل القلب بالملك، والأعضاء بالجنود التي تتبعه؛ لهذا **قال: «في الجسد مضغة»**، قال: «مضغة»؛ يعني: أنه قطعة لحم، «**إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ**»؛ ذلك أن القَلْبَ هو الذي يرعى الجوارح؛ لأن النيات والمقاصد والإرادات مصدرها القلب.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: أَدَاءُ الخُمُسِ مِنَ الإِيمَانِ

٥٣ ـ **حَدَّثَنَا** عَلِيُّ بْنُ الجَعْدِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي جَمْرَةَ، قَالَ: كُنْتُ أَقْعُدُ مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ يُجْلِسُنِي عَلَى سَرِيرِهِ، فَقَالَ: أَقِمْ عِنْدِي حَتَّى أَجْعَلَ لَكَ سَهْمًا مِنْ مَالِي، فَأَقَمْتُ مَعَهُ شَهْرَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ القَيْسِ لَمَّا أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنِ القَوْمُ؟ أَوْ مَنِ الوَفْدُ؟**» قَالُوا: رَبِيعَةُ. قَالَ: «**مَرْحَبًا بِالقَوْمِ، أَوْ قَالَ: بِالوَفْدِ، غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى**».

فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، وَنَدْخُلْ بِهِ الجَنَّةَ، وَسَأَلُوهُ عَنِ الأَشْرِبَةِ: فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ؛ أَمَرَهُمْ: بِالإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ، قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ؟**» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ المَغْنَمِ الخُمُسَ**»، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنِ الحَنْتَمِ، وَالدُّبَّاءِ، وَالنَّقِيرِ، وَالمُزَفَّتِ، وَرُبَّمَا قَالَ: «المُقَيَّرِ» وَقَالَ: «**احْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ**».

الشَّرح

• **قوله: «بَابٌ: أَدَاءُ الخُمُسِ مِنَ الإِيمَانِ»**، أداء الخمس من الواجبات، والخمس يؤدَّى إلى الإمام، والأصل في هذا قوله ﷻ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: ٤١] الآية، فهو واجب لأدائه، فهكذا كل واجب كما سبق، وكل هذه التي مرت معنا أمثلة، وإلا ليست هذه المسائل التي ذكرها البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ كل الذي يدخل في الإيمان.

فالضابط في هذا أن الإيمان يدخل فيه كل واجب وكل مستحب، كما يقولون؛ لأن دين الله ﷻ؛ شرعه، الذي شرع لعباده **قسمان**:

أحدهما: أمر لازم لا يجوز الإخلال به.

والثاني: وُضِع لأجل رفع الدرجات وتكميل النقص من الواجب، الذي هو التطوعات.

• **قوله**: «**الخُمُس**»؛ يعني: من المَغنَم، إذا غنم المسلمون من الكفار أموالهم، وهذه من خصائص هذه الأمة؛ أحلت لهم الغنائم ولم تحِلَّ لأحد قبلهم، كان مَن قَبْلَهم إذا قاتلوا الكفار واستولوا على أموالهم يجمعونها ثم تأتي نار فتحرقها، هذا علامة أنها سالمة من الغلول.

فإذا كان فيها غلول لم تأتِ النار، وجاء في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**غزَا نبيٌّ من الأنبياءِ، فقالَ لِقومِهِ: لا يتْبَعْنِي رجلٌ مَلَكَ بُضْعَ امرأةٍ، وهو يرِيدُ أنْ يبْنِيَ بها؟ ولمَّا يَبْنِ بها، ولا أحدٌ بَنَى بيوتًا ولم يرفع سُقُوفَهَا، ولا أحدٌ اشترى غنمًا أو خَلِفَاتٍ وهو ينْتظِرُ وِلَادَهَا، فغَزَا فدَنَا من القريةِ صلاة العصرِ أو قريبًا من ذلك، فقال للشمس: إنَّكِ مأمُورةٌ وأنا مأمُورٌ اللهم احْبِسهَا علينا، فحُبِستْ حتى فتح الله عليه، فجمع الغنائم، فجاءتْ يعني النَّار لِتأْكُلها، فلم تطْعمْهَا فقال: إنَّ فيكُمْ غُلُولًا، فلْيُبايِعْنِي من كل قبيلةٍ رجلٌ، فلزِقتْ يدُ رجُلٍ بيدِهِ، فقال: فيكم الغُلُولُ، فَلْيُبَايِعْنِي قَبِيلَتُكَ، فلَزِقتْ يدُ رجُلَيْنِ أو ثلاثةٍ بيدِهِ، فقال: فيكُمُ الغُلُولُ، فجاءُوا برأْسٍ مثْلِ رأسِ بقرةٍ من الذَّهبِ، فوضعُوها، فجاءتِ النَّارُ، فأكلَتْهَا ثم أحلَّ اللهُ لنا الغنائم رأى ضعْفَنَا، وعَجْزَنَا فأَحلَّهَا لنا**»[1].

المقصود: أن حل الغنائم خاص بهذه الأمة؛ إكرامًا لها ولنبيِّها.

فصار أداء الخُمُس من الإيمان، «**خُمُس**» وقد ذكر الله ﷻ مصرفه كما في سورة الأنفال.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/٨٦)، كتاب فرض الخمس، باب قول النبي ﷺ: «**أحلّتْ لكم الغنائم**»، ورقمه (٣١٢٤)، ومسلم في صحيحه (٣/١٣٦٦)، كتاب الجهاد والسّير، باب تحليل الغنائمِ لهذه الأُمَّة خاصةً، ورقمه (١٧٤٧).

وذُكِر في الحديث أمورٌ كثيرة غير أداء الخُمُس، وإنما مقصوده التمثيل.

• **قوله:** «أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي جَمْرَةَ»، وشعبة يروي عن خمسة كلهم اسمه حمزة، وهذا السادس ليس حمزة، هو جمرة، بالجيم، هذا يروي عن ابن عباس، وقد يكونون أكثر من هذا، فجمرة لا يوجد غيره في الأسانيد.

فَقَالَ: «أَقِمْ عِنْدِي حَتَّى أَجْعَلَ لَكَ سَهْمًا مِنْ مَالِي، فَأَقَمْتُ مَعَهُ شَهْرَيْنِ»، جمرة كان يترجم لابن عباس؛ لأن ابن عباس يأتيه أناس أعاجم، وأناس لا يفهم مرادهم، فكان يترجم بينه وبينهم؛ لأنه يعرف اللغات؛ لهذا قال: اجلس عِنْدِي، وأَجْعَلُ لَكَ مِنْ مَالِي نصيبًا؛ من أجل الترجمة، هذا مقصوده، فجلس يترجم كلام ابن عباس ويترجم كلام الناس عندما يسألونه.

فلهذا **قال له:** «أقم عندي حتى أجعل لك سهمًا من مالي..» لأجل هذا، وفي مكان آخر يقول أبو جمرة: إنه سمع من ينهى عن المتعة؛ متعةِ الحج، يقول: فتمتعت، ثم جئت أسأل ابن عباس، فقال: أصبت السُّنَّة، ويظهر من هذا أنه عنده علم، ولكن ابن عباس أراد إقامته؛ لأجل أن يترجم له، ومع ذلك يقول: أعطيه من مالي؛ يجعل له جزءًا من المال.

ففيه دليل على أن الإنسان إذا قام بعمل وإن كان دينيًّا وحَبَس نفسه عليه؛ أنه لا بأس أن يأخذ شيئًا يستعين به؛ لأن هذا شيء خاص، خلاف الذي يكون من بيت المال، والناس كلهم لهم حق في بيت المال.

• **قوله:** «إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ القَيْسِ لَمَّا أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ» وسبق أن مساكنهم قرب الأحساء، وبعضهم يقول: إنها في البحرين، والبحرين يطلق على ما دار بالبحر، **أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:** «مَن القَوْمُ؟ أَوْ مَن الوَفْدُ؟»، الوفد: هم الناس الذين يُختارون؛ ليكونوا وفدًا لقومهم، يعبِّرون عن مقصودهم، ويأتونهم بما يلزم لهم وعليهم، يُختارون لهذا، كما يُختار السفير الآن، وكانوا اثنَيْ عشر رجلًا.

• **قوله:** «وفد عبد القيس» كانوا من أول المؤمنين آمنوا قديمًا، فحال بينهم وبين الرسول ﷺ كفارُ مُضَرَ وغيرهم، وصاروا لا يستطيعون المشي إلى المدينة إلا في الأشهر الحرم، وكان العرب يمتنعون من القتال في الأشهر الحرم ويعظِّمونها.

وكان رئيسهم الأشجَّ، قال له رسول الله ﷺ: «**إن فيك خَصلَتين يحبُّهما الله ورسوله: الحِلمَ والأناةَ**»(١)، وفي لفظ لأبي داود وأحمد. «فقال: يا رسول الله، أنا تخلَّقتُهما، أو جبلني الله عليهما؟ قال: «**بل الله جبَلَك عليهما**». قال: الحمد لله الذي جبلني على خُلُقين يحبهما الله ورسوله»(٢).

«**قَالُوا: رَبِيعَةُ**»؛ يعني: من قبيلة ربيعة.

قَالَ: «**مَرْحَبًا بِالقَوْمِ**»، مرحبًا: هي كلمة استقبال وإكرام، يكرمه بالكلام الطيب الحسن، وكذلك بالفعل الطيب، أما المعنى يقولون: إنك جلستَ في رُحبٍ سَهلٍ ميسَّرٍ ومُهيَّأ لك، والأمر أعم من هذا، ليس بالجلوس، أعم من الجلوس.

• **قوله**: «**مَرْحَبًا بِالقَوْمِ أَوْ قال: بِالوَفْدِ، غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى**»، الخزايا. الخزيُ: هو أن يظهر العار والعيب في الإنسان، والندم: أن يقع في أمر يندم على فعله فيما بعد، **فَقَالُوا**: «**يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ**»، الشهر الحرام معروفة؛ يعني: أنها ثلاثة تتوالى، وواحد فرد الذي هو رجب، وهذه معلومة للناس وللعرب، وكانوا يجتنبون القتال فيها وإن كانوا كَفَرة وجاهلية، ولكنهم يعرفون هذا، صار بينهم.

وقد تساهل الناس فيها الآن كثيرًا! يقولون: «**وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ**»، مُضَرُ أيضًا قبيلة كبيرة، مثل ربيعة «**فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، وَنَدْخُلْ بِهِ الجَنَّةَ**»، ويفصل يعني: أنه شيء مفصول واضح بيِّن لا اشتباه فيه ولا إشكال، ويكون أمرًا محددًا، وفيه الكفاية، وهذا يدل على حرصهم وإيمانهم، والله ﷻ يعطي الإيمان من يتفضل عليه، ومن يرحمه ويحسن إليه.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/٤٨)، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقَدَر وعلامة الساعة، ورقمه (١٧).

(٢) سنن أبي داود (٤/٣٥٧) رقم (٥٢٢٥)، وأحمد في مسنده (١٧/٢٦٤) رقم (١١١٧٥).

• **قوله: «وسألوه عن الأشربة: فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، أَمَرَهُمْ بِالإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ»**، هذه واحدة.

قال: «الإيمان بالله وحده»، هذه هي الأصل، والإيمان كثير من الناس يقول إنه التصديق في اللغة والشرع، وبعض العلماء ينازع في هذا، يقول: التصديق لا يتأتى مع الإيمان في جميع موارده، لا في اللغة ولا في المعنى.

وهذا حق؛ فإنه لا يتأتى معه؛ ولهذا يضاف إليه القبول ونحوه، ويقولون: هو الإقرار والالتزام، يقر ويلتزم ولا بد، وإذا أقر بلا التزام لا يكون مؤمنًا، كما أنه إذا صدق وخالف لا يكون مؤمنًا، وسبق أن الإيمان يتكون من **أمور ثلاثة**:

من العلم والقول والعمل، وهذا بإجماع السلف، وإنما خالف فيه المرجئة، ثم فسر لهم الإيمان **قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ»**، هذا من أقوى ما يحتج به البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، حيث فسَّر الإيمان بالشهادة، وبالعمل، وبالقول؛ فهو يقول: الإسلام والإيمان شيء واحد.

ولكن سبق الجواب عن هذا: أن الإيمان إذا اجتمع مع الإسلام فُسِّر كل واحد بتفسيره، فتغاير، وإذا أُفرِد أحدهما دخل فيه معنى الآخر، وهنا مفرد، فيدخل فيه الآخر، فلا يكون حجة للبخاري على أن الإسلام هو الإيمان.

• **وقوله: «أن محمدًا رسول الله»** تابع تفسير الإيمان.

الثاني: إِقَامُة الصَّلَاةِ.

الثالث: وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ.

الرابع: صِيَامُ رَمَضَانَ، هذه أربعة.

وجاء: **«وَأَنْ تُعْطُوا من المغنم الخُمُسَ»**، إذَن صارت خمسة أو أربعة؟

الجواب: أنه زادهم ﷺ خامسًا؛ لأجل إفادتهم وتعليمهم.

ومثله لما قيل له: نحن نركب البحر ولا يكون معنا إلا ماء قليل، نعدُّه

للشرب، هل نتوضأ بماء البحر؟ قال: «**هو الطَّهور ماؤه الحِلُّ مَيتتُه**»[١]، فزادهم بإحلال ميتة البحر، الذي يموت من حيوانات البحر يكون حلالًا يؤكل، قد قال الله ﷻ: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ**﴾ [المائدة: ٩٦]، فسر الطعام بأنه الميتة التي تموت في البحر، فالمقصود: أنه أعطاهم أربعًا وزادهم هذه.

• **قال**: «**وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنِ الحَنْتَمِ**»، الحنتم: هو الجِرارُ التي تكون من الزجاج؛ يعني: يقول: لا تَنتبذون بها، الانتباذ بها: أن يوضع فيها الماء، ثم يوضع فيها التمر أو العنب حتى يحلو، وهذه يُسرع التخمر فيها؛ فلهذا نهاهم عن ذلك، وكذلك مثلها: «وَالدُّبَّاءِ».

• **قوله**: «**الدُّبَّاء**» معروف عند الناس، لا يزال، ولكن ما كل ما كان من هذا النوع يكون دُبَّاء، الدباء بعض الناس يسميه نجدًا، وبعضهم يسمِّيه يقطينًا، وهو معروف طويل أملس، وقشره قوي إذا يبس، إذا يبس كأنه زجاجة مصنوعة للاستعمال للماء، وكانوا يستعملونه، يضعون فيه الماء ثم ينتبذون به، فهو قريب من الزُّجاج، فيسرع به التخمُّر؛ فنهاهم عنه.

• **قوله**: «**وَالنَّقِيرِ**» هو جذع الشجرة أو النخلة يُنقَر، ثم يكون شبه الإناء، يوضع فيه أيضًا فيسرع إليه التخمر؛ فنهاهم عنه.

وكذلك «**المُقَيَّر وَالمُزَفَّتِ**» القار معروف، والزفت معروف، فهو قديم يُطلَى به، ثم يكون شبه الزجاج، ويسرع به التخمر؛ فنهاهم عنه.

في رواية «قالوا: ففيمَ نشرب يا رسول الله؟ قال: «**في أسقية الأَدَم التي يلاثُ على أفواهها**»، قالوا: يا رسول الله، إن أرضنا كثيرة الجرذان، ولا تبقى

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤/ ٤٨٦)، وأبو داود في سننه (١/ ٦٢)، كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر، ورقمه (٨٣)، والترمذي في سننه (١/ ١٠١)، أبواب الطهارة، باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور، ورقمه (٦٩). وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في سننه (١/ ٥٣)، كتاب الطهارة، باب ماء البحر، ورقمه (٥٩)، وابن ماجه في سننه (١/ ٢٥٠)، كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر، ورقمه (٣٨٦).

بها أسقية الأدَم، فقال نبي الله ﷺ: «**وإن أكلَتْها الجِرذان، وإن أكلَتْها الجِرذان، وإن أكلَتْها الجِرذان**»[١].

يعني: أنه لا يجوز لهم أن ينتبذوا بهذه الأمور؛ خشية أن تكون خمرًا، فيقعوا في المحرم، هذا هو المقصود.

قال: «احْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ»، هذا يدلنا على وجوب بث العلم ونشره، وأن الإنسان إذا كان عنده علم يُحتاج إليه، يجب عليه أن يبثه وينشره إذا سلم من المعارضات التي تعود عليه بالضرر الذي لا يتحمله، والحديث فيه فوائد كثيرة ليس هذا محل ذكرها.

ولكن المقصود: أنَّ امتثال الأمر واجتناب النهي: من الإيمان، وأنه داخل في الدين، وكذلك ما ذكره لهم؛ من الشهادتين، والصلاة، والصوم، والزكاة، وأداء خُمُس المغنم: كلها إيمان.

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله، رقم (١٨)، وأحمد في المسند، رقم (١١١٧٥)، وقد تقدم قريبًا.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: مَا جَاءَ أَنَّ الأَعْمَالَ بِالنِّيَّةِ وَالحِسْبَةِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى

فَدَخَلَ فِيهِ الإِيمَانُ، وَالوُضُوءُ، وَالصَّلاَةُ، وَالزَّكَاةُ، وَالحَجُّ، وَالصَّوْمُ، وَالأَحْكَامُ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤]؛ أي: عَلَى نِيَّتِهِ. «نَفَقَةُ الرَّجُلِ عَلَى أَهْلِهِ يَحْتَسِبُهَا: صَدَقَةٌ» وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ».

الشَّرح

هذا دليل عام جامع لما ذُكِر من الأعمال التي تُعمَل بالبدن، سواء بالقول أو بالفعل؛ كلها جعلها من الإيمان، والأمر فيها واضح، أراد أن يبيِّن أن أعمال القلوب كذلك، **فقال**: «**بَابٌ: مَا جَاءَ أَنَّ الأَعْمَالَ بِالنِّيَّةِ وَالحِسْبَةِ**»، الحسبة: أن يحتسب هذا الشيء ويقصده أن يكون من عمله، أو يكون اجتنابه كذلك.

• **قوله**: بَابٌ: «**مَا جَاءَ أَنَّ الأَعْمَالَ بِالنِّيَّةِ وَالحِسْبَةِ**»، الحسبة: قريبة من النية.

«**وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»، يعني أن الإنسان يُعطى ما نواه بعمله، فدخل فيه الإيمان، والوضوء، والصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، والأحكام كلها، فيكون هذا تمثيلًا لقضايا عامة.

• **قال**: «**وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**» دل على أن الإنسان لا يُحتسب عمله إلا إذا كان بنية، **يقول**: **فَدَخَلَ فِيهِ الإِيمَانُ، وَالوُضُوءُ، وَالصَّلاَةُ، وَالزَّكَاةُ، وَالحَجُّ، وَالصَّوْمُ**، وغيرها من الأمور كلها.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤] وهذا من كلام الله ﷻ، قال: على شاكلته؛ يعني: على نيته، نفقة كانت أو غيرها؛ غير النفقة من الأعمال التي يعملها.

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤] فسَّر الشاكلة بأنها النية.

• فقال: «نَفَقَةُ الرَّجُلِ عَلَى أَهْلِهِ يَحْتَسِبُهَا: صَدَقَةٌ» يحتسبها؛ يعني: يحتسب على الله، ويريد أن تكون صدقة وإن كانت واجبة؛ لأن نفقة الإنسان على زوجته أمر واجب لا بد منه، فإذا لم يحتسِبْها وينوِها فإنه قام بما يجب عليه خوفًا من الله، وأداء للحق الذي لزمه، أثيب على هذا، أما إذا كان الأمر على العادة فقط، هذا لا يثاب ولا يعاقب عليه، فلا بد من النية في مثل هذا، ومثل ذلك الأكل، ومثله النوم والمشي والجلوس، وغير ذلك مما جاءت به النصوص عن النبي ﷺ. لكن الواجب في الشرع إذا فعله أثيب عليه، وكذا المستحب.

والأمور المباحة تكون بالنية عبادات، وإذا فقدت النية فهي عادات، فإذا أكل بنية التقَوِّي على طاعة الله، وكف التطلُّع على ما في أيدي الناس وعن الحرام؛ كان هذا عبادة، أما إذا كان على العادة، فهو أمر مباح لا له ولا عليه.

• قوله: «وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ»؛ يعني: قال الرسول ﷺ: «لا هِجرةَ بَعْدَ الفَتحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ»، فجعل النية قسيمًا للجهاد؛ يعني: أنه لا بد للأعمال منها.

٥٤ ـ **حَدَّثَنَا** عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، قَالَ: أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَقَّاصٍ، عَنْ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**».

الشَّرح

• **قوله**: «**عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَقَّاصٍ، عن عمر** رضي الله عنه»، هذا الحديث يقولون: من الغريب؛ لأنه لم يروه عن عمر إلا علقمة بن أبي وقاص، ثم رواه عن علقمة أكثر من خمسمائة، فصارت غرابته في أوله فقط، ولكنه رُوي عن غير عمر؛ رُوِيَ عن عائشة وعن أبي هريرة وغيرهما.

• **قوله**: «**الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ**»، أول ما بدأ كتابه «الصحيح» بهذا الحديث، لما قال: كيف بدء الوحي؟ ثم ذكر الحديث، هل هذا الحديث من الوحي؟ يقولون: هذا إشارة منه إلى أن المتعين على كل كاتب أو عالم أن تكون نيته صالحة، فيصلح نيته أولًا قبل أن يكتب.

والنية: هي عمل القلب، والقلب هو الذي يبعث على الأعمال، وهي شرط في مؤاخذات وفي اعتبار الأعمال؛ فالإنسان إذا عمل شيئًا سهوًا ما، لم يؤاخذ ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ولم يُعتَبر عملًا.

• **وقوله**: «**وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**» هذا تفسير لقوله: «**إنما الأَعْمَالُ بِالنِّيَّات**».

• **قوله**: «**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»؛ يعني: أنه ليس له إلا ما نوى، وهذا الحديث يُقال له سبب، وهو أن رجلًا خطب امرأة في مكة، يقال لها: أم قيس، فأبت إلا أن يهاجر، فهاجر من أجل ذلك، فقيل للنبي ﷺ فقال: «**إنما الأَعْمَالُ بِالنِّيَّات**» إلى آخره.

كان يقال: مُهاجِر أمِّ قيسٍ! هاجر لأجل التزوج بها، فما صار له من الأجر إلا التزوج، وكذلك إذا هاجر لأجل الدنيا، ليس له إلا الدنيا.

ولهذا قال: «**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»؛ يعني: ليس له من الهجرة الأجر إلا هذا؛ لأن «**الأَعْمَال بِالنِّيَّات**»؛ فلهذا قد تكون الأعمال ظاهرة في أمور معينة، وفي الحقيقة أنها غير ذلك؛ لأنها ترجع إلى نية العامل.

والذي يأخذ بالنيات هو ربّ العالمين ﷻ، وسوف يحاسب عباده على ذلك، ومن هذا القبيل ما سبق من قوله ﷺ: «**وحسابهم على الله**»[1]؛ يعني: مقاصدهم ونياتهم الله هو الذي يحاسبهم عليها؛ لأنها خفية، وإنما الحكم على الظاهر من العباد.

وهذا حديث عظيم، والعلماء يقولون: اعتبار الأعمال بالنية، فإذا لم تكن النية مصاحبة للعمل، فلا عبرة فيها، ولا تُجزئ.

والنية هي التي تبعث على العمل؛ ولهذا يقولون: النية في القلب ولا يُتلفَّظ بها، فإذا قام مثلًا للوضوء هذه نية الوضوء، وإذا أتى للمسجد هذه نية الصلاة.

«**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ**»؛ يعني: هجرته ترك الوطن، والمال، والأهل، وهجره للقيام بأمر الله ونصرة دينه ومناصرة نبيّه، وكانت هجرة واجبة، ومن تركها وهو يستطيع يُتوعد بالنار، ولا تزال واجبة على من يخاف على دينه، إذا كان الإنسان في بلد يخاف أنه يُفتن عن دينه، وجب عليه أن يهاجر إلى بلد لا يفتن فيه.

(١) تقدم تخريجه.

٥٥ ـ حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مِنْهَالٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عَدِيُّ بْنُ ثَابِتٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ يَزِيدَ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ يَحْتَسِبُهَا فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ**».

٥٦ ـ حَدَّثَنَا الحَكَمُ بْنُ نَافِعٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَامِرُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ**».

الشَّرح

• **قوله: «إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ يَحْتَسِبُهَا فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ»**. يحتسبها؛ يعني: ينوي أنها طاعة لله وامتثال لأمره، وقيام بالواجب، وصدقة وإن كانت واجبة، وكذلك أكله ونفقته على ولده وغير ذلك، ودل على أن النفقة بغير نية لا تُحتَسَب له.

• **قوله: «عن أبي مسعود عن النبي ﷺ قال: «إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها فهو له صدقة»** الشاهد **قوله: «يحتسبها»**؛ يعني: ينوي أنها تكون صدقة، أو أنه يقوم بما أوجب عليه، بخلاف الذي تكون عادة، هذا لا يؤجر، وكذلك الأكل والمشي والجلوس، وغيرها من الأمور المباحة، قد تكون عبادات بالنية، وقد يكون الإنسان غافلًا عنها فلا تُحتَسَب له.

فإذا أكل مثلًا ينوي أن يتقوى به على طاعة الله، ويكف نفسه عن التطلع إلى ما في أيدي الناس، أُجر على هذا، وكذلك إذا بحث عن الرزق ليكُفَّ نفسه وأولاده عن الحرام، ويقوم بما وجب عليه، فكأنه في الجهاد، يجاهد يكتب له عمله؛ ولهذا جاء في «الطبراني» أنه قال: عن النبي ﷺ: «**نية المؤمن أبلغ من عمله**»[1]؛ فقد يدرك الإنسان بالنية ما لا يدركه بالعمل.

---

(١) أخرجه الطبراني المعجم الكبير (٦/ ١٨٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ١٧٦).

ويدل على هذا الآيةُ التي بآخر سورة التوبة؛ كونه يكتب لهم حتى مسيرهم وقطعهم الأودية، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠] هذه لا بد من النية فيها، والأعمال كلها تحتاج إلى النية، وكذلك قول الرسول ﷺ: «**إن بالمدينة لَرِجالًا ما سرتم مَسيرًا، ولا قطعتم واديًا، إلا كانوا معكم، حبَسَهم المرض**»[(١)]؛ لأنهم لو لم يحبسهم العذر لساروا، لكنهم مرضى أو عاجزون، فلا بد من النية، وحديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه نص في هذا.

وعادَ الرسولُ ﷺ في عام حجة الوداع سعدَ بن أبي وقاص من وجعٍ اشتد به، قال: فقلت: يا رسول الله: إني قد بلغ بي من الوجع وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدق بثلثَيْ مالي؟ قال: «**لا**» فقلت: بالشطر؟ فقال: «**لا**» ثم قال: «**الثلث، والثلث كبير** ـ أو **كثير** ـ؛ **إنَّك أن تذَرَ ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تذرهم عالة يتكفَّفون الناس، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجهَ الله إلا أجرت بها، حتى ما تجعل في في امرأتك**». فقلت: يا رسول الله، أُخَلَّفُ بعد أصحابي؟! قال: «**إنك لن تخلَّفَ فتعمل عملًا صالًحا إلا ازددت به درجة ورفعة، ثم لعلك أن تُخَلَّف حتى ينتفع بك أقوام، ويُضَرَّ بك آخرون، اللَّهُمَّ أمضِ لأصحابي هِجْرَتَهم، ولا تردَّهم على أعقابهم، لكِنِ البائسُ سعدُ بن خَولةَ!**»، قال: رثى له رسول الله ﷺ من أن توفِّيَ بمكة[(٢)].

«**تبتغي بها وجهَ الله**» يعني: هذا بالابتغاء، فإذَن الأكل يأكله، أو ينام، ونوى بذلك أنه يتقوى على القيام إلى أداء الفريضة التي افترضها الله عليه،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٨)، كتاب المغازي، ورقمه (٤٤٢٣)، ومسلم في صحيحه (٣/ ١٥١٨)، كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر، ورقمه (١٩١١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٨١)، كتاب الجنائز، باب رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة، ورقمه (١٢٩٥)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ٢٥٠)، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، ورقمه (١٦٢٨).

ويكف نفسه عن النظر إلى المسلسلات الخبيثة، والأفلام الخليعة وغيرها من الأمور المحرمة، هذه تكون عبادة؛ لأن من الناس من يرسل نظره لهذه الأمور المحرمة؛ فالمقصود: أن النية تكون في كل عمل، والنية تكون العادة بها عبادة، فلا بد منها، وهي داخلة في الأعمال كلها.

وقوله ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: لعلك أن تُعَمَّر حتى ينتفع بك قوم ويُضَر بها آخرون، ولكنِ البائس سعد بن خولة؛ لأنه توفي بمكة، فبطلت هجرته، فسعد يُرْثى له؛ ولهذا المهاجر إذا ترك البلد وترك الأهل، فلا يجوز أن يرجع إليه؛ لأنه تركه لله ﷻ، وإن كان هذا ليس باختياره، جاء حاجًّا فمرض ومات في مكة، فما صارت له هجرة، ولهذا قال: البائس سعد بن خولة رضي الله عنه.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ: قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ: للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وعامتهم»، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١]

٥٧ ـ **حَدَّثَنَا** مُسَدَّدٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ إِسْمَاعِيلَ، قَالَ: حَدَّثَنِي قَيْسُ بْنُ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: «بَايَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ».

الشَّرح

• **قال: بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ: للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»**. هذا لفظ حديث رواه مسلم في «صحيحه»[1]، والبخاري جاء بغيره ولكنه ترجم به، وهذه عادته إذا كان الحديث على غير شرطه؛ فإنه يجعله ترجمة، وقد يذكره بالتعليق فقط؛ قال كذا.

• **قوله: «بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ: للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وعامتهم»، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾** [التوبة: ٩١]، النصيحة أصلها مأخوذة من التخليص والتصفية؛ ولهذا يسمى الذي يغسل الثياب يسمَّى ناصحًا؛ يعني: لأنه يزيل الأوساخ والأدران التي فيها، ويصفِّيها مما خالطها.

فالنصح هو تصفية الشيء وتخليصه مما يخالطه من غير جنسه، أو مما يفسده؛ فالنصيحة لله ﷻ الإخلاص؛ الإخلاص في دينه، والاجتهاد في ذلك، والنصح لرسوله، والإيمان به وتصديقه ومتابعته، والقيام بنشر دعوته حسب الإمكان، وأما النصح لأئمة المسلمين يعني: حكامهم، وكذلك بذل النصيحة لهم أن يُرشَدوا إذا أمكن، ويطاعوا إذا أمروا بغير معصية، ويجتهد في تحصيل المنافع وتقليل المفاسد، أو إزالتها بالكلية إذا أمكن.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدين النصيحة، رقم (٥٥).

• **قال: وَقَوْلِهِ تَعَالَى:** ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١]؛ يعني: أنهم ليس عليهم سبيل إذا نصحوا لله؛ يعني: صارت نيتهم ومقاصدهم أنهم يقومون بما يلزمهم لله، وكذلك للرسول ﷺ.

والنصيحة كما سبق في اللغة مأخوذة من النصح، وهو التصفية والتخليص، والنصيحة كذلك تكون تنقية وتخليصًا للحق من أن يشوبه شيءٌ من الباطل.

• **وقال: وقوله تعالى:** ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١]؛ يعني: أهل الأعذار أن الله يعفو عنهم إذا نصحوا، هذا يدل على أن المقصود النية؛ نيتهم ومقاصدهم التي يثابون عليها.

• **قوله: «عن جرير بن عبد الله قال: بَايَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»** جرير بن عبد الله رضي الله عنهما من سادات الصحابة، وكان إسلامه متأخرًا، وكان الرسول ﷺ يحبه، ويقول: ما قابلتُ رسول الله إلا وضحك في وجهي، وقد دعا له لما أمره أن يذهب لإزالة ذي الخَلَصةِ، ففعل.

• **قوله: «بَايَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»**، هذا الشاهد، والمبايعة أُخِذت من الباعِ.

وهذا ليس خاصًّا بجرير رضي الله عنه؛ بل لكل مسلم، يجب عليه أن يكون ناصحًا لكل مسلم، والنصيحة الإخلاص في إيصال الخير، ودفع الأذى والشر عنه.

قال: «بَايَعْتُ»، كأنها مفاعلة؛ لأن فيها مَدَّ الباع الذي هو اليد، يمُدُّها، كل واحد يمد يده ويتعاقدون على شيء، وهذا العقد على شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم.

فإذَن يقدم على هذا النصيحة في شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ثم تصديق الرسول ﷺ ومحبته ومتابعته، والنصح لكل مسلم، سواء قريبًا أو بعيدًا؛ ولهذا مثَّل ﷺ المؤمنين بتراحمهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد، أو كالبناء المتماسك، يألم المؤمن لإخوانه أينما كانوا، ويفرح لفرحهم؛ ما يتحصل لهم من الخير.

٥٨ ـ **حَدَّثَنَا** أَبُو النُّعْمَانِ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ زِيَادِ بْنِ عِلَاقَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ يَوْمَ مَاتَ المُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، قَامَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: عَلَيْكُمْ بِاتِّقَاءِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالوَقَارِ، وَالسَّكِينَةِ، حَتَّى يَأْتِيَكُمْ أَمِيرٌ، فَإِنَّمَا يَأْتِيكُمُ الآنَ. ثُمَّ قَالَ: اسْتَعْفُوا لِأَمِيرِكُمْ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يُحِبُّ العَفْوَ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ قُلْتُ: أُبَايِعُكَ عَلَى الإِسْلَامِ، فَشَرَطَ عَلَيَّ: «وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ» فَبَايَعْتُهُ عَلَى هَذَا، وَرَبِّ هَذَا المَسْجِدِ إِنِّي لَنَاصِحٌ لَكُمْ، ثُمَّ اسْتَغْفَرَ وَنَزَلَ.

الشَّرح

• **قوله**: «**يومَ مَاتَ المُغِيرَةُ**»، كان المغيرة أمير الكوفة، لما مات «**قَامَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ**»؛ يعني: هكذا لو أراد الإنسان أنه يتكلم عن شيء ويبيِّنه، الواجب أن يبدأ بالحمد، والثناء معناه تثنية الحمد، يعني: حَمِدَ وأثنى الحمد.

المغيرة كان أميرًا في العراق، فلما مات قام جرير رضي الله عنه نفس الحدث، فخطبهم؛ يعني: ليثبتهم ويبقيهم حتى لا يخرج أحد منهم عن الطاعة.

• **وقوله**: «**عَلَيْكُمْ بِاتِّقَاءِ اللهِ**»، هذه كلمة عامة، باتقاء الله؛ يعني: يدخل فيها الطاعات وعدم الخلاف، وعدم الخروج؛ لأن في ذلك الوقت العراق شُهر بالمخالفات، وصار فيهم الرافضة، وفيهم الكذب، وفيهم ترك الحق؛ فالاتقاء: يجب أن يكون اتقاء الله في كل عمل يقدم عليه أن يتقي الله فيه، ويتقي الله في نفسه.

• **وَقوله**: «**عَلَيْكُمْ بِاتِّقَاءِ اللهِ وحده لَا شَرِيكَ لَهُ**»، تقوى الله تمنع من اقتراف المعصية، ومنه عدم الطاعة للأمير.

• **قوله**: «**وَالوَقَارِ**» الوقار: الوقار يعني: التأنِّي وعدم العجلة، وكون الإنسان يكون عنده خُلُق حسن يمنعه من التسرع في الأمور.

• **قوله**: «**والسكينة**» الطمأنينة في الأشياء، وكل هذا من الأمور المحمودة، والسكينة عند العبد كونه يكون عنده طمأنينة، وهذا أمر مطلوب في كل شيء.

• **قوله**: «**حَتَّى يَأْتِيَكُمْ أَمِيرٌ**»؛ يعني: يرسل إليهم الأمير من قِبَل الخليفة؛ لأنه فُقد الأمير فلا يكون هذا فرصة لبعض الضعفاء ينتهزون الأمر، فيخالفون فيه؛ فلهذا أمرهم باتقاء الله والوقار والسكينة، «**فَإِنَّمَا يَأْتِيكُمُ الآنَ. ثُمَّ قَالَ: اسْتَعْفُوا لِأَمِيرِكُمْ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يُحِبُّ العَفْوَ**»؛ لأن الجزاء من جنس العمل، إذا كان يحب العفو فيُرجَى أن الله يعفو عنه.

• **قوله**: «**اسْتَعْفُوا لِأَمِيرِكُمْ**»؛ أي: المغيرة بن شعبة ﷺ وقوله: استعفوا له؛ يعني: اطلبوا من الله أن يعفو عنه؛ «**فَإِنَّهُ كَانَ يُحِبُّ العَفْوَ**»، يحب أنه يعفو عن الذي يخرج عن المأمور أو ما أشبه ذلك، كان يعفو.

• **قوله**: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ قُلْتُ: أُبَايِعُكَ عَلَى الإِسْلَامِ فَشَرَطَ عَلَيَّ: «وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»**، هذا الشاهد.

• **قوله**: «**وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ**» وهذا من النصيحة، كونه قام وهدأهم ونصحهم وأمرهم بالتقوى، وألا ينزعوا يدًا من طاعة حتى يأتيهم الأمير، هذا العمل بالنصيحة التي بايع عليها رسول الله ﷺ، فكانوا يعملون بذلك.

والمقصود: أن هذا عام؛ يجب على كل مسلم أن يكون ناصحًا لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم. والنصح «**لله**»: أن يقوم بأداء الواجبات، ويجتنب المحرمات، ويكون متقيًا لله، هذا هو النصح.

وقد جاء أيضًا النصيحة لكتاب الله؛ والنصيحة «**لكتابه**»: أن يؤمن به ويتبع أوامره ويجتنب نواهيه ويعظِّمه، وكذلك النصيحة «**لِرَسُولِهِ**» ينصح له بأن يقوم بما يلزم له من دعوة إلى سنَّتِه بعد العمل بها، وبثها في الناس، وكذلك كونه يعظِّمه ويَقدُره حقَّ قَدْرِه.

وأيضًا النصحية «**لأئمة المسلمين**» يعني: الإمام يجب أن ينصح له، ويهدى إلى ما فيه الخير، ويجتهد في هذا، وكذلك النصيحة «**لعامتهم**»؛ عامة

المسلمين؛ يعني: هذا عام، فخص أولًا، ثم عمَّم، وهذا كله من الدين الذي يجب أن يتَّبَع، «**وعامة المسلمين**»: أن يرشِدَهم ويدعو لهم، ويحب ما ينفعهم، ويشق عليه ما يُعنِتُهم.

وأصلها بذل المعروف، ومن أعظم المعروف العلمُ الذي ينتفعون به، وكذلك ما يتبعه.

• **قوله**: «**فَبَايَعْتُهُ عَلَى هَذَا، وَرَبِّ هَذَا المَسْجِدِ إِنِّي لَنَاصِحٌ لَكُمْ، ثُمَّ اسْتَغْفَرَ وَنَزَلَ**»؛ يعني: بهذا الكلام يقول: «**إني ناصح لكم**»؛ يعني: كونه أمرهم بتقوى الله، وأمرهم بالوقار والسكينة، والتأني حتى يأتي الأمير؛ لأن الأمير هو الذي يدبِّر الأمور غالبًا التي فيها الاختلاف وغيرها، ويفصل بين المتنازعين؛ فالناس لا بد لهم من أمير، فدل على أن هذا لا بد فيه من الاجتهاد والنية وطلب الأجر، والأمر في هذا واضح.

• **قوله**: «**والنصح لكل مسلم**»؛ يعني: أن تبذُلَ له النصيحة.

* * *

بهذا انتهينا من الكتاب، نسأل الله ﷻ أن ينفَعَنا ويُعينَنا.

هذا والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله؛ نبينا محمد.

فهرس شرح كتاب الإيمان من صحيح البخاري

الموضوع	الصفحة
مقدمة المُعتني	٧
باب قول النبي ﷺ: «بُنِيَ الإسلام على خمسٍ»	١١
الإيمان هو أول ما يجب على الإنسان، وهو أمر مهم لا بد للعبد أن يعرف حقيقته، وأن يتحلى به	١٢
الإيمان أمور ثلاثة: قول، وعمل، واعتقاد	١٣
الإيمان من أهم المسائل التي يجب على المسلم أن يهتم بها؛ لأنه هو الأساس، وهو الأصل	١٣
الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ فَهِمَ الأمر تمامًا على ضوء ما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وطريقته طريقة السلف	١٣ ـ ١٤
كلام الناس يجب أن يُعرض على كلام الله، وكلام رسوله، فما وافقهما قُبِل، وما خالفهما يُرد على صاحبه	١٤
الإيمان جاء به الرسول ﷺ وبيَّنه غاية البيان أكثر من بيان الصلاة والصوم وغيرها من الأحكام	١٤
عند أهل السنة يجوز الاستثناء بالإيمان	١٥
بعض أقسام الكفر	١٥ ـ ١٦
عند البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لا فرق بين الإيمان والإسلام	١٧
الصحيح من أقوال السلف: أن الإيمان والإسلام إذا اجتمعا فيفسر كل واحد بمعنى	١٨
أدلة زيادة الإيمان ونقصانه	٢٥ ـ ٢٨
الإيمان ما دام يزيد وينقص، وكذلك الشر والكفر؛ يكون بعضه أعظم من بعض	٢٦

الموضوع	الصفحة
الإيمان يدخل فيه الواجب والمستحب، وترك المحرم، وترك المكروه	٣٠
أهل الإيمان الكاملون يخافون أن يُسلب إيمانهم	٣٣
الصحيح أن الغيب كل ما أخبر الله ﷻ به، سواء تعلق بالرب من الأوصاف وغيرها من أسماء وصفات، أو بأخباره وبجزائه ووعده ووعيده وغير ذلك	٣٤
باب: دُعَاؤُكُمْ إِيمَانُكُمْ	٣٧
كل عبادة يعملها الإنسان يرجو بها ثواب الله ويخاف من عقابه؛ هي دعاء	٣٧
الإله هو المألوه الذي تألهه القلوب خوفًا ورجاءً وحبًا، ويجب أن يكون تألهه لله وحده جل وعلا	٤٠
يتوجب في الرسول أمور أربعة	٤٢
كل ما استعبد القلب فهو معبود؛ لأن العبادة الحقيقية هي عبادة القلب	٤٣
الأمر بالصلاة جاء بالأمر بإقامتها، والإقامة يجب أن تكون شاملة للعقل وللفكر وللقلب وللجوارح كلها	٤٣
الإنسان لا يبلغ الإيمان حتى ينفق مما يحب، وتكون نفقته أحب إليه من إمساكها	٤٤
الطواف عبادة لا يجوز أن يكون إلا على البيت	٤٧
كل ما خالف دين الإسلام فهو جاهلية	٤٨
بَاب: أُمُورِ الإِيمَانِ	٤٩
أسباب النزول تُعِين على الفهم	٥٠
الله غيب لا يُشاهد، وليس له مثيل؛ فيقاس عليه ـ تعالى وتقدس ـ	٥٠
التقوى يدخل فيها فعل الخير كله، واجتناب الشر كله	٥١
لا يجوز أن نقول ـ عن الملائكة ـ ذكورًا أو إناثًا؟	٥١
بعض طلبة العلم الذين يكونون أئمة في المساجد وغيرهم، لا يطمئنون في صلاتهم! والطمأنينة لا بد منها في الصلاة	٥٤
لا بد من النطق بالشهادتين إذا كان يستطيع النطق	٥٦

الموضوع	الصفحة
الأوامر يجب أن تكون توقيفية، والأشياء على الإباحة حتى يأتي النهي؛	
يعني: هذه هي قاعدة يجب أن تطبق دائمًا	٥٧
التوحيد هو الأساس	٥٨
المتكلمون رجعوا إلى العقول والأفكار، فوقعوا في الضلال، ولا سيما في الإيمان بالله	٥٨
باب: المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ	٦٠
أذية المسلمين حرام، وسلامة المسلم من لسان الإنسان ويده أمر واجب، فإذا تركه كان إسلامه ناقصًا، وكان معرضًا لعذاب الله	٦٠
من حفظ لسانه عن الوقوع في المسلمين دل على أنه معتنٍ بأمر الله ﷻ	٦١
قد يزين الشيطان للإنسان السوء بصورة الخير، فيتكلم على الناس، ويقول له الشيطان: هذه نصيحة!	٦١
الأصل أن الناس في الإيمان ـ كما هو معلوم متفاوتون، وقد قسمهم الله ﷻ في القرآن إلى ثلاثة أقسام	٦١ ـ ٦٢
أكثر ما يصدر من العبد الأذى من اللسان، وهذا لا يسلم منه إلا من تحلى بالإيمان حقيقة	٦٢
باب: أَيُّ الإِسْلَامِ أَفْضَلُ	٦٥
الناس يتفاوتون في الإجرام، كما أنهم يتفاتون في الإيمان	٦٦
نصوص الوعيد يجب أن تبقى على ما جاءت عليه، مع اعتقاد أن الفاعل لا يكون كافرًا، ولكن الأمر إلى الله فيها	٦٧
باب: إِطْعَامُ الطَّعَامِ مِنَ الإِسْلَامِ	٦٩
ليس هناك أبين وأوضح من كلام الرسول ﷺ بعد كلام الله ﷻ	٦٩
الإرجاء يتفاوت	٧١
باب: من الإيمان أن يُحِبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه	٧٢
محبة الخير عمومًا للمسلمين؛ لأنهم إخوة، والأخوة أخوة الإيمان هي اللازمة، وهي الصلة الثابتة التي لا تتغير	٧٤ ـ ٧٥

الموضوع	الصفحة
باب: حُبُّ الرَّسُولِ ﷺ مِنَ الإِيمَانِ	٧٦
تفاوت الناس في الإيمان والإحسان، هذا أمر لا يجوز أن يشك الإنسان فيه، أو أن يكون عنده فيه ريبٌ؛ لوضوحه وظهوره بالأدلة الظاهرة	٧٧
حب الله ﷻ هو أصل الإيمان؛ لأنه هو التأله	٧٧
الفرق بين محبة الله ومحبة رسوله ﷺ	٧٧ ـ ٧٨
دليل محبة الرسول ﷺ: الطاعة والاتباع	٧٩
الحب يقسَّم إلى قسمين	٧٩ ـ ٨٠
الله ﷻ ليس كمثله شيء؛ لا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في ذاته، ولا في ملكه، ولا في حقه	٨١
باب: حَلَاوَةِ الإِيمَانِ	٨٤
حلاوة الإيمان: الصحيح أن هذه الحلاوة حلاوة حقيقة وجودية، تكون أحلى من العسل عند الذين يتحلون بالإيمان الكامل	٨٦
باب: عَلَامَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ	٩٠
النفاق من أضر الأمور على المسلمين والإسلام	٩٢
النفاق ينقسم إلى قسمين	٩٢ ـ ٩٣
الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، والناس يتفاوتون فيها	٩٣
باب: «بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا...»	٩٤
القاتل يتعلق فيه ثلاثة حقوق	٩٧ ـ ٩٨
هل مجرد إقامة الحد يكون كفارة، أو أنه لا بد أن يضاف إلى ذلك التوبة؟	٩٩
الإنسان إذا وقع في ذنب من الذنوب لا يجوز له أن يشهر بنفسه	٩٩
الرد على بعض أهل البدع كالخوارج والمعتزلة والمرجئة	١٠٠ ـ ١٠١
باب: مِنَ الدِّينِ الفِرَارُ مِنَ الفِتَنِ	١٠٢
الفرار من الفتن يدل على ثبوت الإيمان عند الإنسان	١٠٢
باب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللهِ» وَأَنَّ المَعْرِفَةَ فِعْلُ القَلْبِ	١٠٥
الحقيقة أن بين القلب وبين الدماغ ارتباطًا؛ لأن الدماغ أيضًا فيه الفكر وفيه الأمور التي كلها تكون مرتبطة بالجسد كله	١٠٨

الموضوع | الصفحة

الإيمان مركب من أجزاء ١٠٩

باب: مَنْ كَرِهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ: مِنَ الإِيمَانِ ١١٠

البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ يكرر الأحاديث كثيرًا لمقصود له بالترجمة التي يترجم بها ١١٠

من أنفع الكتب التي ينبغي للطالب أن يقرأها هذا الكتاب؛ صحيح البخاري ١١١

باب: تَفَاضُلِ أَهْلِ الإِيمَانِ فِي الأَعْمَالِ ١١٢

الأعمال يدخل فيها أعمال القلوب، وأعمال الجوارح بلا شك؛ فالتفاضل قد يكون بالأصل، وقد يكون بالفروع، وكله واقع ١١٢

تفاوت الإيمان وتفاضله بين أهله ١١٣

الدواوين ثلاثة ١١٦

رؤيا الأنبياء وحي من الله ﷻ، أما مرائي الناس فقد تكون صادقة، وقد تكون كاذبة، وقد تكون حقًا، وقد تكون غير ذلك ١١٩

باب: الحَيَاءُ مِنَ الإِيمَانِ ١٢١

الحياء من أعمال القلوب، خير كله ١٢١

باب: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ ١٢٣

الصحيح أن الحج فُرض في السنة التاسعة من الهجرة ١٢٤

أول ما يجب على العبد أن يشهد «أن لا إله إلا الله...»، ليس كما يقول أهل الضلال من المتكلمين: أول الواجب النظر، أو قصد النظر، أو الشك... ١٢٦

باب مَنْ قَالَ: إِنَّ الإِيمَانَ هُوَ العَمَلُ ١٢٨

لا بد للعبد من الصبر على الطاعة، والصبر عن المعاصي، والصبر على الأقدار التي تصيبه ١٣٠

باب: إِذَا لَمْ يَكُنِ الإِسْلَامُ عَلَى الحَقِيقَةِ، وَكَانَ عَلَى الاِسْتِسْلَامِ أَوِ الخَوْفِ مِنَ القَتْلِ ١٣٤

الإسلام لا استثناء فيه؛ بل يقول: أنا مسلم ويجزم ١٣٦

الفرق بين الإسلام والإيمان ١٣٧

الموضوع	الصفحة
باب: إِفْشَاءُ السَّلَامِ مِنَ الإِسْلَامِ	١٣٩
المرجئة هم من أشر الطوائف التي تدعو إلى ترك العمل	١٣٩
باب: كُفْرَانِ العَشِيرِ، وَكُفْرٍ دُونَ كُفْرٍ	١٤١
منامات الرسول ﷺ كيقظته، وهو تنام عيناه ولا ينام قلبه	١٤٢
باب: المَعَاصِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ، وَلَا يُكَفَّرُ صَاحِبُهَا بِارْتِكَابِهَا إِلَّا بِالشِّرْكِ	١٤٥
هل الشرك الأصغر تحت المشيئة، أو ليس كذلك مع الأكبر؟	١٤٧
الشرك ينقسم إلى قسمين	١٤٧
من كان أتقى لله فهو أفضل عند الله وأقرب إلى الله، مهما كان لونه أو عِرْقه أو عمله	١٤٩
باب: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ فَسَمَّاهُمُ المُؤْمِنِينَ	١٥٠
الذنوب لا تُخرج المؤمن من أنه مؤمن، كذلك المسلم	١٥٠
باب: ظُلْمٌ دُونَ ظُلْمٍ	١٥٤
الظلم يُطلق على الذنوب، كما أنه يُطلق على الكفر، وعلى الشرك وعلى غير ذلك	١٥٤
تعريف الظلم بأنه التصرف في ملك الغير بغير إذنه: تعريف باطل؛ لما يلزم عليه من اللوازم الباطلة	١٥٥
الفرق بين مطلق الظلم، والظلم المطلق	١٥٦
باب: عَلَامَةِ المُنَافِقِ	١٥٧
لماذا ذكر البخاري رحمه الله علامات النفاق في كتاب الإيمان؟	١٦٠
النفاق قد يكون منه شيء مع المؤمن، كما أن الكافر قد يكون معه شيء من الإيمان، والإنسانُ لما غَلَب عليه	١٦٢
باب: قِيَامُ لَيْلَةِ القَدْرِ مِنَ الإِيمَانِ	١٦٣
باب: الجِهَادُ مِنَ الإِيمَانِ	١٦٨
العمل الصالح هو: الذي يكون على وفق سنة المصطفى ﷺ	١٦٩

الموضوع | الصفحة

الجهاد يكون جهادًا للنفس، والشيطان، والكَفَرة، والفَسقة، وغير ذلك ١٦٩
الوساطة التي تكون بين الخلق وبين الرب نوعان ١٧١

باب: تَطَوُّعُ قِيَامِ رَمَضَانَ مِنَ الإِيمَانِ ١٧٥

الكراهة المتأخرون قسموها إلى قسمين ١٧٥
نزوله جل وعلا نزولٌ حقيقي يليق بجلاله وعظمته، وهو العلي الأعلى فوق كل شيء ١٧٦

باب: صَوْمُ رَمَضَانَ احْتِسَابًا مِنَ الإِيمَانِ ١٧٨

باب: الدِّينُ يُسْرٌ ١٧٩

الحنيفية يعني: المائل عن الأديان كلها قصدًا وإرادة إلى إخلاصه وجعله لله وحده ١٧٩
الدين أشد الأديان في التوحيد، أما في العمل فهو سهل، ميسر؛ لهذا قُيد كله بالاستطاعة ١٧٩
الرغبة عن الخير ليست علامة خير؛ بل هي علامة شر ١٨٤

باب: الصَّلَاةُ مِنَ الإِيمَانِ ١٨٥

لا يخرج عن الإيمان شيء من الأعمال التي تُفعل لأجل الثواب، أو تُترك خوفًا من العقاب؛ كلها داخلة في الإيمان ١٨٥
الخلاف يبعث على الحزازات، ويؤول إلى المعاداة وإلى المقاطعات، والواقع يدل على هذا ١٨٥
النسخ أنكره اليهود، مع أنه موجود في التوراة، ولكنهم أصحاب عناد وكبر ١٩٠

باب: حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ ١٩٢

الإحسان على قسمين ١٩٢

باب: أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ ﷻ أَدْوَمُهُ ١٩٦

ينبغي على العبد أن يزداد خيرًا كلما تمادى به العمر، كل يوم يكون أحسن من الذي قبله، ولا يجوز العكس ١٩٧
منهم: من يثبت الهرولة لله والمشي! وهذا خلاف نص الحديث نفسه ١٩٨

الموضوع | الصفحة

الكمال المطلق لله من كل وجه، وأن الله لا يوصف بشيء من النقص، تعالى وتقدس ١٩٨
الواجب على طالب العلم أن يتفهم مراد المتكلم، وهذا يتبين بالسياق والقرائن ..... ١٩٨ ـ ١٩٩
نفسُ الإنسان مَطيَّته التي يسير عليها إلى ربه، ينبغي ألا يوغِلَ في الإضرار بها ٢٠٠
باب: زِيَادَةِ الإِيمَانِ وَنُقْصَانِهِ ٢٠١
الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ ينوع الأدلة ويسوقها ويكرر ذلك؛ حتى يكون هذا أبلغ في الاستدلال، وفي زيادة المعلومات، وغير ذلك ٢٠١
المرجئة ليسوا من أهل العلم، ولا من أهل الإيمان، ولا من أهل متابعة الحق ٢٠٢
المرجئة تقابل الخوارج ٢٠٢
زيادة الإيمان أمر متفق عليه بين السلف، أما خلاف المرجئة والخوارج فلا يعتبر خلافًا ٢٠٢
باب: الزَّكَاةُ مِنَ الإِسْلَامِ ٢١٠
الأعمال هي إيمان، ومن لم يعمل لا يكون مؤمنًا ٢١٠
رواية: «أفلح ـ وأبيه ـ إن صدق» الصواب: أن هذا قبل تحريم الحلف بغير الله؛ لأنه كان أولًا جائزًا؛ كانوا يحلفون بآبائهم حتى جاء تحريمه ٢١٢
باب: اتِّبَاعُ الجَنَائِزِ مِنَ الإِيمَانِ ٢١٤
الأمور التطوعية والتي ليست فرضًا داخلة في مسمى الدين والإسلام والإيمان ٢١٥
باب: خَوْفِ المُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ ٢١٧
الخوف ينقسم إلى قسمين ..... ٢١٧ ـ ٢١٨
الكرامة تكون لشيئين ٢١٨
لا يجوز رفع الصوت عند قبر النبي ﷺ ولا في مسجده ٢٢١
محبة الله ﷻ أمرها عظيم ٢٢٣
إذا قرنت الذنوب مع السيئات؛ فالسيئات تفسر بالصغائر، والذنوب بالكبائر ... ٢٢٣

الموضوع | الصفحة

ليلة القدر هي خير من ألف شهر، وطلبها أمر ينبغي ألا يُستهان به ٢٢٨

باب: سُؤَالِ جِبْرِيلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الإِيمَانِ، وَالإِسْلَامِ، وَالإِحْسَانِ، وَعِلْمِ السَّاعَةِ، وَبَيَانِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ ٢٢٩

الأديان الأخرى؛ التي هي اليهودية والنصرانية وغيرها وإن كانت سابقًا صحيحة، فهي الآن لا تجدي ولا تنفع، ومن تديَّن بها فهو ضال هالك ومصيره إلى النار ٢٣٠

الإيمان بالملائكة على نوعين ٢٣٥

كل لقاء في الكتاب والسُّنة يتضمن الرؤية والمعاينة ٢٣٦

الالتفات قد يكون بالبدن، وقد يكون بالقلب وهو أعظم من الالتفات بالبدن ٢٣٨ ـ ٢٣٩

الإحسان درجتان ٢٤٠

علامات الساعة قسمها العلماء إلى ثلاثة أقسام ٢٤٢

باب: فَضْلِ مَنِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ ٢٤٦

نصوص الشرع جاءت جوامع وكليات؛ كليات يدخل تحتها أمور كثيرة ٢٤٦

صلاح القلب يكون في مراعاة أمر الله، واللجوء إليه، والتفكر في مخلوقات الله، وفي المآل، فالحياة سوف تنتهي ٢٤٩

باب: أَدَاءُ الخُمُسِ مِنَ الإِيمَانِ ٢٥٢

امتثال الأمر واجتناب النهي: من الإيمان، وأنه داخل في الدين، وكذلك الشهادتين، والصلاة، والصوم، والزكاة، وأداء خُمس المغنم...؛ كلها إيمان ٢٥٨

باب: مَا جَاءَ أَنَّ الأَعْمَالَ بِالنِّيَّةِ وَالحِسْبَةِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ٢٥٩

الأمور المباحة تكون بالنية عبادات، وإذا فقدت النية فهي عادات ٢٦٠

المتعين على كل كاتب أو عالم أن تكون نيته صالحة، فيصلح نيته أولًا قبل أن يكتب ٢٦١

إذا كان الإنسان في بلد يخاف أنه يُفتن عن دينه، وجب عليه أن يهاجر إلى بلد لا يفتن فيه ٢٦٢

الموضوع | الصفحة

قد يدرك الإنسان بالنية ما لا يدركه بالعمل ٢٦٣
النية تكون في كل عمل، والنية تكون العادة بها عبادة، فلا بد منها، وهي داخلة في الأعمال كلها ٢٦٥

باب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ:
«الدِّينُ النَّصِيحَةُ: لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وعامتهم» ٢٦٦
النصح هو تصفية الشيء وتخليصه مما يخالطه من غير جنسه، أو مما يفسده ... ٢٦٦
الفهرس ٢٧١